

خوان مانويل ماركوس
شتاء غونتر
روايـة
دار الفارابي

خوان مانويل ماركوس

شتاء غونتر

رواية

ترجمة: طارق محمد عبد الحميد

دار الفارابي

شتاء غونتر

Juan Manuel Marcos

El invierno de Gunter

Asuncion 2012

الكتاب: شتاء غونتر
المؤلف: خوان مانويل ماركوس
ترجمة: طارق محمد عبد الحميد
الغلاف: Anibal Caballero

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الأول 2013
ISBN: 978-614-432-074-7

على الرغم من أن جزءاً من هذه الرواية يذكر بعض الأسماء الحقيقية، إلا أن كل شخصياتها ووقائعها قد صيغت من عناصر من عدة أفراد ومن الخيال أيضاً. لم يُرد الكاتب التلميح إلى أية شخصية أو مؤسسة أو حادثة من الواقع، وليس هنالك من سبب لافتراض ذلك.

الجزء الأول

1

قبل قليل من أخذه الطائرة إلى كورينتِس، كان طوطو أزواغا قد أعطى الدرس الأخير من حلقة الخريف الدراسية في أوكلاهوما. كانت الوجوه القاتمة لطلاب الدراسات العليا تومض في قاعة المحاضرات الصغيرة الكائنة في الطابق الثالث عشر من «كاتدرائية التعليم». كان أزواغا قد ألقى نظرة استياء أخيرة على الثلوج الكثيفة التي ما انفكت تتساقط، بادئاً كلامه بقحته المعهودة:

- «كما في كل مجتمعات القارة البدائية، كانت الحياة الدينية لقبائل أل توبي-غواراني تتركز حول الشامانية. كان الباجيه، أو الشامان الأطباء، يقومون بالمهام نفسها كما في أماكن أخرى، وطقوس الحياة تشير دائماً إلى المعايير التي تضمن التماسك الاجتماعي، وقواعد الحياة التي فُرضت على الرجال من قبل أبطال الثقافة (الشمس، القمر أو غيرها)، أو من قبل أسلافهم الأسطوريين. ولذلك، إلى الآن، لم يختلف أل توبي-غواراني في شيء عن بقية مجتمعات الغابات. ومع ذلك، فإن سجلات المدونين الفرنسيين والبرتغاليين والإسبان تشهد على وجود فرق ذي أهمية يُضفي على آل توبي-غواراني مكانة أصلية تماماً

في افج الجماعات البرية في جنوب أميركا. ما المسألة إذن؟ لم يكن الأوروبيون قادرين على رؤية الحروب المستمرة بين القبائل وتجلياتها الدينية إلا كتعبير عن الوثنية ويد الشيطان. إن غرابة النبوة عند آل توبي-غواراني أدت إلى أخطاء كبيرة في تفسيرها. لوقت قريب، ساد الظن بأنها عقيدة الخلاص النموذجية في أوقات الأزمات، ردة فعل على انقضاض الحضارة الغربية. ولكن، كانت قد وُلدت قبل وصول البيض بزمن طويل، ربما أواسط القرن الخامس عشر. على الرغم من عدم تناسب الظاهرة، فقد علم المسجلون الأوائل بعدم الخلط بين الشامان وبعض الشخصيات الغامضة: آل كاراي. هؤلاء لم تعنيهم أية وظيفة علاجية، من اختصاص آل باجيه. لم يكونوا كذلك رجال دين. لا أطباء ولا كهنة، من كان إذن آل كاراي؟ جلّ ما كانوا يفعلون هو التكلم. كانوا يقولون إن مهمتهم هي التكلم في كل مكان. ليس في مجتمعهم الخاص وحسب، بل في كل مكان. كان آل كاراي يتنقلون بدون توقف منتقلين، من قرية إلى أخرى. كان آل كاراي يجولون بدون مساءلة بين قبائل متحاربة، ما كانوا عرضة للخطر، بل كانوا من المرحّب بهم بحماسة. لقد وصل الأمر بالناس إلى فرش طريقهم بأوراق الشجر لدى وصولهم إلى مشارف القرية. (أنت حقاً تشعر بالإثارة. بإمكاني رؤية ذلك من حجم الطوبة خاصتك، قالت إليزا ذلك). لم يكن ينظر إلى آل كاراي كأعداء، كيف أمكن ذلك؟ في المجتمع البدائي، كان الفرد يحدّد بصلة قرابته وانتمائه إلى مجتمعه المحلي. كان يسجّل بسلسلة

النسب وشبكة الحلفاء. لدى آل توبي-غواراني كان الفرد يتحدر من أبيه، وينتسب إليه. من هنا إذن خطاب آل كاراي الغريب: قالوا بعدم وجود أب لهم، بل إنهم أبناء امرأة وإله. لا يهم الآن شبح جنون العظمة الذي يدفع الأنبياء إلى تأليه أنفسهم. ما يهم هو غياب الأب ورفضه. دون وجود الأب لا نسب. هذا الخطاب يفسد إطار المجتمع البدائي، القائم على صلة الدم. وهكذا تفسر بداوة آل كاراي وترحالهم بغياب الصلة بمجتمع محدد وليس بشغفهم أو حبهم للأسفار. لا ينتمون إلى أية جماعة، وليسوا أعداء لأحد. لم يحاربهم أحد ولم يُنظر إليهم كمجانين. كانوا من كل مكان. ما كان يقول آل كاراي؟ كانوا يتكلمون بأبلغ الخطابات. كانوا يفتنون الجموع الهندية بخطاب متميز من الخطاب التقليدي. تطور خطابهم خارج نظام المعايير والقيم القديمة، الموروثة والمفروضة من الآلهة والأسلاف الأسطوريين. هنا يكمن السر الأكبر. ما الذي يدفع المجتمع البدائي المتشبث بصون قِيَمه القديمة والمحافظة عليها إلى قبول هؤلاء الأشخاص الغامضين الذين يُعلنون نهاية القواعد والعالم الخاضع لها؟ الخطاب النبوي لآل كاراي يمكن تلخيصه بتحققٍ ووعدٍ: من جهة كانوا يؤكّدون دون توقف الطابع السيئ جداً لهذا العالم، ومن جهة أخرى كانوا يعبّرون عن اليقين بإمكانية فتح العالم الخيّر. (عزيزي، لا أدري ما الذي جرى في داخلي، كانت إليزا قد قالت ذلك. لو قال لي بعضهم هذا الصباح بأني مقدمة على فعل شيء من هذا القبيل، لكنت قلت لهم بأنهم

مجانين). العالم شرير، والأرض بشعة، فلنهجرهما. وهذا التوصيف المتشائم جداً للعالم لاقى صدى في التسليم العام لدى الهنود الذين كانوا يسمعونه. لم يبدُ لهم خطاباً مريضاً أو مجنوناً. حدث ببساطة أن مجتمع آل توبي-غواراني تحت ضغط قوى مختلفة، كان في نشوة ترك المجتمع البدائي، أي مجتمع رفض التغيير. خطاب آل كاراي كان يؤكد موت هذا المجتمع. كان النمو السكاني الكبير والاتجاه نحو التمركز في القرى الكبيرة بدلاً من العملية المعتادة للتشتت، ونشوء كائنات قوية دعمت ظهور أكثر الابتكارات المميتة: الانقسام الاجتماعي وعدم المساواة. كان الانزعاج العميق يثير هذه القبائل، لكن آل كاراي وعوا هذا الانزعاج وأعلنوه دليلاً على وجود الشر وقبح هذا العالم وكذبه. لأنهم أكثر حساسية من الآخرين تجاه التحولات التي تحدث، كان الأنبياء سباقين إلى إعلان الارتباك الذي شعر به الجميع. إنه تطابق عميق إذاً بين الهنود والأنبياء الذين كانوا يقولون لهم: من الضروري تغيير العالم. (تعالَ ضاجعني، كانت إليزا قد قالت ذلك، آه صغيري، قده إلى المبيت، وجّهه إلى ربو تي، عزيزي، أفٍ، انكأ علبتي، أعطني لو لباً جيداً). ما العلاج الذي اقترحه آل كاراي؟ لقد حثوا الهنود على ترك الأرض السيئة إلى الأرض التي لا شر فيها. هذه الأخيرة كانت في الواقع حيث تذهب السهام بمفردها إلى الطريدة مباشرة، وحيث تنمو الذرة دون أن يعتني بها أحد، إنه الإقليم المثالي حيث يغيب كل اغتراب، الإقليم الذي كان قبل دمار الإنسانية الأولى بالفيضان الكوني، الموقع

المشترك للناس والآلهة. أهي العودة إلى الماضي الأسطوري؟ إن هذه الرغبة المتطرفة في قطع الصلة لم تقتصر على الوعد بعالم دون قلق. لقد منحوا خطابهم قدرة تدميرية كاملة للنظام القديم. لم يغفر نداؤهم لأية قاعدة ولا حتى للأساس الأخير للمجتمع: قانون تبادل النساء. الآن لا مالك للنساء! كان يقول آل كاراي. (ضاجعني، ضاجعني، ضاجعني، كانت إليزا قد قالت ذلك، آه طوطو، تعال ضاجعني). أين كانت توجد الأرض بلا شرور؟ لقد تخطت صوفية آل كاراي الحدود التقليدية. إن أسطورة الجنة على الأرض كانت متشابهة تقريباً لدى كل الثقافات، لكن بعد الموت فقط يستطيع الناس بلوغها. ولكن بالنسبة إلى آل كاراي، فإن الأرض بدون شرور كانت مكاناً حقيقياً، محسوساً بمتناول اليد، يمكن بلوغه من دون المرور بمحنة الموت. حسب الأساطير كان يُشار إليها غالباً نحو الشرق حيث تشرق الشمس. وللعثور عليها بدأت بالتحرك منذ أواخر القرن الخامس عشر، كبريات الهجرات الدينية لآل توبي-غواراني. الآلاف والآلاف من الهنود هجروا قراهم وزراعاتهم صائمين وراقصين دون توقف، أخذوا بالسير متحولين إلى بدو مرة أخرى نحو الشرق، بحثاً عن موطن الآلهة. لدى وصولهم إلى حدود المحيط اكتشفوا العائق الأكبر، البحر الذي تقع وراءه دون شك الأرض بلا شرور. بعض القبائل اعتقدوا إيجادها، على العكس إذا ما توجهوا نحو الغرب. إن موجة هجرةٍ لأكثر من مئة ألفٍ من الهنود قد غادرت من مصب الأمازون مع بدايات القرن السادس عشر. بعد عشر

سنوات، وبعدد لا يتجاوز الثلاثمئة، وصلوا إلى البيرو، التي كانت محتلة آنئذ من قبل الإسبان. كل الباقين كانوا قد ماتوا ضحايا الحرمان والجوع والتعب. لقد استقرأت نبوءات آل كاراي مخاطر الموت الجماعي. لم تختف النبوءات مع آل توبي من أهل الساحل. لقد بقيت في الواقع مع الغواراني في الباراغواي حيث كان تحركهم الأخير بحثاً عن الأرض بلا شرور في العام 1947، من قبل بضع مئات من هنود آل مباجا نحو منطقة سانتوس في البرازيل. وإن كان تدفق الهجرات قد توقف مع آخر الغوارانيين، فإن هذه المهنة الصوفية ما زالت تلهم آل كاراي. وهم إن وجدوا أنفسهم عاجزين عن توجيه الناس نحو الأرض بلا شرور، فإن آل كاراي لم يتوقفوا عن المسير في سفراتهم الداخلية التي توصلهم إلى التأمل في أساطيرهم، وحتى إلى تخمينات روحانية كما تشهد بذلك النصوص والأغاني المقدسة التي ما زالت تتردد على شفاههم. كما أسلافهم منذ خمسة قرون، فإنهم يدركون بأن العالم شرير وينتظرون نهايته. هذا العالم سيدمره النار ونمر كبير سماوي سيدع الهنود الغوارانيين يعيشون وحدهم. هذه الكبرياء الطاغية المثيرة للشفقة، تحفظ لديهم اليقين بأنهم المختارون، وعاجلاً أم آجلاً فإن الآلهة سيدعونهم للاجتماع بهم. بهذا الانتظار الأخروي لنهاية العالم يعلم الهنود الغوارانيون بأن ملكوتهم في الأرض بدون شرور آتٍ، وهي ستكون مسكنهم الحقيقي.

2

إن مطار أتلانتا الصامت يبدو أكبر عند الفجر. طوطو أزواغا يُدخّن وحيداً في إحدى صالات الصعود العديدة في الممر «ب»، هناك زوج من السياح البدناء من عهد ريغان يثرثرون في برغركينغ المقابل، حيث لا تُباع البيرة أيام الآحاد. يمرّ عجوز أحمر الشعر، يدور على نفسه في البار المحاذي، حيث لم يستجيبوا لطلبه وخدمته بكأس مارتيني، فهم بصدد إقفال البار. يعود العجوز أدراجه، ينظر إلى أزواغا بعينين غاضبتين، كما لو أنه المسؤول عن كون اليوم هو الأحد، ويبتعد متمتماً. تذكّر أزواغا بتأثّر تلك الرواية الرائعة لـ همينغواي «مكان نظيف ومُضاء جيداً». وتذكر أنه في مدريد يشرب الناس أيام الآحاد أكثر من بقية الأيام. تذكر حانة صغيرة قرب دوّار كيفيدو وفكّر برقة: «هذه هي الحضارة وليست مضيعة للوقت». متلحفاً بهذا المعطف الحائل والمتجعّد الأزرق الذي يبدو متناسقاً مع لون الغرب الرمادي الرصين، أشعث الشعر وليس حليقاً، والسيجارة الكئيبة والأنف الصغير بين العينين الساخرتين، ما كان أحد ليعطيه عمراً ستين سنة. في إحدى الليالي في مانهاتن، قدّمته إليزا إلى إحدى الفتيات المقلّدات «كأحد

الهواة العاشقين اللاتين لإحدى الكونتيسات السكسونيات، دقيق المواعيد وصعب المراس لكنه من عامة الشعب وليس ملكياً». في كل مرة يجب عليه السفر نحو الجنوب من أوكلاهوما، يُحاول تجنب هذه المحطة الطويلة في أتلانتا. كيف تُراها تكون هذه المدينة؟ لا يخطر بباله إلا سكارليت أوهارا والرئيس كارتر. كلاهما كانا خفيفي الظل. لا بد أن تكون المدينة كذلك. لقد وجد عدة مرات في هذا المطار الضخم ولم يزر المدينة قط. هذه المرة، مع الثلوج وكثرة الرحلات المتأخرة، كان حظه جيداً بأن عثر على مقعد في هذه الطائرة. في ميامي سيستقل رحلة الخطوط الجوية الباراغوية.

- أتريد قليلاً من النبيذ، سيدي؟

كسولاً والنعاس يغالبه بسبب هدير المحركات يفتح جفنيه. تنطفئ كما صدىً بعيد المحادثات في الدرجة الأولى وذهاب المضيفات الخادمات وإيابهن وأصواتهن الرصينة. يأخذ الكأس.

- شكراً كارِن.

يرتشف جرعة. شراب الأندوراغا على أتم طعمه. داعب بشفتيه حافة الكأس وأغمض عينيه قليلاً. أنوار الفجر الخجولة دخلت زرقاء كذلك الذكريات. .... إليزا تقفز على الترامبولين في صالة الشيراتون الواقع عند تقاطع جادتي السابعة والثانية والخمسين، كانت ترتدي بيكيني رمزي، ذات نهدين مكشوفين، وسُمرة كالشوكولا. ذلك الصيف الذهبي العرضي.

- أشارك في المؤتمر، نعم، لقد دعوني ... لو لم يتكفّلوا بكل المصاريف لما استطعت الحضور إلى هنا، زوجي شاعر لا يملك فلساً. اسمي إليزا، لكن يمكنك مناداتي ليزا.

قفزت إلى المسبح الدافئ.

- أتريد مضاجعتي، صحيح؟

قبلاتها دون النظارات، إليزا تستحم بعد ممارسة الجنس.

- إذن أنت تكتبين كتاباً، آه، «ال غوغينهيم».

الماء ينساب على النهدين الكرويين الأسمرين... ومنشفة برتقالية.

- افرك ظهري من فضلك، آه، هذا ممتع، بقوة أكثر يا رجل!

يدها على قضيبه المنتصب.

- دعني أودعك.

تركض إليزا نحو موقع إلقاء الخطب.... إليزا في مأدبة الختام. ضحكتها اللطيفة وأسنانها المثالية الفاضحة، وأساتذة قدامى غاضبون.

- لم أستطع التحمل، أقسم لك! لا أستطيع أن أكون رصينة في الاحتفالات المهيبة، هيا بنا إلى «ال فيلاج»، يجب أن نشرب الأنخاب. اللعنة! من أي متحف أتيت أنا بهذا الشخص المصاب بالربو؟ ألا تبتسم أبداً؟

مشهد برجي مركز التجارة العالمي من موقع «ال لازانيا»، وزوج من كؤوس المارتيني... بصحتك!

- حسناً، ما هذه المحفظة؟ أرني صورة زوجتك. آه! إنها بدينة. وتلك الفتيات الحسناوات؟ ... هل تعلم بأني كنت أود أن أصبح مهندسة؟

إليزا على الشاطئ المقفر. المغيب الصامت في نيوجرسي.

- لا، لا تسألني لماذا. لا أرغب في الزواج وحسب!

المشي هناك على الزبد الحميم... والارتجاف من البرد... ومن المتعة. الارتجاف والبكاء.

- لِمَ ينتهي الرجال دائماً بعرض الزواج؟

ارتشاف. عيون شفافة كالسماء الخضراء، بشرة سمراء ونظرة زمردية. كرنفال ومكتبة. الابتسام بين الدمعات. البحر... إليزا تدخن في سريرها. ورائحة الرجال.

- اسمع، كم سنة عمرك الحقيقي؟ لا تنقص عمرك كأولئك الممثلات الطاعنات.

- هذا العدد الكبير!؟

التدفق...

- قليل الأدب! هات، أعطني.

نفثة من الدخان.

- ثوبك الأسود هذا مقرف.

إليزا في لاغوارديا نحو موقع آخر. وأحمر الشفاه.

- أرني، أمسك لي المرآة، لا، ارفعها قليلاً...هنا. ألن تقبلني؟

الإغراء والجريمة.

- أحمق!

من جديد، أحمر الشفاه والمرآة.

إليزا عائدة من موقع آخر في دالس.... التاكسي.

- «غوش»! أكاد أموت. أجبروني على التكلم بالإسبانية كل الوقت... لكنها كانت شهية ثمار البحر في بن افينيو.

يده.

- ألا تستطيع الهدوء؟ انتظر قليلاً.

عينا السائق في المرآة

- يا للعار.

...السادة المسافرون، خلال لحظات...

إليزا، امرأة، معاً.

- طوطو...

خصلات الشعر الأفريقية هذه على الصدر العاري...مفتاح الخريف الاستوائي.

- ينبغي أن أخبرك أمراً.

الشفاه الغليظة المرتجفة.

... نهبط في مطار مدينة اسنسيون الدولي...

- أحمق، ليس هذا، ألا تظن بأني أعلم ما أفعل؟

النظرة الثاقبة للزمردة المبللة تحت الذقن غير الحليق.

- أقول لك بأني لست حاملاً، اللعنة! لقد تبنيت فتاة... ألا تتركني أخبرك بهذا؟

... نرجو منكم شد الأحزمة...

إليزا أمام باب منزلها. وبالونان ملونان في قبضة طوطو المتوتر على قبضة الباب.

- اصمت...افتح الباب بهدوء! أيعجبك منزلي؟ آه، إن زوجي الحالي ثري! اصمت، إنها قادمة.

الفتاة السوداء مع حاضنتها البيضاء.

- عمرها أربع سنوات.

ابتسامة.

- عزيزتي! هنا صديق لوالدتك. أريني، مدي يدك إليه... هكذا، جيد جداً.

الحماقة الساذجة! البالون الأزرق أو الأخضر؟

...نأمل خدمتكم في رحلة قادمة...

اضطراب...البالون الأزرق أو الأخضر؟ الصمت...والفتاة الجامدة.

... الحرارة المحلية 38 درجة مئوية...

- اللعنة. أعطها أحدهما. ألا ترى أنها عمياء؟

... الرحلة إلى كورينتس تغادر من الباب السادس...

3

- بدأتُ الاهتمام بأمور الدِين، أو ربما قليلاً حول الموت، يوم توفي والدي بالسرطان - قالت إليزا - لكنّي لم أحلم يوماً بالتعرف إلى رئيس أساقفة كورينتس.

تبسم المونسنيور مقدماً لها فنجاناً آخر. أخذت تتنشق بخاره. على المكتب هناك مسيح نحيل يبسط لها بيأس يديه من الألومنيوم. أحد الكهنة بإِسم ألماني قدم لهما إبريقاً من الفضة. قال له المونسنيور كاسيريس بأنهما سيستخدمان إبريقه الخاص، وهو إبريق قديم من الفخار الرخيص كان قد بدأ باستعماله في خيمته الجبلية عندما كان مرشداً في حرب التشاكو.

- هل أنت من عائلة من البروتستانت؟ سأل المونسنيور بصوت هادئ.

- من الأسقفيين الفقراء. طائفة من البيض الأغنياء. هذا يسبب لي بعض العار.

- أنت من أعراق مختلطة، لكن بعيون خضراء. أعرف بعض المسيحيين الأسقفيين الطيبين.

- حقاً؟ أنا لا! من أية ديانة هم أصدقائي لا أسألهم أبداًا! لم أذهب إلى الكنيسة منذ حوالى النصف قرن، أقصد للصلاة - احمرّ وجه إليزا - أنا أكبر عمراً مما يبدو.

- أنتم الأنجليكان من أميركا الشمالية! هنالك الكثير من الكهنة الأسقفيين. يعملون على الحدود. يجففون عرق الذين لا يحملون الوثائق.

- هذا مثير للاهتمام. لم نُقم قط في الجنوب. عندي صديق هناك. يدعى طوطو. قد يأتي لرؤيتي...من يدري، لكن ذلك يسعدني.

- هل ما زلتِ تتبعين الأسقفية؟

- لا، لم نتزوج حتى في الكنيسة، ولا في أية كنيسة، كنت أقصد. إن بانشو، مع أنه من الباراغواي، لكنه من البروتستانت.

- ألماني أصيل الرجل! بالأحرى لا تمارسون الشعائر.

- حسناً، أمابولا شقيقة بانشو، أظن أنها كاثوليكية جداً.

- أعلم ذلك.

- مجيئي لرؤيتك لم تكن فكرة بانشو، بل فكرتي. لقد أخبروني بأن لك الكثير من النفوذ.

- ليس الكثير كما كنت أوَد لو كان لي، سيدة غونتر. تبسم المونسنيور بأسى.

- في النهاية، أرغب في إعطاء الدروس الإنكليزية في المدرسة. أرغب في التعرف إلى الفتيات عن قرب أكثر، من أجل الكتاب الذي أكتبه.

- هذا ليس ممكناً، واضح. المزيد من الشاي؟

- كلا، شكراً.

- منذ متي توفي والدك؟

- آه، منذ وقت طويل. قبل أن نسافر إلى بوخارست.

- استطاع الوجود إلى جانبك؟

- القليل، نعم. كان أبي يسكن في بتسبرغ، ليس بعيداً من المنزل. كان سرطاناً سريعاً، لم يمض عليه العام. رأيته بضع مرات. لكني لم أكن إلى جانبه في اليوم الأخير.

- ولم تقولين بأنك تهتمين بالموت إذاً؟

- كان أول قريب لي بحالة الموت، لا أدري...، ظننت بأنّي سأعاني هذا يوماً ما.

- وهل غيّر ذلك حياتك؟

- القليل، جعلها أكثر حزناً، ربما. أحيانًا أفكر...، لا معنى لهذه الحياة مع كثرة المنافسة والحالات الطارئة، المحاضرات، تدرّج المعلمين، المنشورات، والإنذارات النهائية، أتعلم ما هي الإنذارات النهائية؟

- يدعونها المراتب.

- هذا يسبب لي السعور!

- ... ؟

- قصدت أن أقول التوتر الشديد.

- يجب أن تشعري بالاكتفاء، تبدين بصحة جيدة، وأنت جميلة ومثقفة، ولديك زوج من أصحاب المال.

- طبعاً. أحياناً لا يدري المرء إلى أين يذهب، أليس هذا صحيحاً؟

- هل رزقتما أولاداً؟

- يبدو... تمتمت، إنّي لا أستطيع.

- وهل تبنيتما طفلة؟

التزمت الصمت. نهض كاسيريس ومشى بضع خطوات نحو النافذة المشرفة على الخليج. طويل القامة، أسمر، أبيض الشعر، ذو يدين كبيرتين، ما يقرب من الثمانين عاماً، يشبه الفلاحين في أواخر أيامهم، ذات الحيوية باستمرار، مزارع خشن ذو كتفين عريضتين، وياقوتة كبيرة في الأصابع الدامغة. واصلت هي الجلوس، متلحفة بمعطفها. كان الكاهن الآخر ينظر إليها من خلال لحيته البيضاء.

- أتدرين أني أيضاً أشعر بالخوف من الموت؟

من وقت إلى آخر كانت إليزا تشعر بأن بعض المواقف في حياتها تبدو مأخوذة من الروايات. كالآن، هذا الضجر المقلق، هذا الحوار ...

- سيدي المونسنيور؟ أنت ذاهب إلى السماء!

- لا أدري، على كل حال، لا أرغب في الذهاب قبل الوقت المحدد.

- جميلة هي الحياة، لا؟

- ليس بالضرورة، أخاف من الموت. مثلك أنتِ.

- الرجل... - أخفت إليزا تثاؤبها بقفازها - لا يعلم دواءً للسرطان لكنه يدّعي معرفة اللّه.

- ربما كان ما أقوله هراء.

- أنت لا تقول هراءً ... أبي كان يخاف من الموت، وكان مؤمناً جداً. كان يمارس الشعائر، لا؟ كما قلت منذ قليل. هل يذهب الأسقفيون إلى السماء؟

- طبعاً.

- من يدري، المشكلة هي الوقت ... إنه موضوع أدبي! أتعلم بأني أدرّس الآداب؟

- قرأت ذلك في الجريدة.

- سوف أكرّس لك كتاباً جديداً لي، يصف أيام أنطونيو ماتشادو.

- شكراً جزيلاً.

- والآن يأتي دوري لقول الهراء.

- لا أظنه سيكون هراء، ماتشادو شاعر حقيقي.

- لا أستطيع تفسير كيف يعتبره البعض شاعراً عامياً. أأنت تقرأ الشعر؟

- حسناً، إن الأناجيل هي شعر.

- قصدت أن أقول، شعراً...، علمانياً أكثر.

- أكيد. عندما توفي نيرودا أقمت قدّاساً عن نفسه، هنا في الجهة المقابلة، بطلب من قنصل تشيلي، أولاده عرابهم اللندي. ونيرودا كان ملحداً، يبدو لي.

- لا أدري، أعتقد ذلك. في الواقع كيف يكون ملحداً من يستطيع الحب بهذا القدر.

- معك حق، لا أحد يكون ملحداً في قرارة نفسه.

- أنا لست كذلك.

- طبعاً لا يا ابنتي، وغونتر؟ زوجك؟

- هو رجل اقتصاد.

- وسوليداد سانابريا؟ ابنة شقيقته؟

- لا أدري، هي تدرس في مدرسة كاثوليكية، أليس كذلك؟ أعلم بأن الحكومة تدّعي بأنها شيوعية، لكن أمها كاثوليكية حقاً، من المؤكد أنها هي أيضاً كاثوليكية.

- رائع هو العقل البسيط لدى الأجانب! ابنة شقيقته وزميلة لها في المدرسة، فيرونيكا سارِيّا، نظمتا التظاهرات الطلابية في حزيران للاعتراض على زيارة الجنرال ألكسندر هيغ، مبعوث الرئيس ريغن. ريغن يدعم الإنكليز في المالفيناس.

- أعلم ذلك، لكنني أقول إنها كاثوليكية على طريقة الأب كاردينال، شيء من هذا القبيل. هل قرأت أشعار كاردينال؟

- نعم

- هل تعجبك؟

- كثيراً، مع أنه ليس بشاعري المفضل.

- مونسنيور، الآن أقبل منك كوباً آخر من الشاي.

تائهاً، اقترب كاسيريس من أحد الرفوف خلف المكتب وأخرج كتاباً سميكاً ذا جلد أزرق، قلّب بعض الصفحات، الفهرس، ومن ثم أعاده إلى موضعه.

- لا أدري، كنت أبحث عن شعر... قال - لقراءته، صبراً، لا أجده.

- أي شعر؟

- «السفر النهائي»، لخوان رامون خيمينيز.

- لكن، أيها الرجل! - ضحكت إليزا، أقصد، مونسنيور، هذا احفظه عن ظهر قلب.

ضحك هو أيضاً، بارتياح أكبر.

- إذن يؤلمك بأن تستمر العصافير في الغناء، قالت إليزا، ساكبة لنفسها الشاي.

- الأدهى ألا يستمروا في الغناء بسبب الإشعاعات - تمتم - أتعرفين، لكن، ألم تكوني يوماً عاشقة؟

احمرت وجنتا إليزا.

- من المؤكد، طبعاً، ما زلت أعشق غونتر.

- ألا تدعينه الآن باسمه الأول؟

- بانشو، غونتر، لا فرق.

- وهل كانت لك مغامرات كثيرة؟

- لكن، مونسنيور - أجابت، محركة كتفيها بدلال إسباني - هذه الأشياء لا تُسأل ...، إن الكهنة رؤيويّون قليلاً.

- الرسول يوحنا يقول ولا يقول إن السيف في فمي وهو ذو حدين. أنا سألتك بحدّ اللغة الأم.

نظرت إليه مصدومة!

- لقد قالوا لي بأنك على شيء من الغباوة.

مد كاسيريس لها يده اليمنى.

- سيدة غونتر، سأقول طاب يومك، أو بالأحرى طاب مساؤك.

وقفت إليزا ومشيا معاً إلى الباب المصنوع من خشب الأرز المنقوش تعالي لرؤية الأم طورّوكس، تستطيعين البدء غداً.

- وأنت أبتاه، أما كنت أبداً عاشقاً؟

دفعها رأس كنيسة كورينتس بلطف نحو البهو.

- بالطبع يا ابنتي، كل يوم.

4

بعد الدردشة مع رئيس الأساقفة، رفعت إليزا ياقة معطفها، بحثت عن مقعد في الساحة، قبالة الكاتدرائية، وجلست تتذكر مدريد. على بعد خطوات منها ما زال تمثال قبطان إسباني يوجّه سيفه الحجري نحو الطيف الذي قاده إلى إنشاء هذه المدينة في طريقه إلى الدورادو، منذ ما يزيد على أربعمائة عام. لتكن آيتك الصباح المسكوب على هواء الصباح العصبي (بول فيرلين). في وضوح مياه البحر العديمة الوزن ومرح إشراقة شموع الصباح، فراشات ومصابيح فاردة أجنحتها تحيي ذكرى الندى والشمس والحياة والهواء. هائلة هي حالة السكر النجمي للمهووسين، أود لو أكون جندباً عازف كمان، هارمونيكا عديمة الصبر ذات فتحات مبللة، و«مادريجال» متسلل هنا في العشية. أشجار اللوز والصنوبر، فيروزة الوقت المُبكّر، التهويدات، النسمة، الومضات، وأم أربع وأربعين وليدة اللحظة، الزيز الحريص، يبهرونه ويتقاسمون دمه. كما قلب النهار الموسيقي والرشيق تقفز إذاً إلى الهواء عاشقةً. يداها نهران واسعان من الضوء ورائحة الاخضرار وشفتاها عناقيد من الكلمات. أناس من كاستيّا والباسك لم يجدوا قط مناجم بيزارو. لقد

أسسوا، إلى الجنوب من هنا ذلك العرق المزدوج الحدود، المزدوج البشرة، المزدوج الروح، المزدوج اللغة، حيث زوجها، من أبٍ وأمٍ بافاريِّين، لن يجد نفسه أبداً، رغماً عن أنه ولد في بلاد ما بين النهرين في العالم الجديد. عندما تعرفت إليزا إلى غونتر في الخمسينات لم يكن ليخطر ببالها بأن ذلك الاقتصادي الأشقر المتحذلق كان ابن جنوب القارة. لقد اشتبهت به، نعم، بأنه من أصل أجنبي، لأن لكنته الإنكليزية كانت جد مثالية، كما لو كان يحاول الاستمرار في تقليد لكنة نيوانجلند أمام معلمة قواعد خفيةٍ وعنيدةٍ. كان غونتر حينئذ في السابعة والثلاثين من العمر، وهي في الثلاثين. في منزل عميدها في ميريلاند، كان شخص نحيل وطويل يرمقها بنظرات شديدة الحنان، بينما كان يمضغ بطريقةٍ بروسيةٍ عيداناً من الكرافس مع جبنةٍ رديئة. كان يشعرها بالتوتر. ظنت بأن ذلك التيوتوني (سكان جرمانيا الشمالية)، الذي يظن نفسه عازباً مرغوباً فيه بين موظفي واشنطن، سيكون مملاً في الفراش، فضلاً عن رائحة فمه الكريهة. لم تكن تتخيل نفسها مع تلك الجسامة فوقها تحاول أن تُدخل في فمها لساناً من الكرافس. عندما كانت شابة أكثر أحبطت إليزا زواجاً لا ترغب في التفكير فيه. الطلاق، وكانت مقتنعة، ساعدها كثيراً في مهنتها. معتمدة على مركزها كمعلمة مساعدة للإسبانية، لم تدع نفسها تخاف من أحد، ولا حتى من اقتصاديين عبثيّين زملاء دراسة سابقين لعميدها. لكن تلك الزنجية التي لا تُقاوم ذات العَينين الإيرلنديتين والمخارج المشرقة، التي لا

ترغب في الزواج، كانت لتُحفّز الشغف الوحيد في حياة غونتر. كان نهداها على نمط بوتشيللي وضحكتها اللطيفة يُصيبانه بالجنون. لقد غازلها بفعالية لا تُقاوم. لقد تخلّت عن فكرة أن تكون مجنونة ومتورّدة - حمراء مثل هذا المقعد في الساحة حيث تجلس، الخضاب الأكثر عاميّة المُعترف به من قبل عسكر كورينتس. لقد قضيا في باريس أول حزيران من العسل، بعدها، بقية أشهر العسل راوحت بين رعشات الجماع وتثاؤبات كيمائية صرفة. تحمّل كلاهما الآخر والترقيات الوظيفية لكليهما، وفقدان أطفال إليزا، والحياة المنظمة بدقة الساعات السويسرية. تشبيهات واستعارات. إليزا تفضل الساعات: كانت الجبنة تذكّرها بكرافس العميد. غونتر كان يمضغ أيضاً البصل، الصنف النيئ من مطبخ المدفعية الألمانية. وكان يبتلع غالونات من البيرة يومياً (استبدلها بالويسكي عند بلوغه الخمسين عاماً)، لكن تمارين ركوب الخيل التي كان يمارسها عند استيقاظه حافظت له على بطنٍ مشدود ومستوٍ. وإليزا كانت تُدلِّل غونتر مثل جزرة عظميّة مع الفلفل الحار.

لقد اكتسبت عادة التفكير في مدريد في أوقات نسيانها. كانت تتذكر الخريف والأجراس القديمة والأفق المشتعل في مونكلوا، وذهب الاموس، وشجر الحور المسكوب، تماماً كما كانت تتخيله في غرفتها في بيتسبرغ، دارسة أعمال ماتشادو، تماماً كما كانت تتمناه على متن طائرة ايبيريا (التي كانت أرخص ثمناً).

في مدريد أدركت أن الفن البنفسجي لماتشادو كان قد تبدل كثيراً

مع الحرب الأهلية؛ لأنه وبدقة، تلك الأبيات الذهبية أسالت الصُلب لأوقات الغروب في مجلسها في أرغوييس. إسبانيا منقسمة إلى الأبد بجرح الموت. كان على إليزا، لسوء الحظ، العيش في مدريد الجلادين، ولم يكن هناك خيار آخر. كان فرانكو قد أنقذ إسبانيا من السينما الجيدة، من الحرية ومن أوروبا ومن المكتبات العلمانية والمسرح الأجنبي. استُبدلت الجامعة بالحرس المدني وبالدير. لكن إليزا كانت تُعجب بالناس، تلك المادة الصافية التي لم تستطع الديكتاتوريات أن تحلّلها. بائعة الحلوى، ساعي البريد، صاحب الحانة، البوّاب وامرأة سوق الخضار جاهروا جميعاً بالعصيان، انتزعوا الصرعى من وادي الموت، كلهم كانوا وولت ويتمان.

لقد حدّدت إليزا مهنتها ولغتها الثانية. اختارت ماتشادو مادة لأطروحتها وبدأت هذا الكتاب، وهو الآن كلاسيكي متداول ومترجم إلى ثلاث لغات، كانت قد ذكرته لرئيس الأساقفة. اعتادت في مدريد هاجساً مهبلياً، ليس أقل شاعرية؛ الشباب الإسبان كانوا يمتلكونه أطول وأثخن، وأكثر انتفاخاً! لقد عاشرت تقريباً كل الشعراء المغمورين آنذاك. وبعدئذ، وكانت قد تزوجت، استعادت العلاقة مع بعضهم، كما قالت لغونتر: «وأنا التي كنت قد ذهبت به إلى النهر ظانّة أنه مراهق، إذ به صاحب باع طويل».

نبيذ النكات والطلبة الذين لا يضعون مزيل الرائحة. وبهدف السخرية منه أحياناً ولإثارته، كانت تهمس في أذن غونتر: «ما جرى

أني لم أحظَ قط بفحل جيد، مثل الملك». غونتر، الذي كان معجباً بفعالية فرانكو، كان يغشى عليه من الضحك، وهكذا همّا بالوصول إلى ذكرى زواجهما الفضية. كان غونتر قد تعلم بأن كل الإسبان أغبياء. والداه، مزارعان أمّيان أتيا من بافاريا وغُرسا في الأدغال، كانا قد تعلما لغة الهنود وليس الإسبانية. حصل غونتر على منحة في المدرسة الألمانية في العاصمة. كان باكراً كتفاً إلى كتف، إلى جانب أولاد العائلات الغنية الذين كان لديهم معلمون خاصون للغة الفرنسية. لكنه أخذ على محمل الجد الدروس المجانية بالإنكليزية وآل نيوديل التي كانت تُدرّس ليس ببعيد عن مدرسته في القنصلية البالغة النظافة بمعجون الأسنان لبلد الشمال الكبير. وهكذا في عام 1939 كان قد بلغ البكالوريا بأفضل العلامات. لم يكن قد مضى ثلاثة أشهر على اختيار جنرال لا مثيل له كرئيس. قائد مظفّر من حرب التشاكو، ذو عادات صارمة وأبوين مزارعين وثقافة أوروبية. قائد دون استعمال السلاح ضد شعبه وبعفوية نفور فرنسية من الفاشية. ابتدأت القصة من التوس، في الأعالي، صعد المارشال الملتحف باللهب إلى الأرض الخضراء كسهم من الماء، لا يقف هناك تحت أجنحته المكسورة، إنما هو تواضعه ما يمنعه من رفع الصوت الآن، حياً أو ميتاً. لكسب الحرب لا تنقصه تلك اللفتة الصوتية، يكفي حب الوطن وكونه ذكياً. ادخل إذن إلى التوس للعيش في الأعالي، بمستوى الشعب، للتكلم بالفرنسية، بالغوارانية وبلغة الحديد. لقد رأوه قبل المساء طائراً كما

نجمة باحثاً عن استراحة المحارب. مراقبته كانت صافية كالنجمة. لم يكن لأحد كإيماءته في الفضاء الذي لايقهر، أو كنظرته النارية كالنسر السماوي. لم يكن لأحد كجيوبه الفارغة. وتستمر المعركة، والتاريخ يكتب في الأعالي. اليوم هو السابع من أيلول (سبتمبر)، للأبد، كان قد رسّخ الصداقات القوية عالياً. أحد أهل الشمال أولئك كان قد وعد بمنح دراسية للشباب في الباراغواي. كانت هارفرد من نصيب غونتر، لكن أبويه اعترضا ذلك العام. كان لديهما ولد ذكر أوحد. أمابولا التي كانت قد بقيت في القرية الصغيرة، لم تبدُ قادرة على إتمام زواج مغر. لكن الرئيس توفي في عملية تخريب جوية وخلفه أحد عساكر اليمين. كان آل غونتر يتعاطفون مع المحور، لكنهم انحازوا تلك السنوات إلى عرض من يال لتخليص بانشو من هيستيريا هيرودوس.

الحياة في يال كانت صعبة بالنسبة إلى غونتر. كان يتقصد النزول للنظر في شارع تشابل، عند أقدام نزل دونكان. في الطوابق السفلى من أولد هيدلبرغ، الذي كان قد أسس منذ قرنين في نيو هافن، والمحار المحشو وبيلسنراوركل، كل ذلك بالنسبة إليه كان صعب المنال بمنحة على قدر فرد لاتيني. تخرّج بامتياز، ونال الماجيستير والدكتوراه في نهاية العقد. مات أبواه بالسرطان في الأربعينات، باختلاف عام واحد بينهما. صرف غونتر مدّخراته وحضر مراسم دفن والده، لكن عندما توفيت والدته لم يكن لديه نقود. حصل على وظيفة مكتبية جيدة. ساعد أمابولا بعد عام من زواجها من سانابريا. كان عراب عمادة

سوليداد. تحت حكم ايزنهاور كان قد حصل على مركز مالي مرموق وثابت، وجواز سفر أجنبي. وفي عام 1958 لم يكن يمارس التنس مع بوب هوب لكن مع زملاء قدامى، عميد إليزا مثلاً.

كانت قد مرت سنوات عديدة! وعادت إليزا لتحلم مجدداً بمدريد. لماذا كان يعتقد غونتر بأن كل الإسبان أغبياء؟ من الواضح بأنهم قاموا بمجهود تاريخي كبير، ليس بسبب أورويل. وهكذا وصل سارمينتو، أول «قرد» أرجنتيني تابع للأميركيين وقد توفي منفياً في بستان ليمون، ليس قبل أن يصرخ قائلاً إن إنكلترا هي أم الودعاء وإن الهمجية هي نتاج النمر.

كان آل غونتر الخجولون والعاملون بكدّ قد علّموا أمابو لا أن تقوم بالواجبات المنزلية بانضباط، لكنهم علّموا ابنهم البكر كرامة القيصر. كانت إليزا قد شكت من ذلك منذ البداية. والآن، نحيفة، نشيطة، مثل جين فوندا. تبّاً! خمسون عاماً، تُثقل الكاهل. كانت تفضل النظر إلى الأمام، في وسط هذه الجحيم الاستوائية في عز الشتاء.

لِمَ كان يفكر غونتر بأن كل الإسبان أغبياء؟ كانت ساخطة. كانت تتذكر تلك الحانات، مطاعم الطلاب الصغيرة في آرغوييس، هذه الحياة التي تأتي لبرهة كمذنّب باهت في ساعات الصمت الدقيق الأجش، هذه الأشياء التي تحدث هناك، لأنه بدونها، لا يمكن، مرتجفة كسرّ بين العيون الزائغة والرماد الزائغ والذاكرة، هي تحب الماء الذي ينساب من النهار، من وسط النهار كاملاً مثل صفحة بيضاء، لا تريد

هذه الأسرار الصامتة المظلمة التي تشتعل في الليل كما البتلات الحمراء فَحْمات الروح الصغيرة هذه في مهب الريح، والعواء في أوقات القيلولة كما في قاطرة مقفلة بعيدة، في هذه الأشياء القديمة، زوايا عالم آخر، العالم كما الصاري المدوّي وكما الحريق؛ في هذه الأيام يتمدد هرقل ويخرج ليمشي معها ومع حنينها. قد يقول آخرون بأنه الخريف إذا قد بدأ، لكنها تعلم بأنه قد أتى من قبل، وبعد كل شيء، فغداً يوم جديد. كان أحدهم يُملي عليها هذه النصوص، النصوص التي يكتبونها في أواخر الأسبوع، عندما كانت عيناها تشربان كأس أشجار الصنوبر في المدرسة في الخلف، والمشهد مع ثوم وبدون بلد، لكن مع كل نهر الناس، والآن وقتها، سمكة مقلية لم يتمكن زوجها قط من التمتع بها، وفجأة شعرت أنها خسرت عشرين عاماً إلى جانب شبح.

كم كانت كئيبة عطلة نهاية الأسبوع! تتذكر مثلاً كم كانت النجوم ساطعة ليلاً، وكيف كانت المحارة الزرقاء الدسمة ترتجف في الأماديس، طاولة ضخمة مزينة بأجمل رموز فن الكتابات القديمة، ملحقات صفحات الفروسية على الجدار، شارع اندريس ميادو، وبوضوح أكثر شارع آخر، توبر، في فيرناندو الكاثوليكي، عند الانعطاف من غاليليو، حيث لا يبلغ سعر قطعة الغالوبينا الدولار الواحد، والقطعة الثانية كانت مجاناً، إذا ابتسم أحدهم لـ جيما –سنة ونصف سنة وذات عينين زرقاوين – ابنة خوسيه لويس وفتاة لم تعد تذكر اسمها، وكانت تُعد أفضل الفول على وجه الأرض. طبعاً، لم يكن

بإمكان الجميع الوصول إلى مدريد بواسطة جواز سفر أجنبي. تتذكر إليزا طفيليي الهجرة المجهولة، الذين لفظتهم أميركا، والذين نحتوا مداخن من دخان بسبب الضغينة التي أكنّها أتباع فرانكو لمعارضيهم، الذين وجدوا في أحذيتهم نهار الملوك الذي لم يستطيعوا قط استرجاعه من الطاغية، وهم الآن مثلهم، يمنعونه عن منبوذي العالم.

يحل الظلام في الساحة. يمر الشتاء أمام عينيها، ومرة أخرى صيحات الصنوبر اليابس. يعبر أحد المشاة بسرعة. لقد فهم أحدهم، كئيباً، ذلك المعطف، تلك السيجارة التعيسة الباردة، تلك النظرة، بعيداً ما وراء البحر، في أرض كاستيّا. لم يتوقف أحد بعدها. لا تسقط الثلوج دائماً في مدريد، وهذا كل شيء. لا يذكر الرجل أيّه كان آخر عناق له مع أهله، ولا لون الطائرة، ولا أيّه بالضبط وجه هذا الإلحاح. يعلم أنهم هناك وأيديهم مفتوحة بالانتظار، وبنظرة ذلك اليوم نفسها، عاقبتها منسية في الرمال الرمادية. هذه الأحذية التي مشت طويلاً ستأخذه بخطىً كبيرة نحو منزله. لكنه يبقى مرتجفاً في الساحة، لم يختر هذا الشتاء ولا أي شيء غيره، ولا المنزل، ولا هذه المدينة، ولا الهواء. بعد كل ذلك – يفكر–لا توجد مسافة أكبر أو أكثر حزناً من تلك التي لا نستطيع قياسها. عند الغروب. نحن البلهاء، كانت تقول إليزا، دون فعل نكون، كما في لغة الغواراني، ودون شك بسبب سارمينتو.

غونتر، غريب، لكنه عم سوليداد. إنها تذكرها بشكل مبهم في منزلها في واشنطن. كانت تعدّ له لحم الغنم كما علمتها كولومبو،

صديقتها من سيغوفيا. كانت الصغيرة تمص أصابعها. بعدها، أمرها غونتر بغسل الصحون لأن الخادمة السلفادورية كانت قد نامت. كانت إليزا تحبها بغرابة وبدون شك بصداقة عقائدية. كانت تفكر بكل بساطة: لا يملك أحد الحق بحرمان أحد من الاستمتاع بحساء الفاسباتشو في أكثر المدن حزناً وجمالاً على وجه الأرض. وكانت إليزا قد أغوتها إلى الأبد عند الفجر، عندما قالت لها بأنها ستذهب يوماً إلى مدريد وتريد أن تعرف بالضبط أين كانت تقيم لتمرّ من أمام منزلها، وتتكلم مع بواب العمارة، السيد انخل هونتانار، وتشرب النبيذ ذاته. لقد أجهشت إليزا بالبكاء كالبلهاء فوق طعامها من لحم الغنم البارد، وأحسّت بأن أنطونيو، بمرور الوقت وإثارته العبثية، تبّاً له، كان دائماً على حق. هنا ينبلج فجر صدى خوف غريب، وأناشيد الروح الشاحبة ترتجف في الدم. (رينيه دافالوس، نسخة مينارد). في الرماد الباهت لهذه الأمسية اللامتناهية، في الشقوق الخفية، في الكاتدرائية المترددة، يتبعثر عبق عذاب الأقحوان، وأطلال البلوط الواثقة، تحت أشعة الشمس المتعجلة والإيقاعية، في السبات، ببطء بدون تعويذة، بدون زوايا، يطول بها الزمن في هذا الكفاف الواسع الحذر، كما الجدار المختبئ. في العبء الرطب لتلك الهدنة المدرعة، الحركات، الظلال، الأصداء، الحر الشديد، الأبجدية الكستنائية، ومشاوي الساحات التي لا تحصى، كلها تزيد في غضبها. ضجر، سبات وعادات، ببطء، في رباعي سحيق، تدمرها الأيام الكارثية. بعيداً عن نفسها وفي وحدتها الهائلة في ساحة ريتيرو، تكفّر عن آمالها المكتملة.

5

استمر الحر مع الستائر المفتوحة، ظلال رياضي قوي البنية ارتسمت في وسط الجدران السميكة الخشنة. وحيداً ثار العملاق كما الفهد المأسور. ومضات سريعة من مصابيح الشارع الليلية كانت تنعكس كصرخات على لحيته الفضية. مخنوقاً، مشى كالنائم في قلّاية الأسقف الكثيفة، ألقى بقميصه على السرير المبتل بالعرق، متوتراً أدار مروحة السقف.

- هذا الجهاز اللعين يسبّب لي آلام الحنجرة.

بدأ الجو يتلطف، ستشرق الشمس بعد قليل، ليلة أخرى من القلق.

- «انياراكو»، راح يَشتِم ويلعن بالغوارانية... من الأفضل أن أقوم بعمل آخر.

زمجر كالرعد، وأنار المصابيح. في السقف العالي والرطب تلألأ زوج من أنابيب النيون. رفوف ضخمة ومتداعية من الخشب كانت تغطي أحد الجدران. كتب، خزفيات، أسطوانات، مجلات، معجون أسنان، مزيل الرائحة، آلة حلاقة كهربائية، حيوانات من خزف، وصور

قدّيسين. من تمثال للعذراء مريم تدلّى قميص نوم وسخ. على بقية الحيطان، لوحات مائية لأطفال، وتصاوير لامرأة معلقة بحبال تقليد للوحة غيرنيكا. صورتان ضخمتان لجين فوندا، إحداهما لجسدها كاملاً، عارياً والأخرى لوجهها وعلى رأسها طاقية في هانوي. بين كلتا الصورتين مسبحة من خشب مصقول، معلقة بمسامير ريفية من الجمعة العظيمة.

جلس الضخم ذو اللحية البيضاء إلى مكتبه. مخطوطات، أكواب، قنينة فارغة من الفوندادور، علّاقتا مفاتيح، ساعة الكترونية، مشط، أقلام، دفاتر امتحانات مصحّحة بحبر أحمر، صليب من النحاس الصلب وغلاية قهوة كهربائية كانت تسخن القهوة. عينان نصف مفتوحتين تفحصان بغموض الصليب البارد. مسيح نحيف ومُغمى عليه كالذي على مكتبه يفتح له ذراعيه الطويلتين المعذّبتين.

«لا بد أن يكون الخلود كهذه الليلة»، راح يُفكّر، منذ نصف قرن، بين الحيرة والحنين، عبر الصدى الأصم لحرب التشاكو، والانفجارات المتباعدة، كان القصف البعيد كالسعال الوردي في لهجته الخاطئة والمصيبة. هدنة غياب خيالي طوعي. نفق لاهث نحو الذكريات أو الحلم. نسيان معدني وسرّي، مُحاصر بتفجيرات بعيدة، بمجموع نفثات أفعوان ذكر، والنباتات الموقدة في حداد كإشارات، والشكوى المفجعة للغابة. يقف دون حراك، جامداً أصمّ كصخرة دون الزمن، مزمور مُتأخّر (عواء الغروب) في مشاهدة الصحراء. ثابتٌ فوق

الضيافة العزلاء لجذع اقتلعه البرق أو فأس الرجال وفاسدٌ بسبب جو من اللبلاب والصمت، كمرثاة خضراء وأساسية، كالذي قد يعود إلى المأوى، إلى الأرض، إلى البذرة. لم يأمر أحد باندماجه. ربما كانت جبة الكاهن قد حمته من الشجار. لكنه هنا الآن. شعرات من القمح على الجبين الأحمر. ذقن من الإعصار، على الرأس. زعيم ناري، غضب صافٍ من هذه القافلة العنيدة والجريحة من الفلاحين، شغف أساسي ونظرة كاملة. دون مصابيح. ولا كلمات. ولا ماء، يتأمّل. يُشفى بنفسه عند الشفق. مُسَمّراً في الزوايا والخسوف. هو الذي التهم الكتب وفك أسرار الكتاب المقدس، يُطارد الآن في الظلام. بعيداً من روسو، من ابيسن، من اغوسطين، من لارّا. استبدل فعله الكرسي بالخطاب. من الخاتم إلى الزناد، منتقلاً بالتواء إلى الزي الموحّد الخاص. متدرجاً من العنزة، فحمار الوحش إلى الأفعى، إلى علم الجبر بالبنادق. مسجوناً دون تمرّد أو تقاعد، قضيب يرتفع من جديد، شجاعة متوحشة، لإعلاء الوطن، طريقة الحب هذه بعد الموت. يفحص في الظلام، الشمال الشرقي، السماء الذائبة والمثقلة، يخفض جفنيه على إشاعة الحديد، والرماد، مُختبئاً حيث لا سواد كمغنّي الجاز بين الغيوم. يبحث دون تسرّع في جيوبه الفارغة كمرشد عن آخر سيجارة. يحرقها ببطءٍ لذيذ. راسياً في هذا المونولوغ المجهول والمُعادي يسترجع عادة التبغ الانفرادي، هذا الاحتراق الهش المُقنّع، تُبدي رأيها في السكون. هذه الوقفة في نظرة الزعيم الساطعة التي تغمز في عتبة الصُدف والنسيان.

خلف الجراح (تعلمون) يسكن السّحر الليلي للاستراحة العاديّة، دون أية أنثى سوى العطش الذي يرويه جوز الهند. إن إرشادات قيادة الأركان كالعادة، كانت دقيقة. لقد اعتمدوا عليه. يتقدمون تحت مسؤوليته، مُنصتين إلى سعاله، رهن نظراته وإيمانه. هذا الولاء الذي لا يسبر غوره، يتولد في هذا الجمع من الخُرَق الجريحة، هذه الفصيلة القاتمة المختلطة، هذا الشعب الصامت والممكن الذي يمشي معه، الذي يذهب نحوه. كلمة السر النهائية. الشيء الوحيد حيث القتل ليس بخطيئة. يَنزف دماً. لقد قبّلوه عن قرب على الخدّ الآخر. لا يريد أن يورّث تركة سوى هذا الثقب. وملازم الصحة (طبيب متمرّن) اعترف له بأن الأثر المعنوي للمعركة قد يطغى أحياناً على الوجع، ويُحصّن المحارب بمقاومة أكبر من قواه. كالحيّة في جحرها، مُشَوَّه، قائد، ملاك، تُحفّزه قوة أسطورية. النصر، حجر «الفيل» المجنون على رقعة الحرب المميتة للاستراتيجيين، مكان حيث الانتهاء، موعد مع السلام، تخيّله دون تعجّب ولا تردّد، مثل أم عذراء.

- قد يناسبني قراءة شيء ما.

دون عجلة يقترب من الرفوف.

- تشار أو بافيسي؟

يبتسم، بحزن المُحاربين. يسحب إنجيلاً على قدر الجيب، مغلفاً بجلد بنفسجي. يضع أسطوانة. تنفجر هادرةً أصوات الأوركسترا. مدهوشاً، يخفض الصوت. كتابه بيده، يعود إلى الكرسي، يفتحه: إذا

أغوى أحدهم عذراء غير متزوجة وأجرى معها تجارة جسدية، فإنه يدفع مهرها ويتخذها زوجة. إذا رفض أبوها إعطاءها له، يدفع المُغوي المهر الذي اعتاد الناس إعطاءه في العذارى .... دون أن يرفع ناظريه عن القراءة، راحت أصابعه تتلمس الطاولة حتى اصطدمت بالزجاجة. شرب بعض الجرعات. تجشّأ. كانت ذراع الفونوغراف تمتطي صهوة الأسطوانة في البعيد. تحت الهواء الكثيف لشفرات المروحة الناعسة، كان الجذع الملتحي ما زال يتصبب عرقاً. يضع الكتاب المفتوح على الطاولة. يرد رأسه نحو الخلف، يمدّ مُتعباً ذراعيه القويّتين، ينظر إلى شفرات المروحة البطيئة ودوائرها الوديعة. تفتح جبهته أخدودين عميقين في الشعر الطويل الشائب. اللحية الكثيفة تُشعره بالحمى. يبتسم. ينساق للنعاس. رنين الهاتف يهزّه. نهض منتفضاً من على الكرسي.

- «من عساه يكون في مثل هذه الساعة»؟

يرنّ الجرس مُختبئاً، مكتوماً. «اللعنة، أين وضعته». يضع جانباً بعض الأوراق، ينظر إلى الرفّ، يفتح الأدراج، يهزّ الخزانة. يبحث على ركبتيه في إحدى الزوايا، لقد اكتشف السلك، يتتبعه بتوتر؛ على السرير المنكوش، يرفع وسادة ثقيلة.

- مرحباً! نعم، أنا كاسيريس - يجلس على السرير - طبعاً يا صديقي، أقول لك إني أنا نفسي، لا، إنه الزكام، تُؤلمني حنجرتي - يسعل، يبلع ريقه ...، كنت أنتظر ذلك، أنا خارج الآن حالاً...، نعم يا رجل، الآن اعلم.

وضع السماعة بعنف. في هذه اللحظة قرع الباب.

- مونسنيور كاسيريس؟ يصدح صوت عجوز خافت. افتح!

راهبة صلعاء، تبدو قزمة، وغطاء رأسها يرتجف. تصدح، بعذوبة:

- يكاد الأب مارسلين يُسلم روحه هذا الفجر.

- لقد قال لي الطبيب ذلك! تمتم المُلتحي، وأغلق الباب في وجهها.

لبس ثيابه كالبرق. بقفزة واحدة جلس إلى المكتب. أمسكت يده الحديدية بالإنجيل. أبرقت عيناه للحظة فوق الصفحات المفتوحة التي أغلقت بعنف وذهبت لتستقر في جيب سترته السوداء الأنيقة. أسرع في الطريق كما المُلاحَق من ملائكة الجحيم، مُتذكّراً بقشعريرة جملة الكُتيِّب البنفسجي، التي قرأها في آخر لحظة: لا تدع المُشعوذة تحيا.

في ساعات الصباح الأولى، أعلام الأرجنتين والفاتيكان تتموّج بصخب على الجوانب اللامعة لسيارة المرسيدس السوداء.

لقد تمدّد هذا المسار وطال كثيراً، مع كلمة اللّه، هذه المهنة المُشَفَّرة، منذ حياة المراهقة، بين السجع والإدغامات، على مدى الوقفات الكثيرة في المعهد. يتذكر تحدياته السرية (اعتداءات الأصوات)، بلطجية قواعد اللغة وتواضع المعجم وعفة المسودة وأخيراً انصياع النص اللاتيني المطبوع، تلك الصفة برائحة الحبر، تلك الفاصلة الأساسية التي ذهبت بعامل الطباعة إلى الغيبوبة، والبارود

الرعوي في الواجهة، وحنية ظهر هرّ الأبرشية. في الليل (هذا الوقت دون زوايا لكن الممتلئ بالرقائق، حيث لا يشيخ شيء ولا كل شيء آنيّ: أهو الآن) وحدها ممكنة قراءة الرموز غير المكتوبة، وشم أمّي تحت خلّ دون قمر بين الوحدة والدخان، بعد كل ذلك، هو الآن قديم. روما كانت تشبه مجازياً النهار. وعند الغروب فقط تهمّ هذه السيجارة والاشتياق إلى النبيذ. حبه للشاغال الفيروزي (كان يرتدي دائماً ذوات الياقات البيضاء) والآن هذا الغضب الأخضر الذي يخدش الغابة والحرب التي تلتهم مثل دودة الموت.

جالساً على هذا الجذع القديم الممتد بروحه، يتأمل مُتعباً عقب السيجارة المحترق بجحود بين أصابعه. صدره الضيّق ينفتح باتساعٍ على الهواء القوي أيضاً هذه الليلة. لن يداعب النعاس الرموش ولن تُعَوَّض القوى المتمزقة خلال الطريق للرجال التي تعاني الكآبة والعطش. كيف سيصبحون؟ بأي سحر سيكون الصباح؟ سأذهب من خلال العاصفة وسأطلق النار على الموت إن كان ضرورياً. ليأتِ إذاً أولئك الذين يأتون دائماً: الرقيب كواتي، ريال برو، الملازم رومان، روميرو، ريوس والعساكر الأولون، المعركة هي الآن. ابآر آنذاك، العطش دائماً هو العطش، ليأتِ ريفارو لا ممتطياً البرق! وفارينيا من نهر الدم السري. ليجلب تالافيرا أبجدية الشوك، رمزه الدائم، لدغته التي لا هوادة فيها. قصيدته أو موته (هي طرق حياة، خرافة حتمية) ليأت الخالدون إلى الموت من جديد، فلتستعد قوارب كويمبرا، سيوف بادو،

ونار هومايتا، ورامونا مارتينيز! ليتولّ الدفاع من جديد، الخُرَق، النسيج، الماتشيتي، اليطقان، البورا، أغنية «أنا الملكة»، الصيف، داء الكَلَب، التيفوئيد، العقرب، السفلس، القبلة، الذكريات، الحكماء، المُغنّون، القيثارة، أغنية الغوارانيا، كورّيا، الكلمة! الذاكرة، الهوة الجماعية، تضيء الظلمات، الأطياف، يحمل المجندون الألوية، الحمالون، هؤلاء المشاة المعدنيون ذوو الجروح الدفينة، سفر الرؤيا الحربي لسيد الظلام، التكرار الشاق للغضب، وضباب القربان المقدّس حيث يقاوم في اللاوعي كثيراً من مناديل الخوف، ودرع الشجاعة، وإرادة الصيرورة وحائط الحياة. يَخُطُّ انتيكيرا شعراً في سجن ليما، أم هو ظلّه الذي يتأمل في الموقد؟ يصحح الكتابة المدوّية للمصير، الذي ندعوه تاريخ أو الثلاثاء المنحوس الواقع يوم الثالث عشر، يخطُّ بالأحمر الفاقع تحت تجلّط الحرية. تأبى عروقه الهامشية هوامش الوقت، مسام الغبار لديه ترفع الصوت ضد القوة الوحيدة، يقوم بتوزيع المنشدين، والاكتفاء الذاتي، والتلغراف، وتعويذات معالجة الجرب. يُخَمِّن أي طرقات وزواريب ستقلّد شهرته بكثرة، صدى وتده، محفار الخانقة، نظارات الصونيت الحبيسة، وبدايات نهايته. يشدّ مانغوري أوتاد قيثارة جون ويليامز، يُزاجل بالمانوية والمازوركا، والمادريغال والأسفار. يضبط المفاتيح المتبادلة، وعيدان الغابات الرطبة والينابيع، والحصة النهرية من أحزانه، يقيس الكآبة اللامتناهية للنحلة، والدقّة الصاخبة للقرود، وعبق الغار المُقنّع. بعدّة الحرب هذه من الشعر والموسيقى،

وهذه القوات المجازية المتراكمة، والقافلة الأثرية للشهداء التافهين المنفيين في البحار، بهذه الأعمال البسيطة أذهب نحوك، وطني الأول الذي يعاني الخطر، رفيقي، أراجع العطش والتعب والنعاس، وفي الليل يُضيئ المتواضعون.

عندئذ يُطفئ الأسقف سيجارته.

6

يُحيط بهم نور تشرين الثاني/ نوفمبر الباهر. يمشون جنباً إلى جنب تثقُل عليهم كتب المدرسة التي يقبضون عليها إلى صدورهم.

- كم من الوقت تظنين سيستغرق إتمام العمل عن هيغل؟ سألت سوليداد.

البياض الكلسي للرصيف يرسل انعكاسات تعمي العيون.

- لن يأخذ منّا أكثر من ساعتين.

أجابت فيرونيكا، متسلحة بعضلات معتادة ركوب الخيل والمراكب الشراعية، سآتي لتناول الطعام معك وننهيه.

تحت ظل شجرة ليمون كانت عصبة من الأطفال يضجّون حول أحدهم المقنع بلباس أي.تي. وآخر يكاد يشتعل في ثياب رائد فضاء.

- يا لهذه الشمس الخرقاء! نفخت فيرونيكا مُتأفّفةً وملّست شعرها الساخن براحة يدها.

أُعجبت سوليداد بلمعان في إصبع يد فيرونيكا اليمنى.

- إنها تميمة لأمي أعطتني إياها لامتحان اليوم، أنت تدرين بأنها نصف مجنونة. يوماً ما سآخذك إلى المنزل لتتعرفي إليها. تستطيعين أيضاً التعرف إلى أخي أليبرتو. الحاصل أن أبي لا يرغب بأن أتعامل مع فتيات فقيرات.

- إنه خاتم رائع، تنهّدت سوليداد.

وصلتا إلى منزل كان يوماً ما أبيض، لكنه الآن محاصر بالطحالب والأعشاب المتسلّقة. عينا كلب مترهلتان قابعتان عند العتبة كما لو كانتا قد تعبتا من قراءة دوستويفسكي، تحرسان الشارع بحنين. قالت سوليداد لفيرونيكا إنها تنتظرها عند الخامسة. فتحت باب الدار الحديدي مُتجاهلة درجات الممر الهشّة.

أكملت فيرونيكا بالخطى نفسها في ذلك الطريق الضيّق المُغطّى بحياء بشجر الأكي دنيا، وهو ينتهي إلى جادة للشاحنات الزراعية والحافلات المغطّاة بالغبار. تتجاهل طائرة صغيرة متّجهة إلى المطار القريب. في البعيد ترى بعض البيوت القديمة بتقاطيع حادة محميّة في حدائق خاصة واسعة. تخطّت فيرونيكا إحداها. من عتبة باب ثقيل من خشب الأرز المحفور يتدلّى غصن ذابل من نبات طفيليّ دابِق. عندما أغلقته خلفها، سُمع أزيز زجاجه المُحجّر المريض. ألقت كتبها على منضدة من البرونز الغامق. وطئت قدماها بصمت سجّادة عجمية تمدّ سنواتها المُتعبة تحت ثُريّا باكية تُغطّيها شِباك العناكب. توقفت عند قدم درج مهيب من الألبستر المجصّص. شابٌ ذو صدر رياضي، حيث تحمرّ خجلاً بعض الشُعيرات، ينزل قافزاً كالجُندب.

- سأُلقي بنفسي لخمس دقائق في مسبح الجيران. تخطّاها صارخاً مُسرعاً.

صعدت فيرونيكا. ترك الفتى باب غرفته مفتوحاً، تحوي على شعارات رياضية وملصقات إباحية. السرير غير مرتّب وأبواب الخزانة مفتوحة على مصراعيها. الأسطوانات مُلقاة على السجادة المُحترقة بأعقاب السجائر. أكملت نحو غرفتها وأوصدت القفل وارتمت على السرير. تلمّست أصابعها جهاز الراديو على المنضدة الصغيرة، واختارت بعض الجاز. فكّت أزرار سترتها وألقت حذاءها وتنورتها. عاريةً تمشي نحو الحمّام وتفتح الدوش. في هذه الأثناء تسمع صرير باب الأرز وصوت والدها في الأسفل مُنادياً أخاها. وضعت على كتفيها معطف حمّام أزرق وأطلّت برأسها من شرفة الدرج الأنيق. سحنة خضراء وشعرٌ أخضر على هذه الشرفة الخضراء.

- رأيته يخرج منذ قليل، صرخت، ولا أدري إلى أين.

زمجر ايفاريستو ساريّا-كيروغا في الأسفل، مُحمَرّاً من الغضب.

عادت فيرونيكا إلى الحمّام ودخلت تحت الدوش وداعبت بظرها بأصابعها. تخطّى بؤبؤا عينيها بحذرٍ المرآة الكبيرة على الحائط بانفتاح مُتعاظم. تلك المرآة التي علّقتها كحارس خفيٍّ خلف الباب.

نزلت بعد ذلك لتناول الغداء. قدّم لها كبير الخدم كرسيّاً من الجلد المنقوش، جلست وأخذت قطعة من سمك السوروبي، الأقل مُلاءمة لخريف كورينتس. أنصتت إلى السيد ايفاريستو يلوم ألبرتو لذهابه للسباحة عند الجيران اليهود.

- ما اسم الممرضة الجديدة؟ سألت فيرونيكا.

- هذا الهراء يُخرجني عن طوري... ماذا سيحلّ بكم عندما يخونني قلبي؟

- ما اسم الممرضة الجديدة؟ أصرّت فيرونيكا وهي تكاد تختنق بسبب الرطوبة الكثيفة في صالة الطعام.

- فيوليتا! قاطعها العجوز، لكنها لا تعلم شيئاً بعد.

- لقد أرسلوها إلي تواً من المحطّة مع عامل المصبغة. لقد عمّدتها أمك المسكينة باسم كارمن سيفييّا، تيمّناً بالأرجوان الإمبراطوري. أتريدين أن تأخذي لها أنت طعامها إلى الطابق العلوي، عزيزتي؟

- نعم أبي.

أتمّ البيرتو أكل الأرز بالحليب، وقام بصمت.

- احذر فإنهم يطلبون أوراق التجنيد في وسط البلد. قال له السيد ايفاريستو. خذ الشرطة العسكرية على محمل الجد. كان ينقصني أن يُرسلوك إلى جزر المالفيناس.

7

ذهبت فيرونيكا لتوقظ والدتها.

- أمي؟

سمع صوتها عند الباب المفتوح قليلاً، في الظل بالكاد يُستطاع تمييز الأشكال المُبهمة. ستارة سميكة حجبت النافذة الوحيدة. تلمست فيرونيكا زاوية أحد الرفوف، كأس، كتب مغلّفة بالجلد، مزهريات. الإشعاع الأخضر لمفتاح الإنارة يومض في إحدى الزوايا. تتجه فيرونيكا نحوه، تصطدم بالكرسي الهزّاز، وتصل إليه أخيراً. فاضت الغرفة بالضوء المنتشر. تنام والدتها على سرير ذي مسند من الجلد.

- إنها أجمل منّي! تمتمت فيرونيكا.

بدت المرأة كأنها تخرج من سبات طويل، تفرك عينيها بيدين ناعستين، تتململ ببطء وتتقلّب بهدوء. سمعت فيرونيكا خروج ريح مكتوم.

- سأصعد إليك بالطعام، كادت تنقضي الظهيرة.

- ولمَ لا؟ الصوت الحاد المتقطّع بدا لطيفاً. ساعدتها فيرونيكا على الجلوس وقعدت إلى جانبها. بدا من خلال غلالة والدتها الشفافة

نهدان عارمان. نظرت إليها والدتها متناومة بعينين كبيرتين زرقاوين. «افتراءات!» قال لها ذات مرة ايفاراستو: «كيف يمكن أن يكون لك دم يهودي مع هاتين العينين الزرقاوين؟» وفيرونيكا كانت قد ذكّرتها بسترايسند وموسى، ويسوع المسيح وكل الآخرين، في أفلام ديميلّي.

– لقد تعاقد أبي مع ممرضة جديدة. لكنها لا تمتلك الخبرة الكافية ...

أحسّت فيرونيكا بيد ساخنة على فخذها. ابتسمت لها المرأة من خلال شعرها المسدل. قبّلتها فيرونيكا على جبينها المالح، كانت أمها تسعل من الربو. بعد ظهر ذلك اليوم لم تصل فيرونيكا متأخرة إلى منزل سوليداد لتشاركها الطعام. لقد اختصرت طريقها متجنبة بعض الشجيرات والأوساخ في الباحة الخلفية حيث هواء الصيف الكثيف يهز أرجوحة مُتلاشية، قديمة وصدئة. كانت فيرونيكا قد استبدلت لباس مدرسة الراهبات القديم بسروال أبيض قصير وسترة جيرسي ضيقة وفاقعة لا تبلغ سُرّتها. في هذا الحر الخانق، راجعتا مدوّناتهما وكُتُبهما، وجمعتا أوراقهما. لقد فحص هيغل الفكر لا كجوهر جامد وغير قابل للتغيير بل كعملية المعرفة في تطورها المستمر ...

باخضرار الأشجار عبر النافذة المفتوحة على الشمس، وهدوء الأمسية المُضيئة الحرّة، والبُعد اللامُتناهي لباحة الطابق الأول. ... في الجزء الأول من علم ظواهر الروح يُحلّل العلاقة بين الوعي والجسم ويصل إلى الخُلاصة بأن هذا الأخير يمكن معرفته لأن جوهره لديه خاصية روحية منطقية ...

- أتُريدين التدخين؟ قالت فيرونيكا-لدي سجائر.

أومأت سوليداد بالإيجاب.

أوصدت فيرونيكا الباب. الرطوبة والدخان أبرزا حلمتي ثدييها كحبات عنب ناضجة. مستلقيتان على الصوفا، أرجلهما ممتدة على الطاولة المندهشة، والدوائر التي نفثتاها بقوة توقفت في هذا الجو الناري. التصورات الحسيّة تُحافظ على الرابط المباشر مع الأجسام التي تعمل على حواسنا...، شعرتا بالحر، أحستا بدفء البشرة السائل، الاحتكاك اللامُبالي ليد محمومة تُقلّب الأوراق وملمس أصابع مُشتعلة بالنار تدسّ قلم رصاص بانحراف بين هاتين الحصاتين المنتصبتين المحجوزتين في النسيج الأحمر.

- لم لا نخلع عنا السترات؟ قالت فيرونيكا. الجو حار بشكل بربري.

بِحيرة بطيئة، نزعت سوليداد ثيابها عن جسمها وألقتها دون هوادة. النهدان الكبيران الهجينان انفجرا أمام أعين فيرونيكا مع تنهّد منعش. إن العقيدة الهيغلية للتفكير الجدلي، وتتابع المفاهيم، تشير بشكل غير مباشر إلى أن محتوى وقوانين تطور المفاهيم الحقيقية، بما يُعاكس عقيدة هيغل نفسه، توجد بشكل مستقل عن المعرفة. عن معرفة حصار أصوات الطيور الحادة العابرة، والعطر الساطع للغرق القريب، وبساطة جمال الغروب على شجر الصفصاف.

- إنه كتاب ممل! - تقول إليزا - مدام لينش وصديقها: القصة

الحقيقية لمغامرة إيرلندية وديكتاتور الباراغواي، الذي دمّر تلك الأمة الأميركية. لا يعي الكاتب بأنه كلما سعى لتشويه سمعتها، كان .... طوطو! ماذا تعني عبارة extols؟

- ليس لدي فكرة.

- معناها: يمجّد، يجلّ ...

- آه، إذاً، يعلّي، أو شيئاً من هذا القبيل.

- هذه هي. كلما حط من قدرها بين آل لينش، كلما جعلها تهرب من إنكلترا كإيرلندية حسنة. كلما صورها أكثر كعاهرة في باريس قبل التعرف إلى لوبز، جعلها أعلى وأكبر.

- لكن يا ابنتي ...، لا تحتدّي! لمَ تريدين وضع كل هذا في كتابك؟ الناس لا يهتمون بالماضي، يريدون فقط أن يقرأوا ما الذي جرى معهما.

- ...

- ما الذي يهمك أن يُدعى آل لينش كما تُدعين أنت؟ هناك العديد من آل لينش. حتى ألتشيه كان يُدعى لينش. كان اسمه أرنيستو غيفارا لينش.

- كما يمكن أن يكون قريبي أيضاً.

- دعي عنك الهزل.

- طبعاً، طوطو، من الجهة الإيرلندية ... المدام لينش كانت قريبتي، والتشيه أيضاً.

- أنتِ اليانكي الأولى التي أعرفها وتهتم بالقرابات.

- .... حتى ولو كان للاعتراض على سوقية لنكولن.

- ذات مرة، امرأة مرهقة من غاليسيا في كازابلانكا، شهرتها غيفارا، كتبت إلى ألتشيه عندما كان وزيراً. أتعلمين بما أجابها؟ «: الحق يُقال بأني لا أعلم من أي منطقة من إسبانيا هم أهلي. بطبيعة الحال فإن أجدادي قد غادروها منذ زمن وأيديهم فارغة، وإن لم أحافظ على يديّ كذلك فبسبب إحراج مركزي...» وختم: «لا أظنني قريبك المباشر، ولكنك إن كنت ترتجفين خجلاً كلما ارتكبت ظلماً في هذا العالم فإننا رفقاء درب، وهذا أهم من القرابة».

- إنني متأكدة أنه قريبي.

- تباً للإيرلنديين.

من أعلى درج الرخام رأت فيرونيكا ذلك الغلام النحيل المنحني الذي يغلي دمه خجلاً من حنين إلى المراتب وجردة حساب لتهريب النقد النادر.

- كيف حالك تشيبي؟ حيّته بأكثر ابتساماتها نفاقاً، مادةً له ذراعها.

- أهلاً! بدا صوته خارجاً من أنفه.

- اجلس! أمرته فيرونيكا. احتلّ تشيبي طرف المقعد الجلدي الآخر كالجبان.

- كم يبدو عليكِ لائقاً الميك-آب، تبدين كأوليفيا نيوتن جون.

- أوليفيا تليق بك أنت!

عندما عادت من منزل سوليداد، دخل الأبله ألبرتو ليستحم، كان يصرخ بالغناء كما لو كان مالك مقاطعة البارانا بأكملها ولا يهمه الوقت.

- هذا مثير للاهتمام! تمتم تشيبي.

- أتصور بأنك تستحم دون خلع ملابسك الداخلية.

- نعم ...... واحمرّ خجلاً.

- على كل حال لا أرى لك عضلات لتغسلها، أين تضع الصابون أولاً؟

- حسناً ... تمتم تشيبي بصوت بنبرة المزمار -إنها أشياء ذات خصوصية -... أحسّ بأن ريقه يخونه وبجفاف يمتلك لسانه فيكاد يتشقّق. أغمض عينيه متوتراً. بدا عليه كأنه يهم بالبكاء. جلست فيرونيكا إلى جانبه على مسند المقعد المطرّز.

- أيعجبك عطر كابوشار، سألته بنكد، مقتربة بصدرها نحو أنفه. رأى تشيبي بأنها لا ترتدي صدرية وأحسّ برائحة الرطوبة الخارقة. راح يتصبب عرقاً، فضحه تنفسه العنيف وحوله شحوب وجهه إلى مثير للسخرية.

- يعجبكَ هذا، أيعجبك؟ زمجرت فيرونيكا بينما أمسكت رقبته بيدها الحجرية ودفنت رأسه «التركي» في صدرها.

«بينما كانت فيرونيكا وألبرتو يهتمان بشؤونهما، كان إيفارستو

يقضي لياليه لاعباً الشطرنج مع عميد بدين من أميركا الوسطى كان يُدعى غوميرسيندو لارّاين»، قالت إليزا.

الحصان كان هنا! لقد تفحصه بدقة، مخرجاً مخرجاً، وبديلاً بديلاً.

- أتحرك أنت، دكتور؟ أصغى العميد، بكل الاحترام إلى العادات العسكرية.

- إني أفكر

لا للتهور، بضع دقائق للتأمل الاستراتيجي، وتُربح الجولة. بدت قطع العاج المصقول كأنها تتأمله بسخرية. قام العميد مُتثاقلاً. كان قميصه من ماركة لاكاردين ذي المربعات الكبيرة يُظهر من الأزرار بطناً حبيساً مكتسياً بالشعر. مشى ببطء نحو مِنضدة الشراب، اختار زجاجة غران مارينيه، ممسكاً بقدح رفيع، انسلّ بخفة في الصالون الفاخر مختلساً النظر إلى عيني خصمه القرمزيتين المتسمرتين على رقعة الشطرنج. كان متأكداً أنه قد أوقع به. كان يستمتع بهذه الرقعة الجبرية حيث ربح معاركه الوحيدة.

لا يقرر ساريّا-كيروغا ما يريد فعله، يبحث قلقاً عن الحركة الدقيقة في هذا التشابك العقلي حيث تطغى الصرخات الزوجية في غرفة نوم مسحورة وحيث يخفي الأطباء النفسيون غثيانهم، منصاعاً لليقين القاتم بأن معايير الكفاءة للماضي قد تلاشت: فيرونيكا تخرج بمفردها، كيف السبيلُ لمعارضتها؟ وألبيرتو...، الذي لم يرث

الشجاعة ولا الكرامة، ولا تعلم التمييز بين عرق ونسب، مُحاط بغلمان مجهولين، دون شك من الطبقة الدونية، بتلك التسريحة التي لا تمت إلى الرجولة بصلة، مقلداً مُعجم عمال التستيف، صافراً بموسيقى الضواحي الفقيرة، مُغلّفاً جدران غرفته بصور بنات الهوى الرخيصات، دون أن يكون قد قضى وطراً مع خادمة المنزل حتى ذات الاثني عشر عاماً، المقيمة في المزرعة لخدمته...، إن استمر على هذا النحو، فسينتهي به الأمر إلى الانحراف! أي استثمار كان إرساله إلى هارفرد الصيف الماضيّ!

- لا يكون ميّتاً من يقاتل. جلس العميد بكل ثقة على كرسيّه مشرقاً بابتسامة مظفرة.

- لا يجب الاحتفال بالنصر قبل وقته. تمتم ساريّا-كيروغا ناقلاً الحصان. قفز العميد من مقعده بعينين يائستين. ديكا الحلبة المنهكان ما زالا يتكلمان باحترام.

«لم يكدس لارّاين جراح الحرب بل المال»، تبسّمت إليزا. تلك الابتسامة التي نصفها حزن، ونصفها غضب، توقظ الرغبة في تقبيلها، «منذ أن ترمّل، كان يدير تحت أسماء مستعارة شبكة كبيرة من الموتيلات، لكنه لم يكن يستمتع بالهدر، أنت تعلم، كان يفضل تذوّق الشراب، كما اعتاد لعب الشطرنج. كان يملك شيئاً مشتركاً مع ساريّا، بعد كل شيء».

8

- لا يجوز الأكل في السينما، يا قليل الأدب! قالت فيرونيكا.
- أنا لا آكل، إني أعلك.
- الأمر ذاته، هذا يضايقني.
- حسناً! ألصق تشيبي علكته تحت مقعده.
- أنت مُقرف.
- ألا يعجبك الفيلم؟
- كلا، إنه ممل.
- أتريدين الخروج؟
- كلا، الجو حار في الخارج، فلنستمتع بالمُكيّف، ما دمنا دفعنا.
- أنا الذي دفعت.
- لهذا فقط أنت نافع.

ابتلع تشيبي ريقه

- أنت شاذ.
- من فضلك فيرونيكا! - يأخذ بإحدى يديها لكنها تسحبها بسرعة البرق.

- أنت تتكلم كثيراً والناس ستتأفّف.

- لا أبالي بالناس.

- افعله من أجلي.

- لا أبالي بك أيضاً.

ينظر تشيبي إلى الشاشة، متعمداً تجاهلها

- تباً لك! وعيناها تقدحان شرراً. أراهن بأنك بكر.

راح يسعل بغصة مُتعمّداً، وعيناه متسمرتان إلى الأمام على الشاشة الشاحبة والمضيئة، عنقه المتشنج فقط كان يبلع باختناق.

- لم لا تُريني مجلّات «أنترفيو» التي تحتفظ بها في غرفتك؟ أتظنّ بأنّي لا أعلم؟ هل بالفعل يظهر فيها كل شيء، وهل هذا صحيح بأنهنّ يقُمن بفعل كل شيء؟

في المُقلة الزجاجية لتشيبي تلألأت الدموع.

- في أي وقت تنظر إليها؟ وتُقفل عليك الباب، أليس كذلك؟ خوفاً من أن تدخل والدتك وأنت ...، أليس كذلك؟

تشيبي يتنهّد.

- أنت تُمارس العادة!

راح الجالسون في المقاعد القريبة يرمقونهما بنظرات تنمّ عن نفاد الصبر أو الحشرية الساخرة.

- أنت شاذ تمارس العادة!

بين غصّة وغصّة، طلب تشيبي الإذن بالذهاب إلى المرحاض.

- اذهب إلى الجحيم!

رأته فيرونيكا يتعثّر، يُخرج منديله في الممر المُظلم المكسو بالسجّاد.

«قال راشييل هامت إن بداية النهاية تكون عندما تعلم بأن لديك الطريقة المثُلى». قالت إليزا، «الواقع أننا في الولايات المتحدة نتكلم الإنكليزية مصادفة، لكنكم أنتم في أميركا اللاتينية تتكلمون الإسبانية كمصير حتمي».

- ألن تدخل يا حبيبي؟ قالت إحداهن بغُنج أمام الباب الخشبي الكبير.

شوّه النور الأحمر الساطع أشكالهن. «لهنّ رائحة فم كريهة»، تمتم ألبيرتو، خلف مقود سيارته في الظلام، «بالتأكيد لديهن رائحة فم كريهة».

- لا تخف يا حبيبي، انزل برهة.

- نُريد التكلم معك.

أصمّ مسامعه نعيق غراب في أيام التكاثر. أبى أفضل أصدقائه مرافقته «لا بد أن نجرّب مرّة ما!»، احتدّ أحدهم قائلاً: «أنا دخلت مرّة!»، كذب أحدهم. «الآن دورك أنت!». «إن التقطت قذارة يقتلني والدي!»، اعترف آخر. «لا بد من التجربة!»، ردّد ألبيرتو بين أسنانه.

نزل، أوصد باب السيارة، عبر الشارع، كانت رجلاه ترتجفان أكثر كلما اقترب من الزيت السميك الذي يُغطي الأفواه البرّاقة، من جمر النظرات التي لا قرار لها، من الصباغ الرديء للشعور، من الرقاب النحيلة والأظافر المعضوضة، من أخاديد الوجوه الحادة. أمسَكَته اثنتان بذراعيه. تملص منهما ودخل. تحت الخيمة قبالة البهو كان عدة أزواج يتلامسون على مقاعد حجرية مُثبّتة بالحائط حيث كانت مُعلّقة تقاويم قديمة مُصفرة. في الداخل، في الظُّلمة، كان رجلان أصلعان يتكئان بكأسيهما على منضدة من الخيزران. كان ضوء القمر المتسلّل من النافذة الخلفية يُمدّد الظلال المُعذّبة لشجر الأكي دنيا على الأرض الحجرية.

- «كم أنت وحيد!»

يسمع أحداً يتكلم خلف ظهره، فتاة قصيرة القامة تُظهر له أسنانها الذهبيّة. يدفعها عنه بقرف. فتاة أخرى كانت قد سحبت رفيقها من إحدى الزوايا وراحا يرقصان على أنغام أسطوانة لباليتوأورتيغا، ولغاست، كما لو كانا وحدهما في الردهة. تخطاهما ألبيرتو ووصل إلى البار وطلب كأساً من البيرة. امتدّت من الظلام يد ملطخة بشحم وقدّمت له قارورة معدنية.

بصق ألبيرتو جانباً؛ إنها ساخنة!، ووضع ورقة عملة من الفئة الكبيرة على الطاولة.

- «أليس هناك غير هؤلاء الفتيات»؟

- أفضلهن منشغلات الآن! فيا سيدي الصغير، عليك الانتظار قليلاً.

جفّف فمه بمنديله. كان يُغالب الرغبة في التقيّؤ بسبب الحموضة. النسمة الخفيفة التي تدخل إلى بهو شجر الأكي دنيا كانت تخفّف الإحساس بالرطوبة. من إحدى الغرف خرج رجل ضخم الجثّة يزرر قميصه. خلفه ظهرت امرأة صغيرة ذات شعر قصير وبيدها وعاء.

- مارسيانا! أحضري لي قليلاً من الماء، حُبّاً بالله!

قامت إحداهن وأخذت الوعاء. أقفل باب الغرفة من جديد. دفع الرجل البدين حسابه في الصندوق. اشتمّ ألبيرتو رائحة عرقه، وملمّع الشعر البخس، وشاربه يرتجف تحت ثقل قطرات العرق، تفوح النتانة من ابتسامته الضاحكة، وتنفسه ما زال مُتقطّعاً. ألقى تحيّة الوداع باللكنة المحلّية التي يجهلها ألبيرتو، مُداعباً مؤخرات الفتيات اللواتي ينصبن الكمين عند الباب، وسمع وهو يصفّر تانغو الشوارع الذي راح يخبو تدريجاً، دون عجلة.

- اسمعي، ألم تعد منشغلة الآن تلك الفتاة؟

- نعم سيدي الصغير، ستخرج من الغرفة حالما ترتدي ملابسها.

عادت مارسيانا بماء نظيف، قرعت الباب بمعصمها. فُتِح الباب.

- شكراً حبيبتي، آتيني ببعض الأغطية النظيفة.

استند ألبيرتو بظهره إلى البار، كما كان قد شاهد في أفلام مارلون براندو.

كان الرجلان الأصلعان يدخنان بصمت إلى جانبه.

بعد بُرهة، خرجت المرأة القصيرة ممسّدة شعرها القصير بأصابع عصبية.

اقترب منها ألبيرتو.

- تعالَ نجلس، قالت. على المقعد أحاطت به بذراعيها وطبعت قبلة على عنقه. «ليس لديها رائحة فم كريهة»، فكّر البيرتو، وأحس بأن أسنانه تصطك قليلاً.

- ما اسمكَ يا قلبي؟

- ألبيرتو، وأنتِ؟

- مالينا.

- من ماريا الينا، أو ماغدالينا؟

- مالينا وحسب!

- كم سنة عمرك؟

راحت تفتح قميصه وتقبله في صدره.

- لا تكن كثير الأسئلة، حبيبي، أتدخل؟

- نعم، كم سنة؟

- سبع عشرة، همست فوق شفتيه، ارتعش ألبرتو.

- مثل شقيقتي!

للمرة الأولى نظرت مباشرة إلى عينيه مبتسمة، دون التوقف عن مداعبة بطنه.

- للحقيقة، مالينا ليس اسمي، إني آتي هنا لتغطية مصاريف المدرسة.

حاول ألبيرتو التكلم ولسانه مشتبك بلسانها.

- حسناً، إن لم تنقلي لي العدوى فقد أستطيع المجيء مرات أكثر.

- أنا آتي أيام الاثنين والأربعاء والجمعة. قالت له.

- هل يبدو عليّ؟ قال تشيبي ويداه مشدودتان على المِقوَد وعيناه متسمرتان على الطريق الإسفلتية الدائخة المجعّدة تحت بريق الأنوار.

- ماذا؟

- أيبدو أني بكيت؟

نظرت فيرونيكا إليه.

- لا، لا يبدو، قُد ببطء أكثر.

- لم تبلغ السرعة المئة.

- ببطء أكثر!

رفع رجله قليلاً عن دعسة السرعة، مالت إبرة عدّاد السرعة إلى الشمال. انحنت فيرونيكا على مقعدها الجلدي الليّن تاركة شعرها يتطاير من النافذة المفتوحة.

- لا تقل لي بأنك تأخذني الآن إلى المنزل!

- وإلى أين تودينَ أن آخذك؟

نظرت فيرونيكا خلسة إلى ذلك الوجه النحيل.

- هيا بنا إلى النهر! قالت فجأةً.
- أنت مجنونة!
- لنذهب إلى النهر لنستحمّ!
- فيرونيكا، أنت معتوهة تماماً. لا أرتدي ملابس السباحة.
- ولا أنا، أيها الأبله. لنذهب إلى النهر، أقول لك.
- وإذا طلبوا منّا الوثائق؟
- إن لم تأخذني سأنزل وأذهب وحدي.
- وكيف تظنّين بأنك ستسبحين؟ عارية؟
- سأستحمّ كما يحلو لي، لنذهب.
- فيرونيكا، لنذهب في وقت آخر ...، كما أني أشعر بالجوع الآن.
- قف!
- ماذا تقولين؟
- قف هنا الآن!
- لا تكوني سخيفة.
- إني أقول لك بأني سأنزل هنا الآن.
- اتركي المقود.
- قف أيها الأحمق.
- فيرونيكا، سوف نصطدم.

- لا يهمني ذلك.

- ضغط تشيبي المكابح، ووقف إلى جانب الطريق. عينا فيرونيكا أكثر سواداً من المُعتاد، كانتا تقدحان شرراً، بدت للفتى أكثر جمالاً.

- للمرة الأخيرة، سأُلبّي رغبتكِ.

- حسناً، انطلق ولنذهب من هنا.

- لكن عليكِ أنتِ أن تعملي لإرضائي.

- لا تقل لي بأنك تُريد اغتصابي!

احمرّ تشيبي خجلاً.

- أريد أن تعطيني قبلة!

- لن أعطيها حتى مقابل المال، أنت فائق البشاعة.

- ... فيرونيكا ... قبلة واحدة!

نظرت إليه فيرونيكا للحظة وأقفلت عينيها؛

- حسناً أسرع أيها الأحمق!

انحنى تشيبي بهدوء ووضع شفتيه المرتجفتين على شفتيها. انتفضت فيرونيكا.

- هيا، نذهب الآن إلى النهر!

بدأت السيارة بالإقلاع واستعادت سرعتها في بضع دقائق صامتة، وصلا إلى حافة مغارة.

- ادخل هنا، إلى اليسار.

انعطفت السيارة عن الطريق إلى درب ترابية مُتعثّرة بالحجارة والشجيرات.

- فيرونيكا، هذا سيئ جداً!

- لا تكن جباناً.

- حقيقةً، قد يُخدش هيكل السيارة.

- إننا نقترب، ألا تحسّ بانتعاش الماء؟ يا للروعة! كان جسدها يتلوّى من المتعة.

توقفا بين بضع أشجار.

- أطفئ الأضواء!

أطاع تشيبي. نزلت هي ومدّت ذراعيها نحو السماء الصافية.

- تعال، لننزل إلى الماء!

- فيرونيكا، أقسم لك بأني لا ألبس سوى ملابسي الداخلية.

- اخلع حذاءك، حذائي امتلأ بالرمال، خذ، ضعهما في السيارة.

رمت بهما داخل السيارة من نافذة الباب، رآها تخلع سترتها، أحسّ بإثارة لا تُقاوم.

- ألن تنزل إلى الماء؟

- ليس بعد.

حنت فيرونيكا كتفيها وركضت نحو الضفّة الصاخبة المُظلمة التي تنساب في الهدوء الواسع، وضعت رجليها في التيار وارتجفت.

- إنها باردة! قالت. تنفست بعمق وغمرت نفسها، تعال أيها الأحمق، أقول لك إنها مُثلجة!

راحت تصدح سعيدة وسط الأمواج اللطيفة ممسكة بملابسها الداخلية التي كانت قد خلعتها. راحت تغطس وتطفو بخفة وهي ترشّ الماء بضجة كزوبعة. خلع تشيبي ملابسه وركض نحو الشاطئ قافزاً كالأبله كلما داس الأشواك والأعشاب البريّة.

- اغمر نفسك، هيا يا رجل!

غطس تشيبي، أحسّ بطاقة جليدية تملأ رئتيه، غمر رأسه وهزّه والماء يتقطّر منه.

- يا للروعة! قال، مُنتشياً بين الضحكات.

- أرأيت! سحبته يد فيرونيكا – تعال، هيا بنا إلى العمق.

- ألن يكون خطيراً؟

- آه! الماء هنا مُثلج أكثر، يا للّذة، أترى؟ كيف يبدو لك! تحرّك!

- فيرونيكا، لا تبلغ قدماي القعر.

- آه، يا للخوف! لا تهتم يا عزيزا\ على قلبي، \أمّك ستجري لك التنفس الاصطناعي فماً لفم، أتعرف؟

احمرّ وجه تشيبي مُبتلعاً المياه الدكناء. مرحا هناك وقتاً طويلاً دون أن يتلامسا، حتى بدأ بالتسلّل أول أشعة الشمس الربيعية الخجولة.

- حسناً، سوف أخرج! قالت فجأة فيرونيكا. رآها تشيبي تخرج من التيّار وتتلوّى على الشاطئ. خطا بضع خطوات في الماء، لكن صوت فيرونيكا أوقفه – انتظر! لا تنظر!

ببطء خلعت لباسها الوحيد. اتّسعت عينا تشيبي في ظلال الفجر.

كانت فيرونيكا تتلوّى، تصرخ وتفرك فخذيها وتشدّ على صدرها. تحت الماء أحسّ تشيبي بانتصاب عنيف. شعر بالحياء.

- ألا تخرج؟

- نعم، حالاً، لقد... سقط سروالي وأنا أبحث عنه.

- آه، كم أنت خجول، وأنا التي أفكّر في الرجوع هكذا عارية لكن جافة!

- انتظريني لحظة.

ما زالت فيرونيكا تتلوّى عارية عارضةً بطنها.

- يا إلهي ... تمتم تشيبي. وأسنانه تصطك وانتصابه آخذ بالازدياد.

- بالتأكيد انتصب قضيبك! صرخت فيرونيكا دون التوقف عن الحراك.

- ماذا؟

- بالتأكيد انتصب قضيبك! صرخت فيرونيكا. احمرّ تشيبي من جديد - لا يهم!

- ماذا؟

- أقول لك بأن هذا لا يهم. تعال، أريد النظر إليه. أتريد أن ألمسه لك؟

بدأ تشيبي بالارتجاف. ما زال الماء يغمره إلى خاصرتيه، تقدّم خطوة نحو الشاطئ.

- لا! صرخت فيرونيكا -هكذا لا، ارمِ لي بسروالك.

- ماذا؟

- ارمِ لي بالسروال، يكون ألطف لو خرجت عارياً!

- فيرونيكا، أنتِ مجنونة! عوت حنجرة تشيبي كما الديك المُنتشي.

- إن رميته لي، سأداعبه لك.

انتفض تشيبي كالورقة.

- انتظريني لحظة! تلعثم. خلع سرواله تحت الماء ورمى به إلى الشاطئ. التقطته فيرونيكا. رآها تمشي بتمايل نحو السيارة حتى اختفت عن ناظريه أعلى الوهدة.

- يا إلهي ...، راح يردّد تشيبي مُرتجفاً. خرج من الماء بعد عناء. فجأة سمع ضجيج المحرّك، راح يقفز وقدماه تخدشهما الأشواك وخصيتاه تتمايلان حتى وصل إلى الأشجار ونَفَسه يكاد ينقطع. يائساً رأى تلك الأضواء البرتقالية الباردة التي تختفي في البعيد عند شفق الفجر.

9

كنّ قد أحرقن الكبريت. رائحة كثيفة ومُنتنة كانت تنبعث من سبع شمعات مُحتضرة في أذرع الشمعدان المشققة. كان الضوء المائل إلى الزُرقة يوحي بأن تجاعيدهنّ مُتعفّنة وهنّ مُتحلّقات حول هذه الطاولة المستديرة كأنهنّ عقبان دكناء مُتلحّفة بمعاطف بالية نازفة ذات شراشيب، وسط العواء الكئيب، كتل من رماد تتحرك كأنها ضفادع لزجة منزلقة. وسط الصفير المُظلم للرطوبة الحبلى كان يختفي ضوء أصفر غامض واللمعان الخاطف لخنجر خائن، وضحكة عاهرة كانت تستدعي أصداء الليل الجليدية.

- لقد نسيت من أكون! اشتكى الصوت الباطني لأحد تلك الأطياف. سأذهب للقاء البانامبي الأكبر، إني عمياء، ولكني أسمع تغريد القُبَّرة، والندى على بشرتي، وتحت قدميّ الحصى الحميم.

انفلت من إحداهن تقيؤ مُتعفّن على شرشف الدانتيل حيث شبكت جميعهن أيديهن، ملوّثة المفكّرة التي كانت تمررها إحداهن إلى الأخرى.

- لِمَ تزورينني في هذه الساعة العزباء، آه؟ أريد غضبك الخجول المُتوقّد...

بعواء واحد سقطت العجوز مغشياً عليها. تجاهلتها الباقيات دون التوقف عن التجشؤ. أضرمن المزيد من الكبريت. ورحن يسعلن. امتدت يد ذات عروق ظاهرة وعليها وشم لرسم المرأة الخارقة، وتشنّجت فوق تلك الرسالة العصبية.

- هؤلاء هم! إنهم هنا! إني أسمع شخيرهم المحموم. إنهم يهزمون الغيوم في طريقهم بلدغات من العواصف. لن ينجو أحدٌ، إنهم الكارثة النهائية! إعادة الأعمار الثانية!

انتشر فوحٌ جديد في السكينة اللزجة، لقد تبرّزت إحداهن. طال صهيل متحمس في السبات، كانت الشمعات تلحس بشهوة منحنياتها المنتفخة. كانت تشهق. لسانها المترنح يدور في الحمم اليابسة في فمها، والعرق يتلألأ في العباب المشتعل ليديها اللتين كانتا تنزلقان عن ثدييها المتورمين عبر الجرف اللين لفخذيها وصولاً إلى الفم الساخن حيث عبقُ فرجها.

- جسدي من حجر اليشب، من الخز ومن العاج! همست بنحيب هائج. - أنا جميلة كفهد الغابات البكر، للياسمين والبَرَد، للأبرص وللقاصر، للمعدن والماء العذب، للخصي وللعنكبوت.

بركانية، وابتسامتها متوحّشة، لم يكن صوتها القوس قزحي كالشظايا يبدو خارجاً من صدرها.

- ابصقن عليّ بوردة من الصبّار.

نظرت أولئك العجائز بعضهن إلى بعض في ذلك الغبش النتن.

قامت بعضهنّ وجلبن الشُوَك، غرزنها ببعض التردّد ومن ثم بضراوة هامسات كالفئران. نزفت مُتبسّمةً، وجسدها المُتَورّم المُتشابك في رقصة عارية بدا كأنه يبرز من بين أشلاء قميصها الحريري الفضّي.

- آو والمسيح ...، إني بحاجة إلى تنّين!

اقتربن بها إلى الشمعات ووضعن يديها في النار. بدأت تفوح رائحة اللحم المحترق.

- أنا سنونو! ... راحت تُغنّي بصوت خافت -لا شيء يسبّب لي الألم، ولا البرد، ولا الحزن. فلنشرب! أين الكأس؟

ناولتها إحدى العجائز إناء التبوّل. ابتلعت ما فيه دون توقّف.

- خذن نصيبكنّ من السعادة، نسائي العزيزات، هاكم الطاقية الفريجية.

بيديها المُتقرّحتين وضعت الإناء النتن على رأسها. كانت تضحك ملء شدقيها بينما يتقطّر منهما السائل الأصفر اللزج. كانت العجائز بأشكالهن الممسوخة يحكّ بعضهن بعضاً كالأرانب السوداء. فجأةً لاذت بالصمت. لم تعد تُسمع سوى الأنفاس النابضة. أطفأت المرأة الشمعات بنفخة جافة ثم وقفت. على ثديها المُبقّع بالدم المُتخثّر كان هواء الفجر يتنفّس.

في الطابق الأسفل كان جرس الباب المطل على الطريق قد بعثر السكينة كما تتناثر شظايا الزجاج. كانت يدها تمسك بمقبض الباب الخشبي الثقيل، وشعرها مبلّل وملابسها مُلتصقة بجسدها، اشتمّت

فيرونيكا في البهو بقايا رائحة الكبريت الآتي من الطابق الأعلى من غرفة نوم والدتها. أحست بالقشعريرة. وفجأةً سُمع في كل المنزل صدىً كصراخ الكوابيس.

- عندي في الفوهة عقرب شكله كالكون!

- ألا تُعطيني مُباراة العودة؟
- في يوم آخر، سيدي العميد، تكاد تُشرق الشمس!
- أترغب في كأس أخرى؟
- كلا، شكراً، لا داعي.
- دكتور ... أعلم بأن الأمور العائلية تُعالج في المنزل، لكن يبدو لي بأن هناك ما يُقلقك ... إن كان بمقدوري المُساعدة فأنت تعلم بأننا صديقان منذ زمن طويل.

أغمض ساريّا-كيروغا عينيه صامتاً. احسّ بنكهة «الغران مارنيه» تغمره بالنعاس. نظر الرجل البدين بدون مرح إلى تينك الكتفين المرهقتين، وذينك السالفين الكثيفين الأبيضين، والشفتين الدقيقتين الشاحبتين والأنف المتحدي والذقن الواثق. بؤبؤاه الرماديان لم يضطربا، لكنهما يسرحان تائهين في إحدى زوايا مكتبة كلاسيكيات اغيلار التي اشتراها بالأمتار.

- إن زوجتي،·وهي ترقد بسلام الآن، قد تركتني! أصرَّ العميد -

وبقيت وحدي. ما باليد حيلة، لكنّي دائماً أتفهّم أصدقائي المتزوجين، عندي...، كيف أعبّر لك؟ رغبة عفوية للمساعدة.

- وأنا أيضاً وحيد! قال ساريّا أخيراً -والدي لا يكلّمني، يهتمّ فقط بنباتاته، أنت تعرفه، أليس كذلك؟

- الكولونيل؟ وكيف لا، إنه شخص موقّر، الدون الهاندرينو،إنه بطل الوطن، كم سنة يبلغ من العمر الآن؟

- أظن بأنه أزلي. لا أدري كيف ينسجم مع فيرونيكا بهذا القدر. حتى أنه دعمها بتلك الأحداث الشائنة في الشوارع ضد الجنرال هيغ في حزيران الماضي. تخيّل! فتيات من عائلات مرموقة يتلقّين العصيّ من حرس النظام. إنهم يدفعونهنّ إلى ذلك.

- الشيوعيون لا يتوقفون!

- وأبي يُشجّعها على ذلك، أتُصدّق ذلك؟ ومع ألبرتو يتفاهم أيضاً بشكل كبير. مع أن الغلام هادئ. وما يزيد الطين بلّة مرض الأب مارسلين. أنت تعرفه؟ إنه يتلقّى اعترافاتي، إنه أحد الكهنة القليلين الذين بقوا.

- لقد قالوا لي بأنه نصف ليبرالي، حسناً، قد تكون افتراءات، بالتأكيد.

- عندما فقدت زوجتي... التحكّم في أعصابها، لنقل ذلك، توسلّتُ إلى الأب مارسلين لإعداد ابني ألبيرتو روحيّاً. لكن ذلك المسكين وقع مريضاً أيضاً. يقولون بأنه في أواخر أيامه. إنه القلب، مثلي أنا.

- لكنك قوي كالثور!

- في الحصيلة، لا أدري ماذا سيحل الآن بهذه المدرسة. بدون مارسلين ... مع أسقف الباراغواي هذا كاسيريس.

- إنه عجوز مثلي، لقد حدّثوني عنه، لديه ميول بلشفيّة، إنه هندي باسكي.

- إنه عجوز، ولا يبدو عليه. إنه من محاربي التشاكو القُدامى، مثل أبي.

- يبدو أنه بلشفي.

- مسكين مارسلين، يجيد اللاتينية واليونانية كلغته الأم، وفوق ذلك، هو قدّيس. قلق جداً ومتوتر جداً. دائماً أقول له، أبتاه، أنت لا تهتم بهذا القلب، وهو الذي لم يكن يوماً صديقاً للأطباء، يقول لي، لا تهتم، عزيزي ايفارستو، أنا بين يدي الملاك جبرائيل. إنه مُخلص جداً للملاك جبرائيل، أتعلم؟

- نعم، إنه من بشّر مريم، اعتدنا الصلاة له في المُجمّع.

10

نظر المونسنيور سيمون كاسيريس بعصبية إلى ساعة يده. ثلاث ساعات من التأخير! أربعة فناجين قهوة فارغة كانت تنتشر على الطاولة الوحيدة في المطعم المُنقّش في مطار مدينة كورينتيس الصغير. كان يعاني الضجر دون أن يكون هنالك ما يقرأه. كان قد ترك الكتاب المقدس ذا الجلد البنفسجي في سيارة المرسيدس. بسرعة 150 كلم/ س بعكس اتّجاه الرياح كان قد ابتدأ نهاره مع العنف الحنون المائل إلى الحُمرة لتلك الشمس المُشعّة. تلك الأشعة الداخلة عبر ستائر المطعم السميكة كانت تُضيىء الصالة الآن. وأخيراً أعلنت مكبّرات الصوت وصول طائرة الخطوط الجوّية الأرجنتينية المُتأخّرة عن موعدها، والقادمة من اسنسيون. ترك المونسنيور بعض أوراق العملة على الطاولة ووقف كبركان ملتحٍ. على الشُرفة المكتظة بالأولاد وقف مُغطّياً وجهه بيديه كالقناع. في الأفق البعيد، من بين الغيوم كان يقترب الضجيج الأجشّ. وبتعجّب يدلّ على الارتياح حيا الناس ظهور الـ 707. لفظ الباب المعدني السميك أول الركاب المُتعبين على الدرج. بعد قليل خرج طوطو أزواغا بمعطفه الأزرق الناعس، المُتجعّد

بطيّاته الفوضوية المُنحرفة، من باب الجمارك جارّاً خلفه حقيبة السفر. ارتمى كاسيريس عليه فزادت تجاعيد معطفه أكثر وأكثر.

- لا بد أن تكون الدكتور روبيرتو أزواغا! قال له. هزّ صاحب المعطف المُتجعّد رأسه بالإيجاب مُرتبكاً. أخذ المارد ذو الشعر الأبيض حقيبة السفر بيده كريشةٍ. مشيا بصمت نحو السيارة السوداء البالغة النظافة.

- الجو حار، أليس كذلك؟ اخلع عنك معطفك!

بدءا بالتحرّك. أشعل أزواغا سيجارة.

- أنت تدرّس أيضاً في المدرسة؟ قال نافثاً الدخان من النافذة المفتوحة.

- كلا! قال كاسيريس دون تكلّف -أنا رئيس الأساقفة.

نظر إليه أزواغا مدهوشاً.

- و... كيف الحال؟ سأله بعد بُرهةٍ.

- كيف حال ماذا؟

- وأبرشيّتك، أهكذا تُسمّونها، أليس كذلك؟

نظر الكاهن مُتأمّلاً!

تعثّر حظّنا بسبب الحرب، وأنا مصمّم على وضع بقايا هذا الحظ في خدمة الوطن، كتب فرانسيسكو سولانو لوبيز.

- ...أظن بأنّ هناك بعض المشاكل. خصوصاً بعد التظاهرات الطُلّابية في حزيران/ يونيو. لقد كان عليّ أن أهتمّ بشؤون المدرسة

للحيلولة دون تدخّل الكنيسة. هذه ليست أبرشية سهلة. كل الأبرشيّات كذلك.

كانت المرسيدس وكأنّها تطير على الطريق. كان أزواغا يتململ متوتّراً في مقعده، رمى السيجارة باتجاه راية الفاتيكان المُرفرفة ورفع نافذة السيّارة إلى مُنتصفها.

- ولِم يأتي رئيس أساقفة كورينتس شخصياً إلى المطار لمُلاقاتي؟

تبسّم كاسيريس.

- لقد طلبت منّي ذلك السيدة غونتر. هي الآن في ميسيونس. إنها تقوم بأبحاث عن فن الباروك في عهد الاستعمار. أظنها تعود بعد غدٍ. ليست هناك طائرة اليوم.

- كنت أظنّ بأنها تدرّس الإنكليزية في مدرسة الراهبات. هذا ما قالته لي في رسالتها الأخيرة.

- نعم قالت إنها يمكنها بهذا تعلم خصوصيات أهل كورينتيس. لكن الدروس انتهت، وهي الآن تستعجل إتمام كتابها.

- إليزا دائماً على عجل.

- يبدو أنها معلّمة مشهورة في الولايات المتحدة، أو أقله معروفة جداً. لا أريد أن أمدحها، فقط لأنها متزوجة من باراغواني.

- كلا، هذا صحيح. مشهورة هي الصفة الصحيحة. إنها الأشهر في اختصاصها.

- يُسعدني سماع ذلك، علّق كاسيريس، مُنعطفاً بالسيارة بسرعة 100 كلم/ س بكل رباطة جأش.

- أنت من الباراغواي إذاً؟ وما هو اختصاصك، مونسنيور؟

- أنا يسوعي.

لو أن البرازيل استطاعت ابتلاع الباراغواي يوماً ما، فإن التوازن السياسي لكل الدول المحيطة سيتعرض لخطر لا مفر منه، كتب فرانسيسكو سولانو لوبيز.

نظر أزواغا إلى الأسقف كما ليسأله لو قال ذلك ساخراً. عاد كاسيريس إلى التبسّم.

- أعذرني. كانت تلك مزحة من السيدة غونتر في ذلك اليوم الذي تعرفت فيه إليها. ذهبتْ لتراني في مكتبي ولتطلب منّي تدريس الإنكليزية في المدرسة. سألتها عن ديانة زوجها، فقالت لي بأنه رجل اقتصاد.

- هراء! غونتر من البروتستانت، أتعرفه؟

- لا.

- من الأفضل لك. على كلّ أنا أشكرك على تحمل المشقّة والمجيئ للقائي.

- لا تشكرني على ذلك، أزواغا. في الحقيقة كان عليَّ المجيء إلى هذه الأنحاء لكي أُعطي مسحة الزيت المُقدّس لأحد كهنة المحلّة الذي توفي هذا الفجر. كان مريضاً جداً وكنا نؤويه هنا في دار للرياضة

الروحيّة. الهواء هنا أنقى، خصوصاً وأن الأطبّاء كانوا قد منعوا عنه أية زيارة. أترى ذلك الجسر هناك إلى الشمال الشرقي؟ هناك المكان.

- ألم يكن فرنسياً من الباسك؟

- نعم، الأب مارسلين، كان يُعلّم في المدرسة.

- لقد أخبرتني إليزا عنه. كان رجلاً مُثقّفاً جداً، قالت لي، لكنه من أكثر الرجعيّين.

يمكن القول بأن التحالف مع الباراغواي هو أحد تقاليد الحرية الأرجنتينية،

كتب خوان باوتيستا البردي.

- في الواقع إن مدرسة الراهبات نخبوية نوعاً ما، وقد صادق الأب مارسلين العائلات المُقتدرة.

- كعائلة ساريّا-كيروغا! قال أزواغا. لم يُفاجأ كاسيريس.

- أرى بأنك على اطّلاع تام! قال بنبرة حياديّة.

- لا. إن إليزا أخبرتني عن السيدة ساريّا-كيروغا، تلك التي تُعاني الهلوسات، صحيح؟

- نعم.

- لقد تعرّفتُ إليها مصادفة، عبر ابنتها فيرونيكا تلميذتها. لقد كانت دهشتها عظيمة عندما علمت بأن العجوز تظنّ نفسها المدام لينش، تلك العاهرة الإيرلندية من القرن الماضي التي كانت عشيقة الدكتاتور الباراغواني سولانو لوبيز.

- كانت إيرلندية، لكنها لم تكن عاهرة! قال كاسيريس بنبرة قاطعة.

- حسناً. على كل حال، إليزا أيضا تُدعى كذلك، إليزا لينش! أتتصور تلك المُصادفة؟ إليزا مدهوشة بذلك.

- أكان والداها يعلمان شيئاً عن تاريخ الباراغواي؟

- لا، يا للأمل! كان العجوز إيرلنديّاً مجنوناً أكثر من معزاة، ووالدتها زنجية جاهلة.

كان كاسيريس يبدو مُركّزاً على المقوَد. دخلا في شارع واسع على جانبيه قصور فاخرة مُسوّرة بالنباتات المتسلقة. كانت حركة السير الكثيفة المُثيرة للغبار والضجيج، تُجبرهم على الوقوف عند إشارات السير، ومُعاناة الدخان الأسود السام المُنبعث من عوادم الحافلات الخُردة.

- رفع كاسيريس زجاج النوافذ وأدار مُكيّف الهواء.

- وأنت مونسنيور؟ من أين أنت؟ سأل أزواغا.

- من أسنسيون، والدي كان من بامبلونا.

- آه، أنت من الباسك، كالأب مارسلين.

- من نافارا.

- كان والداي من هناك أيضاً! قال أزواغا معدلاً جلسته في مقعده بكل سرور. - من سانتنديز، كان لديهما متجر منوعات في شاسكوموس. كنا نتراسل قليلاً. لقد أكملت دراستي كلها في الولايات

المتحدة. عندما كنت أزورهم، كان ذلك يعتبر حدثاً مهماً. كان والدي يُجَمِّد لي بوظة «دون بيبي». أتعلم ماذا كانا يقدمان لي عندما كنت صغيراً؟

- ...

- كان والدي يقلي الحبّار، أتحب المحار؟

- بالصلصة نعم، لكن دون البندورة.

لقد سارت الحرب برايتها اللعينة في كل مكان، والتركيبات الخفية والاقتراحات الدبلوماسية أعطت الأساس لتحالف مميت للمصالح المثيرة للاشمئزاز ... إن تتمة الثورة المُظفّرة في أميركا لم تكن تكمن تحديداً في تدمير باراغواي سولانو لوبيز، العنصر القوي الوحيد المؤهل ليقف في الغد بوجه المطالب الاستعمارية القديمة. كان الجنرال ميتري يَظن أنه أكثر اتصالاً بأوروبا منه بأميركا. كم هو غريب إذن أن يَظن نفسه أكثر اتصالاً بالبرازيل اليوم منه بوطنه؟ كتب خوسيه فيرنانديز.

- أتحب الشيري، مونسنيور؟

- «العم بيبي» جيد، لكنني قد أفضل الكونياك ...، وطعم القهوة، كما يقول بورخس.

- نعم، يعجبني الكونياك أيضاً. «الفوندادور» مثلاً.

- وهل عاد أبواك إلى إسبانيا؟

- نعم وهما عجوزان، بعد موت فرانكو. لكنهما وعيا أنهما في

الحقيقة يشتاقان أكثر إلى شاسكوموس أكثر من إسبانيا، ثم عادا إلى الأرجنتين. في الواقع، بقيت أختي العازبة في مدريد.

- وكيف تعرّفت إلى السيدة غونتر؟

- أواه، منذ قرون! في مؤتمر للأساتذة في جامعة نيويورك. إنها من بتسبرغ، لكنها تقيم في واشنطن، إنها تُدرّس في ماريلاند، بالرغم من تلقّيها عروض الأستاذية الجامعية من كل الجهات، والسبب أن غونتر هو رئيس المصرف، وهي لا تستطيع التحرك من هناك. إنها أفضل صديقاتي. إننا نلتقي في المؤتمرات، من حين إلى آخر، هكذا كان الوضع دائماً.

- قالت لي السيدة غونتر إن لها فتاة.

- بالتبنّي، وهي أيضاً خلاسية.

- عمياء.

- تقريباً عمياء، نعم. لكنهما لا يغاليان في حمايتها، إنها جد طبيعية. عمرها الآن أربعة عشر عاماً ولديها حتى صديقها الحميم.

- أَبَقِيت مع والدها؟

- كلا، ليس لدى غونتر الوقت أبداً، هي مع جدتها في بتسبرغ.

- إن ابنة آل ساريّا-كيروغا، فيرونيكا، قد تآلفت كثيراً مع السيدة غونتر، وقالت لها بأنها ستدرس الطب لتستطيع إجراء الجراحة للفتاة العمياء وإعادة النظر إليها.

- ما هذه التفاهة! قال أزواغا.

أنت تدعونا لمحاربة الباراغواي، أبداً أيها الجنرال! إن هذا الشعب هو صديق لنا. ادعنا لمحاربة الأرجنتينيين والبرازيليين، إننا جاهزون. هؤلاء هم أعداؤنا. ما زلنا نسمع مدافع بايساندو. أنا متأكّد من الشعور الحقيقي لشعب انتري ريوس، كتب ريكاردو لوبز جوردان.

- أنت أيضاً تُدرّس الآداب، أزواغا؟

- نعم، لكن أفعل ذلك بجدّية. في الواقع كانت إليزا ترغب بأن تكون كاتبة. أنا أقول لها: لن تكوني كاتبة سيرة أو راوية، بالنسبة إلى باختين هو الأمر نفسه، أترى؟ وأمور بلوتاركو في الأشياء، حتى تواجهي نفسك وحيدة، بمعنى نفسك الأخرى.

- كم يبدو غريباً بأن تدعو هذه الممارسة الواقعية، القريبة من حقيقة الوحدة الإنسانية، والتي هي الرواية، أن تدعوها خيالاً بالإنكليزية.

- أنتم الكهنة تعلمون الكثير عن الوحدة.

- اللاهوتيون.

- أحياناً اعضّ قطعة من البطاطا المقلية وهي تغلي، في أوكلاهوما، في شارع لافال ... خصوصاً عندما يكون الطقس مُثلجاً.

- وما هو الذي كانت ترغب في كتابته؟

- تاريخ المدام لينش، سأقول لك. لقد كتبت مثلاً قصة ثم رمتها، حيث تكون المدام لينش مع لوبز في لندن، ويقدّمها جورج اليوت إلى ماركس. كان لوبز قد قرأ المخطوطات عام 1844.

- لكنها لم تكن قد نشرت بعد حينها.

- حسناً أبتاه، عليك بالقليل من الخيال، القصة أن ماركس يدعوهم بعد المسرح إلى تناول حساء الدجاج، أظن، حارة جداً ودسمة، قرب المتحف. أُعجب لوبز بالحساء. فجأة يرفع ماركس نظره عبر البخار المتصاعد من صحن الحساء في صقيع كانون الأول/ ديسمبر ويقول لإليزا: «أنت، التي ستُرزقين بأولادٍ باراغوانيين، يجب عليك أن تعلمي ذلك. في المستقبل، كل أميركا اللاتينية ستكون اشتراكية.» لوبز، الذي كان يؤمن ببعض أفكار سان سيمون حسب ليزا، يقطّب حاجبيه. حينها طمأنه ماركس مربّتاً كتفه، هكذا، أرأيت؟ وقال له: «لا تهتم، بعد كل هذا، أيكون هناك أسوأ من ستروسنر»؟

إن السعي خلف قروض من الخارج يتعارض مع تقاليد نظام المالية في الباراغواي، كتب فرانسيسكو سولانو لوبز.

- أنا لا أفهم هذه القصة! قال كاسيريس.

- استمع إلى هذه؛ في يوم آخر، تذهب المدام لينش والمجنون الباراغواني إلى دار الأوبرا، لكن لا يُفهم إن كانت دار باريس أو كولون ويقول لها لوبز: «حتى ولو لم تصدّقي، يوجد الكثير من أهل بوينس أيرس من النخبة وسيكون دائماً هناك كما يوجد العديد من الفرنسيين الذين لا يستحقّون هذا اللقب، أنا أُسمّي باريس ببوينس أيرس تماماً بالحق نفسه الذي يسمّون به بوينس أيرس بباريس». وكانوا يدخلون المدينة والمكتبات والمسارح، وفي الشوارع حيث تفوح رائحة اللحم

الشهية وأفضل النبيذ الجنوبي. ويذهبون بأبهى حلة إلى دار الأوبرا، وعندما تبدأ مارغاريتا غوتيه بالاحتضار، ينحني لوبز نحوها ويقول لها: «إليزا، في الواقع إني لا أفقه شيئاً من الموسيقى لكني أتمتع بالجلوس هنا وكل أولاد العاهرات ينظرون إلى جمالك ويحسدونني.»

– هذا رائع! قال كاسيريس متوجّهاً بالمرسيدس نحو مرأب القصر الأسقفي في منتهى الرومنسية.

– هناك العديد من أمثال هذه القصة. كانت المدام لينش تشتاق في باريس إلى «التيريري» بعد الحرب، حتى لو أن شاي الباراغواي البارد هذا كان قد ابتُكر بعدها بزمن طويل في حرب التشاكو. كما كانت تتساءل ما نفع الثقافة وهي تذكر بأن ستيرن وجويس كانا أيضاً إيرلنديين. لوبز، حين كان صغيراً، كان يتحدّث عن الفدرالية مع الوطني الأوروغوايي أرتيغاس المنفي إلى الباراغواي، بينما كان يراه يُداعب مؤخرة الهندية الموكلة بصب المتّي له.

– اعذرني! قال كاسيريس وهو يُطفئ محرّك السيارة. كنت أودّ القول بأننا سنتوقف هنا، وبإمكانك أن تكون ضيفي هذه الليلة. دع حقيبتك في السيارة، سيأتي أحدهم ليجلبها.

– آه، ألف شكر لك! قال أزواغا ألذي بدا تائهاً أو حائراً. نزلا من السيارة ومشيا نحو مدخل القصر تحت الشمس الحارقة.

– هذه القصص تبدو من بنات أفكار «توي»! قال كاسيريس مُستعيداً الحوار بأدب، لكنها تُعجبني كثيراً. إنها تكشف عن روح نقية.

- بنات أفكار من؟

- توي، الرواية الصينية لبريخت عن مدرسة فرانكفورت والمثقفين الذين يمارسون الدعارة بحثاً عن المال لدى المؤسسات الأميركية. يموت عجوز غني. متألماً من عذابات العالم، يترك في وصيته الكثير من المال لتأسيس معهد للأبحاث عن سبب البؤس، والذي هو بطبيعة الحال، الأمر نفسه.

لن يطول بنا الأمر لمعرفة ما تطلبه الولايات المتحدة من الباراغواي. أستطيع أن أضمن لكم الاستعداد الأمثل لتسوية ودية ومشرّفة. كما أستطيع القول بأني أشعر بأن ذلك المارد يريد معاملتنا من عليائه، لأنه وبحكم كون البلد مخترقاً بعدالة قضيته، ستصعب معه أية تسوية. إن الأميركيين، الأوفياء لنظامهم القديم، هم دائماً يضعون المواقع في المقدّمة لإظهار قوتهم قبل المنطق والعدالة. كتب فرانسيسكو سولانو لوبز.

- نعم، أذكر ذلك، لكن بريخت لم يُكمل قصته قط.

- إن الأميركيين هم أقل الشعوب فداءً، وهم الشعب الذي يظن نفسه في الجنة. آه، صباح الخير أيتها الأم تورّوكس، هذا هو الدكتور روبرتو أزواغا، وقد وصل تواً من أوكلاهوما.

مدّت العجوز يدها لتحية أزواغا وأخبرته بأن غرفته أصبحت جاهزة، وأن المناشف موجودة في الخزانة. وأعلمت بعدها رئيس الأساقفة بأن دفن الأب مارسلين سيتم الساعة الرابعة بعد الظهر.

- ودفني سيتم الشهر القادم! تمتم أزواغا بين أسنانه، لكن لم يعره أي منهما انتباهاً.

نظر كاسيريس إلى ذلك المعطف الأزرق الحزين يبتعد، جارّاً أذياله خلف الراهبة العجوز القصيرة، ورآهما يغرقان بين فكّي المصعد الأصفرين. تذكّر فجأة بأنه قد نسي الكتاب المقدس في السيارة. مشى بتعب ظاهر إلى سيارة المرسيدس مُتذكّراً القول الذي همس به مارسلين في أذنه قبل أن يشهق شهقة الموت، حينما كان يمسحه بالزيت: لن تدع الساحرة تعيش! إنها الجملة نفسها التي كان قد قرأها هذا الفجر. غارقاً في أفكاره، فتح دون تركيز باب السيارة. أخذ الكتاب ذا الجلد البنفسجي، وراح يفتّش كالمُرَوبص عن جملة السفر تلك. أحسّ فجأةً كما بصعقة كهربائية، مرعوباً رأى بأن الصفحة قد انتُزعت من الكتاب كما بأنياب فهد وقد تركت أثارها المُخضرّة من الدم والغضب.

دخلت السيدة إليزا اليسيا لينش إلى المكتبة. اقتربت من أحد المكاتب حيث ابتسمت لها مهمومة الجفون المائلة لأحد عمّال المكتبة. طلبت منه تسجيلين. جلست قبالة إحدى النوافذ الضخمة التي كانت تُعرِّي الصباح الخريفي لباريس. سوَّت أولاً أحد التسجيلات المحكية بالفرنسية. كان أحدهم يصف فيها أطلالاً من حجارة بيضاء على شاطئ البحر الأبيض المتوسط الباهر. فكرت إليزا في الجزائر. نعم، هناك الجمال وهناك الأذلّاء. بدا يقول ذاك الصوت، مهما كانت عيوبي كرجل وكاتب، لم أود قط أن أكون خائناً لإحداهن"

ولا للأخريات. عندما صمت الجهاز، أبدلت السيدة الأسطوانة. لم تود الابتداء بالربيع، كما هي عادتها. بدا لها الخريف أكثر توازياً وأقل رسمية.

مطرودة من بلد الفلاحين الذي أدمته الغطرسة الغربية بدفع أبولوني، كانت تستمتع الآن برقصة ديونيسيّة كان يؤُديها إيطالي أسطوري كالحب، بعيداً عن قرن الأضواء الأدكن، لبعض القرويين الذين لا يقُهرون، كالثمالة أو الحلم، الذين ربما كانوا ينامون إلى الأبد في الباراغواي وفي إيرلندا. في المكتبة الموحشة، غرقت عيناها الصافيتان بالأزرق الشفاف لذلك الصباح. في الساحة المقابلة رأت الصاري المُنتصب بين أغصان الأشجار الحزينة. أحسّت بارتعاش في قلبها عند رؤية ذلك التموّج الخفيف الذي كان يرأس الفصول الأربعة بجلالة الجمهورية. ثلاثية الألوان تلك كانت خاصتها، ليس هذا الأحمر والأبيض والأزرق، بل مثلها لكن مختلفة، موتى بأيدي فرانسيسكو. كانت تبحث بعصبية عن منديلها في حقيبتها البالية، مختلسة النظر إلى عامل المكتبة الآسيوي بأهداب مشتعلة بفخر عنيد، يراوح بين الأزرق السماوي والضارب إلى الحمرة. فهمت السيدة بأنها أحسّت الراية خاصتها لأنها أرادتها عالمية وسريعة الزوال. كانت تتساءل ما هو الأمل إن لم يكن هو ذلك الصمت العنيد، تلك النعمة تحت الضغط، والبطولة في النجاة ليس من سوء الحظ أو من القدر، إنما من التعذيب ومن المدرّعات.

لا بد أن يجد أحدهم بين الناس أشياء تليق بإعجابنا أكثر من الاحتقار، كصيّاد عجوز يُصارع وحيداً في عرض البحر ضد العزلة وضد اسماك القرش. كانت روحها تمتلئ بهذا اليقين بينما كان هواء الشتاء يدخل مرتجفاً شاهراً أنيابه. في نهاية المطاف، كان ذلك النفي قد أعاد إليها وطناً وَرايةً، فأحست باستعادة قواها وقد هزّها ذلك الانتظار بدون تفاؤل ولا أنبياء، ذلك الحلم بدون جوائز الميلاد، أو التراتيل تحت الثلوج ولا زهور الكوكو، لذلك البرّ حيث سيرسو أبناؤها الباراغوايون للحظة أو لمدى الحياة، وتحت ترابه حيث ستنظر يوماً ما إلى النجوم.

لقد فهمت بأن الأمل، أبعد من الحب، من الله ومن الموت، كانت ذلك المقعد الصغير في المكتبة، وهذه النغمة، ودموع السماء تلك، والدماء التي تخدش الصباح المُعادي بتجدِ ناري. أغلقت عينيها، وعضّت على أسنانها وتمتمت: سننتصر. كانت تهمّ بالوقوف والتسجيلات تحت ذراعها، عندما لاحظت في البعيد العينين المصدومتين لذلك الفتى الفِيتنامي الذي لا يتكلّم الإسبانية. عندئذ ابتسمت له السيدة بوجه يشع بالشجاعة، وقالت له، بلغته: «لمَ تنظر إليّ هكذا؟ أسَمِعت الصدى»؟

الجزء الثاني

1

كانوا في قاعة فلوبيت الدراسية عندما دخلت المديرة، وهي راهبة منحنية الظهر ضئيلة القامة معمّرة، وخلفها كاسيريس وأزواغا وتلميذ جديد بملابس برجوازية، وبواب المدرسة على كتفيه مقعد دراسي ضخم. راح الغافون يستيقظون وهبّ الجميع واقفين كما لو فوجئوا وهم يعملون، وراحوا يُراقبون بحشريةٍ الوافد الجديد. كان أزواغا يُشعل سيجارة، واقفاً بين الأسقف والراهبة دون التفوّه بكلمة. المديرة، بإشارة استبدادية، جعلتهم يجلسون، وقالت بعدها مُتوجّهة إلى الصف بصوت حادّ:

- إن... موت الأب مارسلين قد سبب الحداد لمدرستنا. إن مكانته كأستاذ وكاهن سيكون من الصعب ملؤها. خصوصاً بالنسبة إليكنّ أيتها الفتيات، فإنكنّ ستُعانين بعمق غياب المُدرّس الذي كرّس نفسه للمدرسة.

قابعة في إحدى زوايا القاعة الدراسية، أخفت فيرونيكا ابتسامتها الساخرة بالقرب من النافذة الكبيرة المفتوحة على اخضرار الملعب الرياضي. جامدة مكانها، كانت بالكاد تُرى. كان شعرها يتدلّى على

جبينها بقصة مستوية كجوقة القرية، بمظهر مُتغطرس مقصود. كانت السترة الصوفية الزرقاء بأزرارها الذهبية بالكاد تلفّها، تبدو ضيّقة بسبب عرض كتفيها وحجم صدرها الأمازوني، وبدت يداها الظاهرتان من كمي السترة سمراوين مصبوغتين بلون الصيف كفارس لَوَّحَته أشعة الشمس. ومن سروالها الرمادي المربوط بقوة إلى الأحزمة، ظهرت ساقاها الغارقتان في جوربين أزرقين، وانتعلت حذاءً سميكاً ذا كعب مرتفع ومظهر سيّئ. في قبضة يدها المُغلقة القويّة أخفت كطابة من الورق شعراً كتبته صديقتها سوليداد على دفترها وأعطتها إيّاه من تحت الطاولة:

لمَ تتلون الساعات بلون الخريف؟

من وزّع أوراق هذا اليوم العصيب الذي تطول مرارته؟

لا أدري كم من الكلمات والقبلات والعذابات تنتظر على شفتي.

لكنّي بها أغنى.

ها هو صوتي أرفعه بوجه الطاغية، من أجل الأعناب والبراءة والحياة.

هذه الكلمة المُعتادة، استخدموها وافهموا معناها.

- أتفهّم لهفتكن! أكملت المديرة -: لقد أنذرني المونسنيور بأنكنّ تُمتحنّ اليوم بمادة الفلسفة، بالموضوع الذي أقرّه الأب مارسلين، ... أظنّكن تتلهّفن لتسلّم الموضوع .... لقد أردت على

الرغم من هذا، أن أنتهز هذه الفرصة الأخيرة وأنتنّ مجتمعات في نهاية العام الدراسي، لأُقدّم لكنّ صديقاً عزيزاً لمعلمتكنّ للغة الإنكليزية، الدكتورة إليزا لينش دو غونتر. هذا السيّد الذي تَرَين هنا، هو الدكتور روبرتو أزواغا، وصل تواً لزيارتها من أوكلاهوما. أنتظر منكنّ ألا تُظهرن الوجه السيّئ كما فعلتنّ في شهر حزيران/ يونيو هارباتٍ من الشرطة!

سُمعت في الصف بعض الضحكات المخنوقة! ردّت عليها المديرة بنظرة حازمة شملت المجموعة كاملة!

- سيجاملنا الدكتور أزواغا بمساعدة المونسنيور كاسيريس بتصحيح الامتحان. ربما تستطعن بعدها إقناعه بمساعدتكنّ على أعداد العمل المسرحي لنهاية العام. تفضّلن بالجلوس للعمل!

فتحت فمها لإكمال خطبتها، لكن جوقة التلميذات صدحن بصوت واحد، مُقلّدات صرخات صيادي الخنازير في شبه الجزيرة: كل واحدة لنفسها والله للجميع!

تملّك الراهبة الخجل وسط تلك الضحكات، خفضت عينيها وألقت تحيّة مُتواضعة على الرجلين اللذين كانا يبدوان كبرجين أسودين يحرسانها بثوبها الأبيض الناصع، وخرجت. انتظر أزواغا بصبر حتى خمد ضجيج التصفيق وأسند مؤخرته بتأن إلى البلاط الثماني الأضلع.

- حسناً ...! رفع عينيه الحزينتين - كما قالت الأم...

- تورّوكس! قال كاسيريس.

- كما قالت الأم تورّوكس، أنا مارّ من هنا، لِنقُل مصادفة...، ليس لديّ بالفعل خبرة كبيرة، كما على الأرجح ينقصني التدريب التربوي للتعليم المتوسط، الذي دون شك، هو أصعب بكثير من التعليم الجامعي...! سعل قليلاً. - إنه التبغ! حسناً على كل حال، لا أودّ إلقاء خطاب الآن، أنا والمونسنيور كاسيريس نظنّ بأن الامتحان بمتناولكن ... لقد أمضينا الليلة بإعداد هذه الأسئلة.

ضجّت الفتيات بصمت يخنقه الخوف، ردّ أزواغا بابتسامة تدلّ على الضجر.

- رجاءً، لا تخفن .... برأيي هو سهل جداً، دون تعقيدات. أي سؤال؟

ساد الصمت.

- حسناً، في كل الأحوال، عندما تحصلن على الأوراق، أنظرن إن كان لديكنّ أي شك. سنُبدّده بكل سرور إن لزم الأمر.

سحب كاسيريس من كيس من أكياس المتاجر هرماً ضخماً من الأوراق المنسوخة. وبدأ بتوزيعها طاولة بعد طاولة.

- ضعن أولاً الاسم... كان يُتمتم لكل تلميذة.

- لا تخذلنا يا أبتاه، تمتمت بعضهنّ، ناظرات بعيون صغيرة كالخلد الصغير إلى العجوز المُلتحي والمتوتّر. غير مُبالٍ بهنّ أشعل أزواغا سيجارة أخرى. نظر من النافذة. ملاعب للتنس وألعاب القوى. فتيات «الأخوات السبع» يقفزن ومضاربهنّ بأيديهنّ ومؤخراتهنّ

تتكشف للهواء. كانت الظهيرة حارة ولكنها جافة، دون غيوم والسماء صافية. كان أزواغا يتنشّق الدخان بمتعة كبيرة. كان يشعر في قرارة نفسه بالقلق إزاء الكتلة المضطربة من القاصرات غير المطمئنات. اقترب كاسيريس منه.

- لقد تمّ التوزيع.

- لم لا نسألهنّ إن كنّ يُردن أي إيضاح؟

- مُوافق! هيأ الأسقف حنجرته بقحّة يسوعية، كتلك التي بدأت بها الراهبة كلامها. رفعت التلميذات أنظارهن بصمت. - يقترح الأستاذ أن تتقدّمن بأسئلتكن الآن.

عدّة سواعد ارتفعت. تنقل المارد دون تأثّر كالفراشة بين المقاعد. نظر أزواغا بملل إلى سترة المونسنيور بهندامها الذي لا تشوبه شائبة وسرواله الذي لا ينتهي طوله وإلى شعار «كاردين» الرمادي على ربطة عنقه السوداء، وهو يتنقّل بين الجدائل الذهبية. كانت الأصوات تصله مُتهالكة كإشاعة سحيقة رتيبة. راح يتفرس دون حماسة في وجوه أولئك الفتيات، حركاتهن المسرحية، أجسامهن غير المُتجانسة، ووجوههن الساخطة، والمجهود المرئي للسير قدماً بمفردهنّ، أو بمساعدة خفية لشريكة متواطئة. كان كاسيريس يكابد الأسئلة، وبعضها لا دهاء فيها، وعلى الرغم من ذلك كان يجيب عنها باجتهاد خطباء المنابر. قرّر أزواغا مساعدته. شقراء جميلة ذات عينين سوداوين كبيرة كانت قد رفعت يدها.

- دعيني أرى آنستي! قال أزواغا.

- هذا ...

- تكلّمي من فضلك، أستطيع إجابتك أنا أيضاً، هكذا نُخفّف قليلاً عن المونسنيور.

بدا الانزعاج قليلاً على فيرونيكا بعد وقوفها.

- هل نسيتِ السؤال؟ قال أزواغا بصوت ساخر. رفعت فيرونيكا بتحدٍ ذقنها على طريقة آل ساريّا-كيروغا، ذلك الذقن الذي طوى البحار على متن سفن بدرو دي مندوزا. وردّت بنبرة الصوت نفسها التي كانت لأسلافها منذ أربعة قرون.

- لا ...، كنت أودّ أن أعلم موعد تسليم الأعمال التطبيقية.

- ماذا تقولين؟

- \الأور\ق! أنا والفتيات أعددنا ورقة عمل كان الأب مارسلين قد أوكلنا بها.

- آه، حسناً. وما كان موضوع ذلك العمل؟

- عن هيغل، ردّوا جميعاً كجوقة.

- آه، هذا مُثير للاهتمام! قال أزواغا -تستطعن تقديمه مُرفقاً بالامتحان.

- شكراً لك أستاذ! قالت فيرونيكا، ثم جلست. تابع أزواغا النظر إليها بحشرية. راح يختلس النظر إلى تينك العينين الهائمتين بورقة الامتحان، وتلك الأصابع السريعة التي تخطّ الأجوبة. أخيراً اقترب منه رئيس كنيسة كورينتس.

- ألا تُريد الجلوس؟ قال العملاق. قبل أزواغا بوداعة. صعدا إلى المنصّة الخشبية الثقيلة التي راحت تئنّ تحت وزنه. خلف المكتب المصقول من عهد الكونفدرالية كان هناك كرسي مُريح من النايلون. جلس كاسيريس على الطاولة وقدّم الكرسي إلى أزواغا، مُشيراً إليه بزمرّدته الضخمة. كانت الفتيات يكتبن بحميّة، أو تسترق إحداهن النظر والقلم المسكين بين شفتيها الممتلئتين. كانت تُسمع ثرثرات مخنوقة في زاوية ما.

- اعملن بمفردكنّ أيتها الفتيات! قال كاسيريس بنبرة خطابية. بجانبه كان أزواغا يتكئ بمرفقه على ذاك الكرسي الضخم، وهو يتصبّب عرقاً بسبب الحر الخانق الذي طغى على الغرفة. ألقى بسترته على ظهر الكرسي وفكّ ربطة عنقه. رفعت إحدى الفتيات يدها. أشار إليها أزواغا بالاقتراب. تقدّمت منه في الممر بين الطاولات.

هي لديها بعض المشاكل. في سن الرابعة عشرة تكون المدرسة ممراً طويلاً، أدراجاً، أشجار سرو، أشجار جوز الهند، مخبرين، أشجار نخيل، أشجار صنوبر، عتبات مُشمسة، حناناً قديماً مثل زهرة نائمة منسيةً بين صفحات كتاب مُصفرّة، سرّاً حزيناً ما. هي لديها مشاكلها. لكن هواء الشتاء يصفع وجهها ويسلبها منديلها بأيدي إله الحقول المُتخفّي في زرقة الصباح، وبأصابع إله الغابات الذي سخر من نظرات الراهبات الحارسة. هي لديها مشاكلها. إن الحياة قاسية بعض الشيء

في سن الرابعة عشرة. لذلك تنظر إلى البعيد عبر النافذة، عيناها تخلتا عن درس التاريخ، والإسكندر الآن تجسّد في هذه الغيمة المسافرة. هي لديها مشاكلها. بعد أربعة عشر شتاءً، لم تتغيّر السماء بعد.

- أستاذ ...! تمتمت التلميذة عند وصولها إلى المنصّة، وعلى وجهها ابتسامة الخاطئات. - يوجد هنا سؤال لم أفهمه...! وأشارت بالورقة إلى أزواغا. كان السؤال: لقد ساهم عمل شيشرون «الأورتنسيوس» بالولادة الفلسفية لمفكّر مرموق. ما كان اسمه؟ أ) هوم. ب) القديس أغوسطين. ج) القديس انسيلمو. د) القديس توما الأكويني.

تبسّم أزواغا.

فعل حسناً بأن نظر إليها كما لو كانت غريبة، كما لو أن تلك الشُجيرة تلاشت في البعيد، بين ساقين طويلتين أخريين. كانت قد ألقت على ظهرها ضفيرتها الحنطية، وأعجب بهذين النهدين المرتفعين المُذهلين. عارية في المرآة، تفحّصتها أيضاً تلك الفتاة الزهرية، تتبادلان نظرات خجولة. لقد أوصدت باب الغرفة بالمفتاح. سيظنّون بأنها تُراجع الدفاتر والأطلس وكتب المدرسة. سيتخيلونها مُنقادةً، مُنحنية على الطاولة وأهدابها تحترق من تلك القراءة المُحتشمة. لا يعلمون بأنها هناك عاهرة كالليل الذي يدخل من النافذة، والقمر في تلك المرآة المُتآمرة كان مصباح الزاوية. والنجمات هنّ جموع من الزبائن يؤلّفون

صفاً ينتظرون دورهم تحت الرذاذ ويستمتعون بها، في النهاية، مقابل أجرة شهر. هكذا هي الحياة، هذا واضح. لكن غداً هو يوم الاثنين. وأيام الاثنين بشعة، في عمر الرابعة عشرة.

- لماذا لا تسألين المونسنيور؟ قال أزواغا - أنا لست مطّلعاً بشكل كبير ... على الفلسفة المسيحية.

- القديس أغوسطين! أجاب بجفاء المونسنيور كاسيريس وبنبرة حادة.

- شكراً مونسنيور! تراجعت مظفّرة ناظرة بإعجاب إلى أزواغا

- شكراً أستاذ.

عادت إلى مقعدها وهي تُحرّك وركيها كالدرّاق الناضج. من هناك تبسّمت له من جديد، مرطّبة شفتها السفلى بلسانها ببطء، ومن ثم شفتها العليا. بدت محبطة من عبوس أزواغا الحزين.

- ما اسم هذه؟ سأل أزواغا.

أشار إليه كاسيريس بإصبعه إلى اسمها الكامل في ملف مارسلين البالي.

- سوليداد مونتويا سانابريا غونتر.

لقد قضت الليل ساهرة، كانت تنام على الكتب المفتوحة. عندما نظفت أسنانها هذا الصباح أحزنت عيناها الحمراوان المتورمتان المرآة. سوّت شعرها قليلاً وتناولت فطورها دون رغبة. بينما كانت

تنتظر الحافلة وهي تكاد تقع من النُعاس، حاولت تذكّر النظريات. لكن لا شيء. لهذا، وعلى الرغم من ساعات السهر كانت يدها الخفيةّ تتقدم واثقة داخل الطاولة. امتدّت أصابعها، وهي الأدرى بشكل كتبها، فاتحة الدفتر حيث يجب. لكن عينيها تهربان من النافذة بكل هدوء، كما لو كانت تتأمّل في الفرضيّات ومتوازيات الأضلاع. ينظر الأستاذ إليها دون أن تحرّك لديه أي ريبة. إنها خبيرة بهذه التقنية، والدفتر بدوره يُزيل غشاوة الذاكرة وتخطّ الامتحان. لكن الأمر ليس بهذه السهولة كما يبدو. النسخ هو فن مُكتسب خلال مهنة الدراسة الشاقة، ويُعرّض صاحبه لعلامة الصفر وللسخرية. وعلى الرغم من ذلك، خلال الليل، وهي تقرأ وتقرأ كانت قد أقسمت بأنها ستتذكر في الصباح تلك النظريات.

– سوليداد مونتويا؟ كرّر أزواغا مقطباً حاجبيه. كتلك التي في أشعار لوركا؟

– نعم، لكن مونتويا هو اسمها الثاني وليس شهرتها. كان أبوها المُتوفى حلّاقاً رومنسياً. إنها ابنة أخت زوج إليزا. لقد نظّمت الشغب الطُلابي في حزيران/ يونيو عندما أتى هيغ. هي تنظم الأشعار وتقرأ لتروتسكي.

ذلك يكون واشياً. ليس لديه عمل سوى الوقوف هناك كسعلة الكلاب، مسجلاً أوقات مجيء بائع الحليب، وعندما يزورنا الجيران أو إذا نظرنا إلى القمر. وضعه أحدهم في تلك الزاوية وعلّمه قراءة

الصحيفة بالمقلوب لتمويه أُميّته الخائنة! أنا أُشير إليه الآن بأصابع من غضب كيلا تقولوا له كم الساعة و لا تُسلّموا عليه إذا ما مررتم بتلك الزاوية (إن من لديه نفساً حزينة وعينين من دخان لهو رجل تعيس. لكن هناك الكثيرون أمثاله، وجميعهم جعلوا العالم لا يُسكن. اللعنة على عِرقه من الفئران المُصابة بالسفلس وأقسم بأني لن أعيره أبداً قيثارة).

- لتروتسكي؟ قال أزواغا ساخراً. - هذا غريب.

- نعم، لقد أحضرت لي منذ أيّام شعراً كتبته لتخليد موت المارشال لوبز في سرّو كورا. قالت لي بأنها مرثاة.

- على طريقة فيكتور هيغو أظن. أو الياري، أو اندرادي؟

- لا، ثلاثة أسطر فقط.

لقد تغنّى بك أنت الشعراء.

وأزيد أنا هذا البيت:

أنت الآن نحن.

- ممم ... ليس سيّئاً، لو أنها لم تستعمل «أنت» لكان ذلك أفضل.

- عمرها حوالى الثمانية عشر عاماً. يبدو لي أنها أعادت صفّاً ما في الابتدائية، بسبب عدم البلوغ العاطفي. إنها فتاة غريبة. إنها تدعو كلبها راسكولنيكوف.

بعد ذلك بعدة شهور سيضع المونسنيور سيمون كاسيريس الكتاب البنفسجي تحت وسادته. «لا تدع المُشعوذة تعيش». ذاك

الكتاب المقدس كان مُلكاً لها، فهي نفسها كانت قد قرأت له فيه عن قيامة اليعازر. في البداية، عند دخول سوليداد السجن، ظن كاسيريس بأنها ستسبب له الإحراج في الدين وستبدأ بالكلام معه عن الإنجيل وستُتعبه بكُتيّبها الذي مزقه النمر. ولكنها ولعظيم دهشته، لم تتكلم عن ذلك ولا لمرة واحدة، ولم تقترح عليه حتى قراءة الإنجيل. إنها كانت مُتحمّسة، حتى لو أنهم عادوا لتعذيبها كل ليلة. لكنها كانت محظوظة نوعاً ما، حتى أن سعادتها كانت تقلقه. لم يعلم رئيس الأساقفة حتى بأن الحياة الجديدة لا تُعطى مجّاناً، بل يجب شراؤها غالية ودفع ثمنها مقابل عمل بطولي مستقبلاً. لكن الآن تبدأ قصة جديدة، تجدّد تدريجي لرجل يدعى غونتر، قصة عبوره التقدّمي من عالم إلى آخر، قصة معرفته لحقيقة جديدة مجهولة تماماً حتى الآن.

كان أزواغا لا يزال يضع يده اليسرى على ملف مارسلين المفتوح. نظر إلى لائحة التلميذات، مُداعباً ذقنه. أشار بإصبعه إلى اسم سوليداد وسأل كاسيريس.

- وهذه الفلانة ... كيف تراها كتلميذة؟

- لا أدري ...، كنّ تلميذات مارسلين، لحظة ...! فتح كاسيريس ملفّاً آخر ذا غلاف كرتوني أكثر أناقة ونظر إلى اللائحة وبدا مُتعجّباً.

- ما هناك؟

- مستوى «أ» ! تمتم كاسيريس -إن هذا نادرٌ لدى مارسلين. هناك مستوى «أ» آخر فقط في هذه اللائحة.

- تلك الشقراء في عمق الصالة!

نظر إليه كاسيريس مندهشاً. كانت فيرونيكا تكتب دون توقّف، غارقةً في أفكارها.

رفع أزواغا سيجارته «الكنت» إلى شفتيه المنحنيتين بكل زهو وانتصار.

- هي من آل ساريّا! قال المارد -كيف عرفت؟

- عندما كنت تُجيب عن الأسئلة، رفعت هي يدها. كانت تُريد أن تعرف عن تقديم العمل الذي أوكلهنّ به مارسلين عن هيغل. تكوّن لدي الانطباع بأنها أحسّت نفسها مسؤولة عن الأخريات، أتعلم؟ كما لو كانت تودّ حمايتهنّ.

راح أزواغا يتأمّل بمتعة كبيرة لوالب الدخان التي راحت تتكون في جو الغرفة الحار، تلك الأمسية التي تُشارف الانتهاء. وانتظروا جميعاً صامتين. عند انتهاء المُهلة، طلب كاسيريس تسليم الأعمال. انصرفت الفتيات بانتظام نسبي. صعد كاسيريس لبُرهة، وعاد من المطعم بطبق عليه زوج من كؤوس البيرة وسندويشات من الدجاج. اعترف أزواغا بأنه يشعر بالجوع، لكنه أخذ البيرة. توَزّعا كدسة المسابقات وراحا يصححانها على عجل. كانت تُسمع من حين إلى آخر طرقات أصابع ناعمة على الباب لفتيات أردن السؤال عن العلامة. أجابهنّ كاسيريس بصبر نافد بأنه لن يطلعهنّ على العلامات حتى الغد، وبأن ينصرفن جميعهنّ إلى منازلهن. عند انتهائهم أخيراً، استودع أزواغا رئيس

الأساقفة، قائلاً له بأن عليه الذهاب إلى المطار لاستقبال إليزا. عرض كاسيريس عليه استخدام سيارته، لكن أزواغا ردّ بأنه يفضّل سيارة الأجرة. واضعاً سترة «كوردروي» على كتفيه قطع أزواغا بخطى سريعة ممراً عريضاً مُظلماً ورطباً، على جدرانه مُلصقات وصور المُتميزات من الطالبات، وخرج إلى الساحة. في الخارج لم يكن الحر قد تضاءل بعد، على الرغم من زوال الشمس. تنهّد. قطع الساحة بسرعة، وعلى الرصيف راح يبحث عن سيارة أجرة. لم يقع نظره على أية سيارة. أسند ظهره إلى موقف الباصات. مرّ أحد الباصات غاصّاً بالركاب. اقتربت من الرصيف سيارة ألفا روميو مكشوفة.

- نستطيع أخذك إلى مكان ما، أستاذ؟

لم يستطع أزواغا تمييزهما في تلك اللحظة. لكنهما بدتا تلميذتين بلباس المدرسة.

- شكراً، لكني أذهب بعيداً.

- لا يهم، اصعد من فضلك.

- إني ذاهب إلى المطار.

فتحتا له الباب، تردد أزواغا للحظة. نظر إلى ساعة يده وصعد. عندها تعرّف إليها في ضوء الغروب الخافت.

- إنها سوليداد سانابريا، وأنا فيرونيكا ساريّا! قالت التي تقود. انطلقت السيارة محدثة ضجة كبيرة. سحب أزواغا كالآلة علبة الماريوانا الرقيقة، وعرض عليهما. فوجئتا، وقررت فيرونيكا.

- هيا سوليداد، أشعلي لي واحدة، أتريدين؟

- أخذت سوليداد سيجارتين بخجل. وأشعل لها أزواغا. مصّت فيرونيكا سيجارتها وأشرق وجهها.

- أتذهب لإحضار إليزا، أستاذ؟ قال المونسنيور إنها ستعود اليوم من ميسيونس.

أومأ أزواغا برأسه، وقد فاجأه قليلاً تصرفهما بدون تكلّف. تقدموا لوقت طويل صامتين. كانت ضفيرة فيرونيكا الحنطية تطير مع الريح. أمّا سوليداد التي بدت خجولة بعض الشيء، فكان شعرها قصيراً.

- شكراً للتوضيح في الامتحان! تمتمت أخيراً سوليداد بكل خجل.

ابتسم أزواغا دون أن يتكلّم.

- سوليداد تحب العبث مع الأساتذة! قالت فيرونيكا. عاد أزواغا إلى التبسّم.

- أنتا تلميذتان مجتهدتان... لم يعتد الأب مارسلين إعطاء علامة «أ».

- لكن المونسنيور كاسيريس لا يعبأ بسوليداد ولهذا مزّقت له البارحة كتابه المقدس بمشط الخيول الصدئ والمُهترئ، حتى أنها جرحت إصبعها. أريني سوليداد، دعي الأستاذ يرى إصبعك. لقد سال الدم طوال الصباح، حتى أنّي اضطررت إلى مص إصبعها ووضع الأوكسيجين عليها.

نظر أزواغا إليهما مذهولاً. احمرّت سوليداد من الخجل وحاولت دسّ يدها بهدوء بين فخذها وفخذ أزواغا.

- اعذرنا إن كنّا نذهب هكذا متلاصقين! قالت فيرونيكا. - هذه السيارات ليس فيها إلا مقعد واحد. لكن هكذا أفضل، أليس كذلك؟

كانوا يسيرون بسرعة.

إنها تبدو كناديا كومانيسي، لكن بشعر أشقر. كانت إليزا قد قالت ذلك.

2

- لكن تشيبي ليس بموضوعنا! صرخت سوليداد.

- يجب أن نخرج مع أحد ما! قالت فيرونيكا. في تلك الغرفة ذات الستائر السويسرية وعلى جدرانها يبتسم روبرت ردفورد، كانت سوليداد تمشي بخطى ملتوية. كانت المرآة ذات الإطار الفضّي ترصد ارتعاش شفتيها البنفسجيّتين وتُعرّي نظرات فيرونيكا المشتعلة من وراء ظهرها.

- تبّاً، هذا الشخص لا فائدة منه، إنه كبوق الطائرة! تابعت سوليداد -وعطره بخس. لكن الأمسية جميلة.

- إن كان ثقيل الظل تركناه وحده.

- علينا العودة باكراً! قالت سوليداد، واضعة في فمها حبّة أخرى من البونبون بالكحول.

- ألم تقولي بأن أمك ذهبت إلى ريسيستنسيا؟

- ليس هناك أحد في المنزل، لكن جارتنا هناك، تلك العجوز المتطفّلة. إنها تهتمّ دائماً بالساعة التي أعود فيها.

- مرابية السوق تلك؟

في الأسفل صدح صوت ايفاريستو ساريّا-كيروغا منادياً ابنته. أطلّت فيرونيكا إلى شرفة البهو. رأى والدها سترتها البرتقالية وارتأى بأن تصميم فتحة صدرها عصري جداً، أي مُبالغ فيه. وسألها بعدها عمّا كانت تعمل.

- أنا مع زميلتي، سوف نخرج مع تشيبي.

- حسناً، سأذهب لألعب وردية عند آل لارّاين وأعود. لا تنسي بأن تتركي كارمن سيفيّا مع والدتك عندما تخرجين.

- نعم، أبي.

داعب الفارس ذقنه، تلك التي عبرت البحار.

- فيرونيكا...

انحنت فيرونيكا بصدرها المكشوف على درابزين الشرفة.

- يُسعدني أن لا تعودي متأخرة، عزيزتي...

نزلت فيرونيكا على الدرج الرخامي بوثبات كبيرة، اقتربت من والدها وهمست في أذنه.

- أبي ... أظن بأنني سأبقى للنوم عند صديقتي. لقد ذهبت والدتها إلى ريسيستنسيا وطلبت منّي أن أرافقها.

ابتسم الفارس بعذوبة، مُداعباً كتف ابنته العارية، وقال دون أن ينتبه، مقلّداً صوتها الناعم.

- حسناً حبيبتي، ولكن لِمَ تقولين هذا بصوت خافت؟

- لأنها...! وخفضت فيرونيكا عينيها بكل غنج - لم أقبل دعوتها بعد لأني وددت أن أطلب منك الإذن أولاً.

أحسّت بشفتي أبيها الرطبتين على جبهتها مودّعةً.

بينما كانت تصعد الدرج المرمري، سمعت صرير الباب الرئيسي يُقفل من الخارج. عند دخولها الغرفة، وجدت سوليداد تنظر إلى ساعتها بفارغ الصبر، وقد قلبت شفتيها ومزاجها معتكر.

- إن تشيبي يتأخّر دائماً.

- سوليداد، لا تُعجبني تسريحتك، تعالي، دعيني أسرّح شعرك من جديد.

فكّت ذيل الفرس القصير، ولم تُمانعها سوليداد. جالسة على غطاء السرير الحريري المُصدّف، كان المشط الرشيق والأصابع القويّة تسرّح شعرها وتُداعبه. وكان أي احتكاك دافئ برقبتها أو عنقها يجعلها تنتفض من المتعة.

- لقد تأخّر... الوقت! تمتمت بلطف. - سيصل تشيبي حالاً.

- لينتظر هذا المُخنّث! همست فيرونيكا والشرائط بين أسنانها.

لقد كنت قلقة قليلاً لأن تشيبي لم يدع أحداً من أصدقائه. كان من المزعج خروجنا نحن الاثنتين مع تشيبي وحده. كنا قد بلغنا الخامسة عشرة. لكنه أتى بمفرده. وهكذا صعدنا في المقعد الأمامي. لقد بدا لي بأن تشيبي كان مسروراً لأننا كنا نجلس مُتلاصقين. كان تشيبي مُغرماً بفيرونيكا وكان يُعجبه أن يلاصق جسمه جسمها، وأن يلمس ركبتها كلما أراد أن يستعمل غيار السرعة. كنت أنظر إلى الأضواء من

النافذة. كان الهواء يتحرّك قليلاً. يُسعدني التنزّه بالسيارة. منذ تُوفي أبي لم تكن لدينا سيارة أنا وأمي. أنت لن تصدّقني، لكني أحسست بشيء غريب حينئذ. لقد سألت تشيبي لم لم يأتِ بأحد من أصدقائه لمُرافقتي. لا أحب أن أكون مُرافقة العشاق. تظاهر تشيبي بعدم الانتباه دون أن يصرف نظره عن حركة السير، كما لو أن الأمر لا يهمّه. قال بأن فيرونيكا قد طلبت منه عبر الهاتف المجيء بمفرده. فسخرت فيرونيكا منه، كعادتها دائماً عندما تكون معه، وقالت: لا ينقصنا مُخنّث آخر! فاحمرّ وجه تشيبي. إن فيرونيكا فظيعة، حضرة المونسنيور، عندما تودّ ذلك. لا بد أنك تعرفها جيّداً.

لقد توقفوا بجانب الساحة العامة. كان الكورنيش يغصّ بالأزواج حول الطاولات، والأولاد الذين يضجّون عند أنابيب التزحلق، وبائعي الجرائد الذين يصيحون بعناوين النشرة المسائية.

- لا أفكّر في النزول هنا! قالت فيرونيكا بينما كانت سوليداد تتأمّل المراكب والنهر المظلم.

- ألم تكوني ترغبين في تناول البوظة؟ قال تشيبي كأنّما ينفخ في القصب، مرتعداً وممسكاً بمقود السيارة بكلتا يديه.

- نعم، لكن ليس في وسط هذه الحثالة.

- وأين ترغبين في الذهاب؟

- إلى أحد المراقص، أيّها الأبله.

انطلق تشيبي بالسيارة من جديد.

- وتودّين أن يكون المرقص مُكَيَّفاً؟

كان كل شيء يسبب لها الاختناق، الهواء والناس والعادات، وذلك النحيل دون شخصية أو أفكار. كانت نظراتها الحارة تتجاهل الشارع، وإشارات السير، والأكشاك وواجهات المتاجر والظلال الماكرة. كانت نظراتها تنحصر بساعة معصمها الصغيرة، وبصديقتها تلك الفتاة البسيطة المنتشية في الظلام، بالألوان، وبضجيج الفرامل والأبواق، منتظرة دون أن تعلم. أخذت بيدها عند إحدى الزوايا:

- تبدين مُشتّتة...

أشارت سوليداد بعينيها الواسعتين إلى النافذة مأخوذة، وابتسمتا بصمت. كانت يدا النسيم تعبثان بذاك الشعر التي صفّفته وجمّلته على طريقتها. وضعت سوليداد يدها الأخرى فوق يد فيرونيكا واعترفت لها بعذوبة:

- يسعدني رؤية كل ذلك.

أنا أعلم بأنك مشغول دائماً سيدي المونسنيور. لا أريد أن أضيّع وقتك. حسناً، ما جرى أني لا أستطيع البوح بذلك لأحد، لكنني أشعر بالثقة معك. إن من واجب الكهنة حفظ الأسرار، أليس كذلك؟ حسناً، لا أذكر إن كنّا قد قضينا ساعة أو ساعتين في المرقص. كان أحد المراقص الفاخرة، أكثرهم عصرية. أظنّك تعرفه. لقد كنت أنا هناك العام الماضي يوم ذكرى ميلاد أمي. لقد دعانا الجنرال غونزالس، الذي كان زبوناً لوالدي في الصالون، أنا وأمي لتناول الشامبانيا والبوظة. الآن

أتذكّر أن والدتي تناولت الكثير من الشامبانيا وكانت تقول أشياء مسلّية جداً. كان الجنرال، كما تعرفه، ينظر إليها بكل رصانة دون أن يقول شيئاً. كان بالغ التحفّظ.

تلك الليلة طلبنا البوظة، وطلب تشيبي الويسكي. إنه عادة لا يشرب. لكنه كان يودّ إثارة فيرونيكا. كنت أشعر بالغرابة. من حين إلى آخر، كانت فيرونيكا وتشيبي يخرجان بمفردهما، أقصد دوني أنا، وحدهما. لا أدري لماذا. كانت فيرونيكا تعجب بطلاب الجامعة، نعم. لقد خرجت مع الذين يلعبون الركبي. أحدهم كان مُلتحياً، مثلك مونسنيور. كانت فيرونيكا مجنونة به، أتعلم، مونسنيور... لا أدري ان كنت أحسن صُنعاً بإخبارك، لكن يبدو لي ... حسناً، لنقل بأنه افتراض فقط ... أنا ... أظن بأن فيرونيكا لم تعد عذراء، مونسنيور.

- تعالي سوليداد، لنذهب إلى الحمّام.

لم تكن سوليداد قد أكملت صحن البانانا سبليت.

- لنذهب، أقول لكِ! وشدّتها فيرونيكا من معصمها. - شعرك بحاجة إلى التصفيف! وأنت أيها المُخَنَّث ادفع الحساب.

نظر تشيبي إليهما وهما يتحاشيان الطاولات. تجرع كامل شرابه ونادى النادل.

- أعطني الحساب، من فضلك! طلب ذلك بصوت جهوري كتاجر تبغ من نابولي صادحاً في دار الأوبرا.

نظرت سوليداد إلى مرآة الحائط الكبيرة المُزدانة بالزخارف العربية.

- لا يبدو شعري سيّئاً كما تقولين.

- أعلم بأنّه ليس كذلك، ما دمت أنا قد سوّيته. أردت فقط أن أقول لك بأني سأبقى معك هذه الليلة في منزلك.

- ولكننا قد انتهينا من الامتحانات.

- أريد فقط البقاء للتحدّث بعض الوقت، سنشرب القهوة وننام بعدها بدفء. لقد أبلغت أهلي في المنزل.

مررت سوليداد يدها على شعرها ببعض التوتر.

- حسناً ...، كما تُريدين.

أعادت فيرونيكا صبغ شفتيها مقتربة بعينيها السوداوين الكبيرتين من المرآة البهيّة.

- أعلمك بأنه لا يوجد أحد في المنزل...! قالت سوليداد بخجل. - أمي في ريسيستنسيا. سيكون علينا إعداد إفطارنا بأنفسنا.

دفعتها فيرونيكا بهدوء على ظهرها العاري.

- حسناً، لنذهب!

لقد ظننت بأنها كانت تريد أن تتحاشى مُضايقة تشيبي لها في طريق العودة، لكن الأمر لم يكن كذلك، مونسنيور.

توقفت السيارة أمام منزل سوليداد. نزل تشيبي واستدار حول السيارة من الأمام وفتح الباب لمساعدة سوليداد على النزول.

- شكراً على كل شيء، تشيبي! وقبّلت سوليداد وجنته. حاول تشيبي إقفال الباب؛ لكن فيرونيكا اعترضته واضعة رجلها خارجاً.

- انتظر أيّها الأبله، أنا أيضاً سأنزل هنا، ألا ترى؟

حاول تشيبي إخفاء ذهوله مُتألّماً!

- عفواً، لم أكن أعلم...

لمع البرق في السماء.

- حسناً! قالت فيرونيكا واقفة على الرصيف. - لندخل قبل أن ينهمر المطر. إلى اللقاء! شدّت على يده بسرعة. متسمراً في مكانه، صامتاً، رآهما تشيبي تفتحان الباب، ورأى كلبها راسكولنيكوف يشمّهما بتعب. ردّ تشيبي السلام لسوليداد مُلَوِّحاً بيده دون حماسة.

دخلت فيرونيكا دون أن تلتفت إلى الخلف. وسمعت وهي في الداخل صوت مُحرّك السيارة يبتعد. أقفلت سوليداد وعلّقت المفتاح بجانب الباب. استدارت نحو فيرونيكا، فوجئت. رأتها مُنتصبة وسط البهو الصغير المُظلم وتمُدّ نحوها ذراعيها الجميلتين المُبلّلتين بالعرق. لقد رأتها وسط الظلام الدامس، ربما لأول مرّة، مشتعلة، قلقة ورائعة. كانت عيناها الثملتان تجولان على ذلك الجسم المتوتر، المنحوت، المُغلّف كماسة مشتعلة، بتلك السترة البرتقالية الرطبة. ضمّتها فيرونيكا بصمت بيديها المتعثّرتين. داعبت ذلك الرأس الذي أشعلته الرغبة، ورفعته برفق بأصابعها الظمأى إلى شفتيها المحترقتين. كانت ترتجف من الحنان. شعرت بالدوار وأحسّت بذراعي صديقتها المُشتعلتين تحيطان بها أيضاً، يائستين.

أروي لك ذلك، مونسنيور، لأني لا أعلم إن كان ذلك خطيئة.

هي ... كانت قد ابتدأت، هذا صحيح، لكن ... حسناً، لقد أعجبني ذلك أيضاً، مونسنيور. هذا سيئ جداً، أليس كذلك؟ أحسّ بالعار، يا إلهي!

بينما كانت تتردّد الأصداء المُدوّية لعاصفة الصيف المفرطة طوال الليل، كان البرق بضوئه البنفسجي المفجع يُنير للحظة الغرفة العارية. تقشعرّ الأبدان، والأطياف تظهر مذهولة في ومضة كهربائية كئيبة. مالينا تنتفض كالورقة. ألبرتو ... اتركني. ألياف جسد الفتى العاري تثور دون كوابح في انفجار لا متناهٍ لدموع صاخبة خجولة. انفجار آخر في ساحة أشجار الأكي دنيا يهزّ كيان المنزل كما لو ضُرِب بسوطٍ ضخم جافٍ. الجدران تصرخ بصفير جارح رهيب يُمزّق الظلمة العاصفة. الهواء يدخل من الشارع الأحمر برشقات إعصارية من الماء والرمال والبرَد. مالينا ما زالت جاثية على ركبتيها على ذلك الفراش القذر جامدة وأسنانها المُصطكّة حبيسة شفتيها المُتشنّجتين بلون الحبر. شعرها القصير مُبعثر وهارب على وجهها الغاضب. تُحاول الاحتماء بغطاء سريرها المصفرّ الذي تخرقه لدغات الهواء المُتجمّد العاصف كسكاكين حادة. حذاءاها القديمان في الزاوية يرمقانها جامدين بعيون جلدية مهترئة. انكمشت مالينا خلف ظهر ألبرتو المنحني والغائب. قطرات العاصفة المُتجمدة تبلّل شعرها مثل لآلئ طائرة ثملة. هذا أفضل يا حياتي...! بين دويّ الرعود والتنفس المخنوق في ذلك

الصدر الواسع، تصعد صرخات الأرض المختنقة نحو الفضاء الذي صرعته البروق كالإعلان عن ولادة رهيبة. ألبرتو ...! كانت تقبّله في عنقه خلف أذنه كما كان يُحبّ. كان الهواء والبرق قد استوليا على غرفة الدعارة الضعيفة. يرفع ألبرتو عينيه صامتاً مُنهكاً ويتأملها لوقت طويل بينما تداهم المكان انفجارات ليلة الحداد المبحوحة تلك. امتدت يد ألبرتو المرتجفة لتداعب وجه مالينا. يبدو تنفس الفتى أكثر انتظاماً الآن. يتتابع قصف الرعود دون توقف. تئنّ أخشاب السقف فوق تلك الشفاه التي تستعيد طريقها إلى نفسها فوق تلك الأجساد المتحدة، وتلك الأصابع التي تبحث عن الأفواه التي لديها الكثير للبوح به وسط الصمت. إنها اللغة الجريحة للقبلة المستأجرة، غرفة الوهن التي تؤويهم تشتعل بوميض البروق والإعلانات الصاخبة. تمدّ مالينا يدها الكادحة بين رجلي الرجل وتتجه نحوه. عارية شاحبة، وبابتسامة الحمامة الحزينة، تشيح بنظرها عن عينيه الدامعتين وعن تلك الشفاه التي تجهل متاهة الطفولة السرية، وعن ذلك الصدر الرياضي السابق لعمره، وعن تينك الذراعين الفارعتين المتوترتين، لتتمكن من توزيع قبلاتها، قبلات الكلبة وحبات الحصرم، ليكتشفوا وسط قصف الرعود والوميض وشم الحنان، ومفاتيح الحزن الموصودة إلى الأبد، المحروسة بقطرات الماء في الغرفة المنغمسة في الظلام. بشعورهم المبللة المتعاركة كان يضم أحدهم الآخر بذراعيه، تصدمهم الرعود وثمالة الليل والمحرقة القاتلة. مرتعشاً من جذوره المتزعزعة من

الطين ومجاري الصرف الصحي، كان لسان ألبرتو، ملحق حب الرجال ذاك الذي يبتدئ في طينة أي امرأة، يجول على جسد السنجاب، تلك الأغوانا الفضية، على النقاء والأمل، وسط لمعان البرق ومناقشة الرعود في تلك الغرفة الرثّة. وبالإلحاح وعدم الصبر نفسيهما، كانت تندسّ في لحم ذلك الذي لم يكن ملكاً لأحد، كانت تخترقه بدغدغة وحشية لا تتوقف. كان ألبرتو يحسّ شرايينه تتفجر، كان يشهق كبركان يقذف الحمم أو كنمر بمواجهة هجوم لأشجار خضراء. كان كمن يهذي فوق الغيوم، تماماً كسنونو تهاجر معاكسة في تلك الليلة الباردة والعاصفة، في ذلك النفق الهش نحو النهار متسلحةً بالشمس والجروح. في هذا الصيف العادي والرائع ساعات الوحدة والعاصفة تتهامس وتتأوّه بلهجة لا يمكن وصفها، بكلمات من الجِلد والنار. اللهب يهدر في الأفق. الأرض تتصدّع بفعل المياه الهادرة، كالخاتم السحري. فارس الحي في هذه الهوّة المميتة، الحمم والخطيئة تسيل من فكي تلك المرأة، الأخت، وكل النساء جميعهن دون أن يعرف، عقرب، ذُرة بحبها، ظفَر وبرق: أين هي أمكَ، تلك المشعوذة؟ أنت مُتأكّدٌ أنها تحبك؟

رهيب خط الشعاع في هذه الليلة المظلمة، والقرف والرغبة، وذلك الفم الصغير اللاذع، والأوراق، أوراق التجنيد، انتبه، وجزر المالويناس. وأبوك، هل تشاركه أنت في لعبة الشطرنج اليومية؟ والخيانة، ألبرتو؟ والعادة؟ ادفع، ألست برجل؟ أدفع، انت لا تصلح

لشيء، ها هو السقف يتهاوى بكامله. وهكذا يا ابنتي الصغيرة ... آه ... بندقية الليل الهائجة المقعقعة، إضاءة البرق الكهربائية المحتضرة، والصاعقة، كل شيء يصرخ ويهتز، وجسدُكَ، أفرِغه من البذور، لا تقف، تابع، لا تتراجع، نافس بقوة، الست بفحل؟

مرة أخرى، ألبرتو، دون استراحة، اخدم بشيء ما، لتخدمك تلك الخادمة الخدومة، لقد دفعت لها الضعف، كل مجوّف فيها، كل شعرة فيها، كل واحدة من أسنانها، كلها! كم الساعة الآن؟ العجوز لا ينام أبداً منذ أنت ... أسرع، لا تريد أن تسمع صوته المزعج، سيضيع في الحلم، هيا انتهِ. سيظن أنك كنت برفقة العاهرات والحشّاشين، سينتزع عينيك، بسرعة، من كان ليقول ذلك عنك ألبرتو، أنت صاحب الأهداف السبعة والأوزان الكبيرة، من آل ساريّا، من قافلة آل كيروغا الطويلة، أقارب الوطن وذلك الذي يقطن عند زاوية الشارع وذلك الأبعد أيضاً الذي يمد إليك يده. أنت الصمت الرائع، أين تفاخُرك وخطى الرقص التي تعلمتها؟

ماذا تراك تفعل بهذا العصفور الرخيص بين رجليك، يسيل لعابه بعد أن شرب من البالوعة حيث تقيّأ الأبرص والليل. ألا تحسّ بالحكة في...؟ كما كانت تقول عمّة الحي القديم، يا بني لا تلمس. لقد انتقلت إليك عدوى الحنين والإيدز وكل حزن العاصفة التي لا تنتهي. اخرج، اهرب، اركض عزيزي، لأننا معك. من الذي أشار عليك بالضياع في هذا الجحر المظلم النتن في خضمّ العاصفة؟ ألم تعد تحبّنا؟ أرِنا، مدّ

يدك الباطشة، كم ينمو شعرك، ويتجعّد كما شعر صدرك الغاشم. أنت تهجرنا يا قلبي، السقف يئن أكثر. ألبرتو! انت تؤذيني ... ألبرتو! أنت لا تسمعني.

يجب عليك قتلها، ستقتلها الصاعقة، تلك المعركة المسعورة وطلقات النار. هذا ماء، هذا الفراش يبدو كبركة، هذا الفراش تحوّل إلى قرح. لقد ثقبت العاصفة السقف وزواياه. هيا انزل واذهب إلى الجحيم أيها الأحمق. مسكين، لا يدري ماذا يفعل، كِدت تخنقني. لقد تبلّلا حتى النخاع، والنعاس، آه، ما أجمل أن يستيقظ المرء دون التزامات. أمن الأفضل أن أذهب ...؟

ربما لن يبحث أحد عن أجنحة الصيف ولا عن كيفية ظهور ندى الصباح فجأة، أو المذنّبات المتسلّلة. إنه الذهول العنيد لكون المرء شاباً، بكل بساطة. يسود السكون، وتنتهي الحراسة. غداً شارب آخر، متسرّع، سحّابات وسروال، طقوس مكرّرة، تنازل، مساومة وعبودية، وخطوة: هذا اليقين البنفسجي يُتعب. أحزان مسفوكة، تُحسّ بأن كل ذلك متعب. اسمه «بافس»، ليلة أقل لبضعة نقود زائدة. ما زال غضب العاصفة يلاطم النافذة، وهذا البرق، قد يكون الأخير! دون ملح أو يود، أو دخان، أنتهي إذن! هيّا دون أوهام. أنتِ مصنوعة من الخز، من الأخبار، من الغروب ومن الماء. هذا الهواء ليس لكِ، والعالم ليس لأحد، وأنتِ لا مكان لكِ في الاحتفال، ولا في الأمسيات، ولا في الخريف، ولا في الثامنة. هيا ضعي توقيعك وانسحبي. كم هو حارق

ذلك البرق في البعيد، تكاد تنحسر العاصفة. انظري كيف ينام، كيف له أن يهتمّ بك، إن كان الإعصار، الإعصار الآخر هم الآخرون، بالكاد يعرض عليك هدنة للنوم بين ذراعيه. لا تحلمي وتدعيه يحلم، هو ممنوع عليك، آن لك أن تَعلميه، كم من مرة تكرر هذا في هذه المغارة؛ تكاد الشمس تشرق، دون أيدٍ، ولا مداعبات ولا حنان أو كلمات، عليكِ بإيقاظه، ألبرتو، اذهب إلى منزلكَ.

هي مهنتكِ، هكذا تجنين المال، انظري كيف ينام! لا يبدو عليه أنه سافر إلى طرف الليل، ولا كانت لديه ساعة ضبط عسكرية، سيلين، ولا صوت آخر، لن يكون يوماً رقيباً ولا حتى عاهرة. ألبرتو ... ما هذا الوضوح البالغ الزرقة في ضوء يوم السبت. عزيزي ألبرتو ... هزّيه أكثر، نعم. يبدو السقف وكأنه يقع، هو عارٍ انظري اليه. ألبرتو، لقد دخل النهار. هو ينام، برونزي وليّن، وقضيبه ينام أيضاً. انهضي، وامشي خلال الغرفة، احذري أن يراكِ الجيران، لا يهمنّك شيء ما دام بيدك المال. قد يأتون لزيارتك اليوم. انظري إليه إذن. كانوا جميعاً بين القصف والشرارات كالوحوش. جسدكِ كان مؤجّراً، وخصوصيتكِ التي لم ينتهكها أحد، والأسرار التي ما استطاع التعتيم عليها أحد، والأقبية التي ما استطاع ثقبَها البرقُ، والآن ينبلج النهار مهدِّداً.

لن يكافئَكِ على تلك العطيّة، لا بقذف المني ولا بالتسعيرة. ألبرتو، حبيبي، استيقظ! كوني واقعية، ارتدي ثيابك، لقد تأخر الوقت. سرحي شعرك، يجب أن تبيعي نفسك. ألِحّي، هزِّيه ليستيقظ، فهو لم

يدفع لينام، هذا الحلم ليس مجاناً، إلا إذا كان يحلم بذهابك، لكنك لا تودّين الرحيل، أنت متسمرة هنا، لستِ مجبرة على مداعبتهِ، لم يكن وارداً حتى تقبيلُهُ. هذا النَفَس، وهذا الحنان على الجفون المرتجفة. قد يكون ذلك مدمِّراً. وهو يفتح عينيه، يبتسم ويقول لكِ: مالينا، تزوجي بي من فضلك! طبعاً أنا أتكلم بجدّية. لا تهتمي، أنا أخبر أبي بأن عروسي نمر سماوي.

3

كانوا يمضغون العلكة وهم ينتظرون في صالة مسرح المدرسة الحارة جالسين على الألواح المغبرّة، مستندين إلى الكواليس الغائرة، ومتسلقين الأدراج الهشة. بارتدائهم سراويل الجينز والأحذية الرياضية، بدوا أكثر نضجاً منهم في ثياب المدرسة القديمة. كان طوطو أزواغا واقفاً ويداه في جيوبه، هادئاً وصامتاً، ويجول بنظره على ذلك القلق الملوّن والمختلف الأشكال. كانت فيرونيكا ترمقه بنظراتها المعدنية من إحدى زوايا المسرح وهي تقف بجانب أخيها. لم تكن سوليداد بين المتطوعات للإلقاء. نظر الإسباني المُخضرم إلى الألواح كأنما يبحث عن الكلمات. وأخيراً أطلق شفتيه.

- \الِحداد يصبح إلكترا\! قال.

كان سيمون كاسيريس قد أمده بفنجان آخر من القهوة، هذا الفجر.

- شكراً! قال أزواغـا منغمساً بهدوء في كرسيه من طراز الإمبراطورية الثانية، مُختلساً النظر إلى زجاجة الكورفوازيه الدكناء التي انتهوا من شربها منذ حوالى النصف ساعة. كان الأسقف يسعل.

- مروحة السقف اللعينة تسببت لي بآلام الحنجرة! كان أشعث اللحية خفيفها.

- لا بد أنه عمل يستوجب العناء! أكمل أزواغا. دون قميص، لم يكن صدره النحيف ليتصبب عرقاً أقل.

- هنا أيضاً يعتبر المسرح عملاً تخريبياً. يجب انتقاء موضوع غير ضار.

- بالطبع، أفكّر في شيء كلاسيكي. أنا لا يهمني أبداً إثارة الوعي لديهن. أنا من أتباع البنيوية، لا أؤمن بشيء. بما يمكنني أن أحشو رؤوسهن إن كنت أنا نفسي لست متأكداً من الشيء. لقد قال نيتشيه إن الحد الأقصى للمجتمع سيكون يوماً بأن يفضّل المرء الموت مرتين على أن تكرهه الناس وتخاف منه. أي عقيدة أستطيع أن أضع في رؤوسهن؟

- هذا! شكوكك! بأن تجعل الآخرين يشكّون، هذا خطير.

- أقسم لك بأنه ليس لي أدنى نية بالتسبب بالمشاكل لهن! أنا لا أقوى على قتل ذبابة.

- أن يكون المرء جيداً هذا غير شرعي.

- أكثر ما يُزعجني لدى الكهنة والشيوعيين أنهم يعتقدون بفكرة عالمية للأخلاق! وارتشف قلقاً قهوته بطعم النعناع. - لا يوجد جيد وسيّىء. هناك الجميل والقبيح فقط، إن أردت قوله بطريقة أخرى، هناك الناس أمثالنا وهناك أولاد العاهرة. ولكن لا شيء يسبب لي الأرق!

- لم أشعر بالأرق منذ حرب التشاكو.

كان كاسيريس قد حنى كتفيه ووازن رجليه على النافذة. كان أزواغا يبحث عن سيجارة على مكتب الأسقف دون أن يعثر على غير العلبة الفارغة، مطوية بجانب المنفضة الملأى بأعقاب السجائر وسط كومة الأوراق.

- هل لديك المزيد من السجائر؟ سأل أزواغا المارد.

- لقد دخّنت حصّتك وحصّتي! لم يتوقف كاسيريس عن تحريك قدميه. حاول أزواغا إخفاء استيائه.

- ألديك سيارتك؟

- نعم.

- لنذهب لنبتاع السجائر. هكذا نطرد عنّا النعاس.

- تكاد تشرق الشمس. ولدي قدّاس في تمام السادسة.

- سنعود حالاً.

قفز الملتحي من مكانه على النافذة، ومشى إلى سريره، أخذ قميصه ورمى للآخر قميصه، أخذ مفتاح سيارة المرسيدس وراح يهزّه بوجه صاحبه والابتسامة تعلو وجهه. كان أزواغا قد فرغ من ارتداء قميصه.

- لكن على مهل! صاح أزواغا قبل أن يخرج من الباب الثقيل الذي فتحه الأسقف.

- هي في الواقع ثلاثية! كان أزواغا يمشي بين الطلاب ببطء.

- بمعنى أنها تتبع النمط الكلاسيكي تقريباً. في هذه الحالة عمل «الأورستيادا» لأسكيلو.

وافقت فيرونيكا بغريزية، وابتسم ألبرتو بجانبها ساخراً.

- عنوان الجزء الأول «العودة إلى المنزل» ...، سيكون شبيهاً بالأغاميمنون اليونانية. فيه ثلاثة مشاهد إن لم أكن مخطئاً. حسناً، هذا لا يهم. الجزء الثاني الذي يعادل «لاس كويفوراس» عنوانه «المتهَمون». هذا هو الجزء الذي يهمني. والجزء الثالث الذي يستند إلى «لاس اويمينيدس» لديه اسم غريب. من المؤكد تقريباً بأن كل مخلوقات أونيل يمكن أن تحمل هذا الاسم. وعنوانه «الممسوسون».

تظاهر بالقحّة وراح يتفرّس في تلك الوجوه المراهقة الحذرة.

- هل درستم أونيل هذا العام؟

- نعم! صاحت بعض الأصوات.

- أي أعماله؟

- فقط «الامبراطور جونز»

- حسناً! أكمل أزواغا. - إذن سأقتصر على هذا العمل فيما سأقول. عُرِض لأول مرة سنة 1931...

رفعت الفتاة التي تكلمت سابقاً يدها.

- أستاذ... أردت فقط القول بأننا لم ندرس «الامبراطور» كعمل مسرحي. لقد طلبت منا إليزا أن نعد لعمل عن الأدب المقارن.

- نعم؟

- حسناً، وقتها قارنّاه بـ «ملكوت هذا العالم».

تبسّم أزواغا وشكرها، وعادت الفتاة للجلوس على المسرح. وأكمل أزواغا المشي والايماءات.

- تدور أحداث هذه الثلاثية في نيو أنغلاند، في قرية ساحلية. بعد قليل من حرب الانفصال الأميركية، كما تعلمون، عام 1865 أو 1866. والموضوع هو عن عائلة، طبعاً. عائلة «مانون». سيد المنزل، أغامنون، يُدعى إِزرا، إِزرا مانون. خلال غيابه، زوجته كريستينا، التي تكون كليتيمنسترا دي اسكيلو، سوف تخونه مع القبطان برانت...، نعم، أجيستو في الواقع. وأونيل أعطاه اسماً غريباً: آدم، آدم برانت.

نظر ألبرتو دون اهتمام إلى الصباح الرائع من النافذة. لكزته فيرونيكا بمرفقها ليعود إلى الانتباه.

- وأولاد مانون، لافينيا وأورين يعادلان بدقّة اليكترا وأوريستس. وهكذا تستطيعون توقع الحجّة: يقوم برانت بالتواطؤ مع كريستينا بقتل العجوز مانون. في «المتهمون» وهي القطعة التي أودّ أن أقترح عليكم، تحث لافينيا أخاها على الانتقام. يقتل أورين القبطان برانت، وتنتحر كريستينا. حسناً، هذا كل شيء. «الممسوسون» لا تهمّنا.

وضع أزواغا يديه على خاصرتيه.

في تلك الساعة، كان عليهما الذهاب حتى وسط المدينة ليجدا كُشك سجائر. كان كاسيريس قد توقف عند زاوية دار السينما وأخرج

رأسه الأبيض الضخم من نافذة المرسيدس السوداء.

- أعطني علبتين من سجائر التهريب، شقراوين.

وأدارا مكيّف الهواء من جديد، وعادا أدراجهما مسرعين.

- لم يحن وقت صلاتك بعد...! تمتم أزواغا. أعطاه كاسيريس ولاعته من البلاتين.

- في أي الأعمال تفكّر؟ سأله الملتحي بطرف عينيه.

- حسناً، كما قلت لك، في عمل كلاسيكي. اليكترا مثلاً.

- .....

- لأوريبيدس، طبعاً. أرأيت الفيلم؟

- نعم، مع ايريني باباس، أظن.

- حسناً .... يمكن أن تكون أيضاً نسخة عصرية، «الذباب»، ربما، أو «الأنتيغون» لبريخت.

- ولا بأي حال!

- لم؟

- بولشفيون ...، كلهم، سارتر وشركاه، كلهم ممنوعون من قبل السلطات. إضافة إلى ذلك، يجب أن يكون العمل بالانكليزية.

- ماذا؟

- من الواضح، أن المدرسة ثنائية اللغة، والآباء...

- لكن نصف الحضور لن يفهم شيئاً.

- لن يفهم نصفُ الحضور، هذا صحيح، لكن آباء العائلات

يريدون أن تتدرب بناتهم على الانكليزية. سيتوجب علينا دعوة تلامذة المدرسة الاميركية للعب أدوار الذكور.

أشعل أزواغا سيجارته وهو يهز رأسه.

- أفترض بأنه لن يكون علينا طلب التصريح من الشرطة أيضاً؟

- الموكلون بالتعذيب سيأتون بعدها، إن نحن قمنا بما يستوجب ذلك! قال كاسيريس.

كانت عينا أزواغا تجولان حزينة على الفرقة الطامحة إلى أدوار الممثلين والممثلات، الذين يتوزعون بينهم نسخ الكتيّب.

- أي سؤال آخر؟

رفعت إحداهن يدها بين الصخب. عرفها أزواغا على الفور.

- من التي ستقوم بدور لا فينيا؟ قالت فيرونيكا.

4

اجلس من فضلك.

- نعم، أبي

- لا تهتم ببرتا، لن تجلب لنا القهوة. دائماً عندما ندخل المكتبة تهتم بإحضار القهوة لنا. لقد أنذرتها بأننا لا نرغب بأن يزعجنا أحد.

- ......

- لقد أمرتُها بأن لا تمرّر لي أي اتصال، إلا إذا نادوا بالراديو من المزرعة. لكني لا أنتظر اي اتصال هذا المساء.

- ......

- حسناً، تكلّم يا فتى، ماذا تريد أن تقول لي؟

- أبي، أريد الزواج.

- نعم؟

- جدّياً يا أبي!

- لا أمانع، لا، لا أمانع.

- ..... يصعب عليّ قول ذلك.

- رجاءً، ألبرتو! ظننت أن الأمر يتعلق بشيء أكثر أهمية. كيف دروسك؟

- لقد انتهت الامتحانات.

- و؟

- لقد تخطّيت كل المواد.

- تخطّيت؟ لا يجب أن تتخطّى كل المواد فقط. أنا لم أتخطّ قط أية مادة. بل أتممتها جميعاً مع التهاني، لم لا تتعلم من شقيقتك؟

- هي تنسخ!

- كيف ذلك؟

- هي تنسخ في الامتحان! هي تكتب كل شيء على فخذها وتضع وريقات في صدريتها. لذلك تحصل على العلامات الجيدة.

- لا تقل تفاهات!

- اسألها عن ذلك.

- لا تتكلم معي بهذه الطريقة.

- أبي، أنت لا تسمعني....

- كيف لا أسمعك؟ تكلم! من يمنعك من الكلام؟

- أنت تحوّل الحديث، تجعله أصعب بالنسبة إلي.

- ألبرتو: أنا أبوك.

- حسناً. وأنا أقول لك الآن بأني أريد الزواج.

- عندما كنت في مثل عمرك، كنت أفكّر في دروسي فقط...

أدري بأنك تبحث عن ... توسيع آفاقك! باعتدال! كما يجب. تعرفت إلى فتاة وأعجبتك؟ أهي يهودية؟

- كلا.
- هذا جيد، ائتِ بها إلى المنزل.
- لا اريد إحضارها إلى المنزل، أريد الزواج بها.
- أهي من مدرستك؟
- كلا
- أهي صديقة فيرونيكا؟
- ليست من هذا الطراز.
- تعرّفتَ إليها في النادي؟
- كلا.
- عجباً!
- أظن .... بأنك لا تعرفها.
- هل أعرف أباها؟
- كلا.
- ما اسم عائلتها؟
- شيء يشبه سانابريا!
- سانابريا؟
- نعم، سانابريا.
- لم أسمع قط عن أي سانابريا، إلا إذا كنت تقصد خوسيه، من كاسال، وهذا منذ زمن بعيد...، على كل حال، كيف تعرّفت إليها؟

- منذ شهر، تقريباً.

- ما هذا، حب من النظرة الأولى! ألبرتو، يبدو لي أنك تضيّع وقتي.

- أردت فقط أن أكون مؤدبّاً معك، أجابه ألبرتو بالانكليزية.

- لا تعجبني مفارقاتك. أهذا ما يدرّسونكم في الكلية الأميركية؟

- حسناً، إذا كنت لا تريد الاصغاء إليّ...، أنا ذاهب.

- اجلس، لم أنتهِ بعد.

- ماذا تودّ أن تعرف بعد؟

- أخبرني عن تلك الفتاة. أريد أن أعرف اسمها، ماذا تعمل، كل شيء.

- اسمها مالينا، لا عائلة لديها، فقط أمها.

- مالينا! لم أسمع قط بهذا الاسم.

- ....

- أتقول بأن لا عائلة لها؟ كيف ذلك؟ هل تربّت في دار الأيتام؟

- لقد توفي والدها منذ زمن.

- وكم سنة عمرها؟

- سبع عشرة.

- سبع عشرة؟ ومن هو الوصي عليها؟ مع من تسكن؟

- تسكن مع والدتها وكلبها. في أحد البيوت الصغيرة.

- ومن يعولها؟

- إنها تعمل.

- في مثل عمرها لا تطمح الفتاة لأن تكون أكثر من خادمة منزلية! أهي خادمة منزلية؟

- تعمل في نادي ساونا.

- ساونا؟ لدي انطباع بأن هذه الأمكنة لا تتمتّع بسمعة جيدة.

- أنا سعيد معها.

- أهي تعمل بالتدليك؟ أنت تبدو كجدّك مع زهور الجيرانيوم!

- إني أكبرها بسنة.

- وماذا بعد؟

- أبي، أؤكد لك بأنها فتاة جيدة.

- ألبرتو! أنت لديك القليل من الخبرة... أنا عشت طويلاً.... وقمت بالحرب على التخريب... لا تثق بأناس لا تعلم حتى من أين جاؤوا.

- لكني تكلمت كثيراً مع مالينا، أعرفها جيداً. كما أنها وعدتني بأن تترك مهنة التدليك بعد زواجنا.

- طبعاً! تظنني سأعولكما معاً.

- أبداً. هي تفكّر في الاستمرار في العمل بمهنة أخرى. إن لزم الأمر، سنضبط مصاريفنا. هي ستدفع لي أقساط الكلية إن لم أجد عملاً فوراً.

- في الحقيقة بدأت أشعر بالقلق. لقد خدعتك تماماً! يجب عليَّ مواجهة هذه المرأة! وأنت تقول بأن لا عائلة لها...!

- لا أرغب بأن تواجهها بهذه الطريقة!

- انظر: أنت تقول بأنها ستترك ... عملها في الساونا، وتبحث عن عمل آخر. أليس كذلك؟

- نعم.

- وأي عمل؟

- وما أدراني، في أحد المتاجر...

- وما هو تحصيلها العلمي؟

- لا أدري.

- لا بد أنها عنيدة، مثل كل الفقراء. لا أقول بأنها ولدت هكذا، ولكنهم لا يتغذّون، أتعلم ذلك؟

- هي ذكية جداً.

- لقد خدعتك، ألبرتو. هي تعلم بأن لديك المال. أنت وسيلتها الوحيدة لترك التدليك للجيران! ساونا...!

- ستتعلّم الانكليزية. طوطو عنده صديقة أميركية و....

- طوطو؟ ومن يكون هذا .... الطوطو؟

- طوطو أزواغا.

- لم أسمع بهذا الاسم.

- هو أستاذ الفلسفة، أو ما يشبه هذا، في مدرسة فيرونيكا.

- ألم يكن ذلك الأب مارسلين؟

- نعم، لكن يبدو أنه أتى الآن.

- من المؤكد بأن الملتحي هو من أتى به، لا بد أنه أجنبي.
- حسناً، أتى من الولايات المتحدة...
- تصوّر! بلد برئيس يرضى أن يكون ولده راقصاً.
- لكن طوطو من شاسكوموس... أو من سانتنديرا لا أعرف بالضبط.
- هذا أدهى! إسبانيا لم تعد إسبانيا.
- ولمْ يأتِ به كاسيريس، إنه في زيارة فقط. هو في الولايات المتحدة مشهور.
- هذا يُدهشني فعلاً، وهو أتى لزيارة من هنا؟
- لزيارة إليزا، استاذة مادة الانغلوأميركية لفيرونيكا!
- لافنشا؟ تلك الزنجية العاهرة!
- ...
- لا بدّ أنها مطلّقة، هذا ما ينقصني.
- لا، لديها زوجها، أحد ما باسم غونتر.
- وكم عمر هذا الأزواغا؟
- لا أعلم، يبدو كمن عمره خمس وأربعون سنة.
- هذا ما كنت أتصوّر! لا يكون المرء مشهوراً في هذا العمر.
- لقد أردتُ القول لك فقط بأن إليزا ستعلّم مالينا الانكليزية. لمساعدتها على إيجاد عمل. أنا طلبت منها ذلك.
- لكن، لمَ تدعوها إليزا؟ أليست معلّمة؟

- هي طلبت منّا بأن نناديها هكذا.
- يا للهول! أهي تسمح بأن تُنادى باسمها؟
- نعم.
- هكذا إذن، وأظنها بدورها تناديكم بأسمائكم، دون ألقاب، أليس كذلك؟
- طبعاً.
- وذلك الآخر يناديكم بأسمائكم؟
- نعم.
- ولفيرونيكا؟ ينادونها باسمها أيضاً.
- طبعاً.
- غداً سأذهب للتكلم مع الراهبة تورّوكس! هذا ما لم أسمع به من قبل.
- أبي، اهدأ.
- اصمت، لقد أتعبتني بحماقاتك هذه. لحسن الحظ إنكم أنهيتم المدرسة.
- ليس بعد.
- ماذا تقول؟
- نحن نتمرّن على عمل مسرحي لحفلة التخرّج.
- أنت أيضاً؟
- نعم. هناك عدّة اولاد من المعهد الأميركي.

- وفيرونيكا؟
- أيضاً، إنها تقوم بالدور الرئيسي.
- آه، حسناً.
- كما أن العمل باللغة الانكليزية. أنت تقول دائماً بأن الأعمال المسرحية يجب أن تكون بالإنكليزية.
- وماذا يُسمّى هذا العمل؟
- «الحِداد يليق بألكترا».
- إباحية! ومن الذي اختار ذلك؟
- طوطو.
- هذا الوقح!
- أبي، إنه دكتور بالفلسفة واللغات.
- وماذا بعد؟ لقد كان ماركس حكيماً أيضاً!
- لكن طوطو ليس ماركسيّاً.
- هذا هراء، كلّهم يقولون ذلك. شخص يسمح لنفسه بمناداة طالباته بأسمائهن ويقوم بالدعاية لفرويد، هو شخص غير لائق. هذا شأن بلدنا بسبب فقدان اليد القوية. هؤلاء العساكر ضعفاء، لِمَ لا يتعلّمون من بينوشيت؟
- أبي، المسرحية بالانكليزية، ولن يفهم أحد شيئاً.
- ..... تلك العاهرة هي إِذن أميركية، كنت أظنّها أفريقية.
- كلا، أظنّها تسكن في واشنطن.

- كل الأميركيات تافهات.

- لا أفهم هذه الكلمة.

- لا يهم.

- حسناً، لقد أردّت القول فقط بأني أريد الزواج بمالينا. وأني سأتزوج مالينا.

- لقد تكلّمنا عن هذا.

- لست مستعداً لأنتظر كثيراً.

- لِمَ لا؟ هل ارتكبت... تهوّراً؟

- أتقصد بأنها حامل؟

- يا للفضيحة! حسناً، إنه .... مثلاً، شيء مثل ذلك تحديداً.

- كلا، هي تنتبه لهذا.

- يا للهول، وفي الثمانية عشرة؟

- السابعة عشرة.

- اصمت، أنت لا تدري ماذا تفعل. ولم لا تتردد إلى فتيات أخريات؟ لم تجمعهن عن الطرقات؟ لم لا تذهب إلى النادي؟

- اذهب دائماً.

- ولم تجد إحداهنّ لتُعجب بها؟

- مالينا تُعجبني.

- مالينا! ما هذا الاسم السخيف! أنا متأكّد بأنها لم تطأ النادي يوماً.

- لم آخذها، لا أظنّها تكون مرتاحة هناك.

- طبعاً، وأنا لا أكون مرتاحاً بجانب ...! ما كان اسم عائلتها؟

- سانابريا.

- ألم تقم بتغييره؟ لقد اعتاد اليهود استخدام أسماء مسيحية.

- كلا، لقد قلت لك بأنها ليست يهودية.

- وتعمل في ساونا! أنت لا تتصور الأشياء التي رووها عن بعض هذه الأماكن.

لا يذهب الجميع للتدليك وحسب، أتعلم؟

- .....

- وكيف وصلت إلى العمل هناك؟

- لقد أوصى بها أحد الأشخاص.

- من هو؟

- لا أدري، أظنّه جنرالاً.

- أهو عرّابها أو ما شابه ذلك؟

- لا أدري.

- انظر ألبرتو، أنت تعلم بأن لدينا دائماً... مشكلة والدتك، أؤكّد لك بأنها ستمتعض جداً إن علمت بأنك تخرج مع فتاة من هذا الوسط.

- لا أظن ذلك.

- وكيف عرفت؟

- أنا أعرف أمي أكثر منك.

- كيف تتجرّأ!

- ....

- انظر، بُني: أفترض بأنك بحاجة إلى المزيد من المال. اشترِ ثياباً جديدة واذهب لتتباهى بها في النادي، مع الأولاد الذين يلعبون الركبي. هناك الآلاف من الشابات اللواتي يسعدن بحمل اسمك. أنت فتى جذّاب، ذكي ووضعك جيد. تمتّع، إذا أردت، وأنس هذه الفتاة الرخيصة.

- كلا، هي تحبّني وأنا أحبّها. فتيات النادي يهتممن فقط بهيئة الشاب وبماله.

- ولدي العزيز ألبرتو، اغفر لي هذه الكلمة، أنت تعلم بأني لا أستعمل كلمات سيئة ولكن، أنا قلق من أجلك. أيها الفتى، أظنّك وقعت بيد... عاهرة.

- لا أفهم هذه الكلمة أيضاً.

- لقد قصدت القول بأنها فتاة هوى، أتفهم؟

- أتقصد أن تقول ...

- رجاءً بُني.

- كلا أبي، أنا متأكّد أن مالينا ليست من أولئك.

- إنها لم... تنقل إليك أية عدوى سيئة، صحيح؟

- بالله عليك أبي، ليس لديها حتى رائحة فم كريهة.

5

- نهارك سعيد آنستي، أبي موجود؟
- شكراً.
- مرحباً، أبي؟ اعذرني للاتصال الهاتفي بك في المكتب.
- شكراً، أبي.
- نعم، أريد أن أستشيركَ بأمر.
- هيا، لا تهتمْ. أنت تعلم بأني لستُ مثلهُ.
- طبعاً، الواقع أن ألبرتو في العمر...، أبي!
- لا، ماذا تقول؟
- مالينا؟ كلا، لا أعرفها.
- حسناً، كنت أريد فقط التكلم معكَ عن صديقتي سوليداد، أظن أني قد أخبرتكَ عنها. هي فقيرة لكنها شريفة.
- نعم، منذ أن كنا صغاراً.

لقد قررت أن أكتبَ لكِ هذه الرسالة لأني لا أقوى على قول ذلك وجهاً لوجه. أعلم بأنكِ ستغضبين كثيراً، فيرونيكا، وأنا لا أريد أن تنزعجي مني. لكني لا أستطيع أن أذهبَ للعيش معكِ. لا أستطيع

ترك أمي وحدها في البيت. إن بادر الناس بالكلام عنا، فهذا يخيفني، فيرونيكا. أقول لك ذلك بكل جدّية! لا أدري ماذا أفعل، فيرونيكا!

- شكراً أبي، أردت فقط أن آخذ رأيك قبل إخبارها.

- شكراً.

- كلا، لقد توفي والدها، تعيش وحدها مع أمّها.

- ... أظنها موظفة في أحد المكاتب الحكومية، في محكمة أو ما شابه. هي تتكلم دائماً عن تقاعدها.

- هذا صحيح، هكذا هم الناس.

- ليس لهما أقارب. فقط عم عجوز. يعيش في الخارج.

- كلا، لم أره قط. يأتي أحياناً قليلة لزيارتهما. له بنت عمياء. وسوليداد عرّابتها.

- طبعاً.

- كلا، هو مستأجر. لنقل إنهما فقيرتان، لكنهما عفيفتان.

- آه، هذا رائع! هكذا نستطيع الدراسة معاً في الجامعة.

- هندسة معمارية. كلتا الاثنتين، نعم. هي كانت ترغب في دراسة علم الاجتماع، لكني أقنعتها.

- هذا يُسعدني.

- حسناً، ليس هنالك من مانع إذن أن تأتي.

- ماذا تقول؟

أنت تعلمين بأني أحبّ أيضاً كثيراً عندما نكون مجتمعتين. لكني

أحس بالعار، فيرونيكا! لا أدري ماذا يحدث معي. من المؤكد أني لا أستطيع التركيز. أحس بالشيء ذاته عندما ندرس الأمثولة معاً وأنت تقرأين الكتاب بصوت مرتفع. إني أشرد دائماً. أدري أنك طيبة معي، فيرونيكا، كلكم تعاملونني معاملة جيدة. وأبوك أيضاً، وهو سيدفع تكاليف دراستي. كنت أريد أن أدرس علم الاجتماع، لكن ما دام هو يريد أن أدرس الهندسة المعمارية، فلا بأس. لا أدري كيف أشكر لك كل ذلك. فيرونيكا، لكني لا أستطيع أن أذهب للسكنى معك.

- و... أفترض أنها ستسكن وحدها.
- كلا، ليس لديهما خادمة، ولا أية خدمات أخرى، في الواقع.
- نعم، إنهما من الفقراء، لقد قلت لك ذلك.
- حسناً، أظن بأنها مشكلتها.
- طبعاً.
- من المؤكد أن حظّها جيّد.
- و... لقد خطر ذلك على بالي.
- كلا أبي، أنت تُرافقني كثيراً. لكن سوليداد بمثابة أخت لي، أتفهمني؟
- كلا طبعاً، الدم، لا.
- عمل الخير، نعم.
- مسيحي، بالضبط.
- متى يُناسبك؟

أنا وأمي كنّا دائماً رفيقتين، فيرونيكا، خصوصاً منذ أن توفي والدي. أنت تعلمين بأني أساعدها بترتيب المنزل وغسل الثياب والطبخ. من سيقوم بكل هذا إن أنا تركتها وحدها. ليس بمقدورها استخدام فتاة، راتبها بالكاد يكفينا. بالإضافة إلى بعض النقود التي أستحصلها من هنا وهناك. أنا أرضى بالقليل للعيش. ولا أدري إن كان توقيت ساعات الدراسة في الجامعة سيسمح لي بالعمل. يقولون بأنهم في الجامعة متطلبون جداً. الكل يرغب بأن يكون مهندساً معمارياً أو مدنياً. فيرونيكا، أنا قلقة جداً، أحتاج بأن تفهميني، أتفعلين، حبيبتي؟

- كنت أفكر أن يكون ذلك اليوم.
- لا، إنها تسكن بالقرب من هنا.
- نسبياً، نعم. بإمكانها المجيء بحقيبة، وتأتي بعدها بما يلزم في حينه.
- هراء! خزانتي ضخمة.
- أكيد.
- في الحقيقة، أفضّل أن تأتي هذه الليلة، بصراحة.
- لا صبر لدي، نعم.
- لا أدري لماذا.
- لقد خطر لي ذلك وحسب.
- نعم، أذهب دائماً إلى منزلها.

- لكن هنالك فرق.

- لا أدري...، أعتقد بأننا إن نمنا معاً فسيكون ذلك حميمياً أكثر.

- نعم، كرفيقات، هذا ما كنت أقصد. هكذا نستطيع الدراسة حتى وقت متأخر.

- حسناً، ماذا قلت؟

- لا، أرغب أن تقول لي ذلك الآن.

- إذا أردت، سأذهب للقائك شخصياً.

- حسناً، أعطني إجابتك إذن.

- أعلم، لكني أريد ذلك هذه الليلة.

- ما الذي يثير استغرابك؟

لا أستطيع أبداً نسيان قبلاتِك، فيرونيكا. يبدو لي أنها التصقت بفمي، والناس ينظرون إلي و....، يبدو لي أن أمي انتبهت للأمر أيضاً. هذا الصباح بينما كنا نتناول الفطور، كانت تنظر إلى شفتيّ بطريقة غريبة. ما كان يجب عليكِ أن تعضّيني بقسوة، فيرونيكا.

- لِمَ عليَّ أن أجتهد لأحصل على علامات جيدة ما دمت لا تعطيني أي مُقابل!

- كلا، لا أريد الاتصال بك بعد قليل.

- أنسخ؟ من قال لك ذلك؟

- إنه معتوه!

- نعم.

- الممثلة الأولى.

- ما بها انكليزيتي؟

- آخر الشهر.

- طبعاً حفظته عن ظهر قلب.

- هذا المساء!

- أنا أظن أنكَ أنتَ العنيد.

- كلا، لا أعتذر.

- عنيد!

- لا يهمني، أنا على وشك قول كلمة سيّئة.

- أنا حزينة جداً.

- حسناً، تبّاً، أتسمع، تباً، تباً، تباً، أريد أن تأتي سوليداد للنوم عندي هذه الليلة!

- غداً لا! الليلة!

- سأذهب إلى مكتبكَ وأصرخ تبّاً في وجهكَ بحضور سكرتيرتكَ!

- أسمعك، نعم.

حسناً حبيبتي، هذا كل ما كنت أريد أن أقول لكِ. أنا أيضاً أكاد أموت من الرغبة في الانتقال إلى منزلِك. إن وجودي معك يشعرني بالجنون، فيرونيكا! لكني لا أستطيع أن أترك أمي وحدها. كما أني أحسّ بالعار، كما قلت لك. أخاف أن يعلم الناس بذلك. أنت لا تستطيعين

أن تتصوري كم سأعاني إن عرف الناس بأموري، خصوصاً إن علمت أمي. إنها متوترة جداً من الكتب التي أقرأها، ماركوزي، مارياتغوي، وغيرهما. هنا كتابِ بيرون هذا الذي أعرتك يخيفها. لن تقولَ لي شيئاً، لكني أعلم بأنها ستكون قلقة جداً. إنها تحلم بأن أتزوج فتىً من الكلية الأميركية. أنت تعلمين بأن مثلَها الأعلى هو خالي بانشو، الذي لمع في الولايات المتحدة. أنت لا تعلمين كم يضحّي لاستمرارنا في المدرسة منذ أن توفي والدي. لهذا بدأت أنا بتدبير بعض المال. إنها لا تشتري شيئاً أبداً. جميعه لي. وهناك أيضاً خالي، إنه قاسٍ جداً. إن لم أتزوج سيقتلني. وإن تركت أمي سيقتلني أيضاً. وإن علم...، فيرونيكا، فإنه حتماً سيقتلني!

- لمن؟ لا تحوّر لي الحديث!
- آه، أزواغا. طبعاً أعرفه، هو يدير العمل المسرحي.
- هو قال لنا بأن نناديه باسمه. بالنسبة إلي الأمر سيّان.
- وما أدراني.
- حسناً، كل هذا لا يهمّني، أبي.
- لم يعلّمني أحد أية مفردات.
- أفكار؟
- هو عمل مسرحي، وهذا كل شيء.
- كلا، ولا كلمة واحدة حتى بالإسبانية.

- هو نفسه يُشرف على التدريبات.
- طوطو.
- سأتصل بك عندما أرغب في ذلك.
- لا، لست الصغيرة ولا العسل.
- لا أرغب في رؤيتكَ.
- كلا، لن أنتظركَ على الغداء. سأذهب للغداء مع سوليداد.

حتى تتخذ قرارك.

- سوف ترى.
- لا أفكّر في الذهاب إلى مكتبكَ، أريد إجابتكَ الآن.
- مجنون؟

حسناً، سأنهي هذه الرسالة، فيرونيكا، لأني سأتركها لك مع بيرتا، في منزلك، قبل أن تريني. أنا آسفة جداً، عزيزتي فيرونيكا، لكني لا أريد أن أهجر أمي. لا تظنّي بأن هذه حجّة. صحيح أيضاً أني أحسّ بالعار مما نفعله، وأني أيضاً أحبّ كثيراً أن تكوني حنوناً معي، فيرونيكا، لكني أخاف كثيراً من الناس. إذا ما علم الناس... فأظنّ بأني... سأنتحر. أقول لك بصدق فيرونيكا.

- شكراً أبي.
- وأنا أيضاً أحبكَ كثيراً.
- نعم ستكون سعيدة جداً.
- إلى اللقاء.

لذلك أريد أن أنهي هذه الرسالة، حبيبتي. لأن الساعة قاربت السادسة، وأنا وعدتك أن أكون مع حقيبتي في منزلك عند الساعة السادسة والنصف. ويجب عليّ أن أحرق هذه الرسالة أيضاً، فيرونيكا، ولا أريد أن تشمّ أمي رائحة الورق المحترق. أعلم بأنك لن تقرأي أبداً هذه الرسالة، وأنا لن أقول لك أبداً إني كتبتها. ومع هذا سأضع توقيعي عليها وإن كنت أحمل علبة أعواد الثقاب بيدي اليمنى. فيرونيكا، أنا أحبك. وأنا سعيدة جداً هكذا، فيرونيكا.

6

خرج اللواء غومرسيندو لارّاين بنفسه للقاء الدكتور ايفاريستو ساريّا-كيروغا. من باب دارته رآه يترجّل بهدوء من سيارة الرولز السوداء ويصعد نحو الأدراج الحجرية للشرفة. الفارس المرهف، ذو السحنة المتعبة والمتوترة، حاول أن يخفي بعض القلق خلف لامبالاة وجهه القاتم. أخذه لارّاين كعادته بين ذراعيه بكل حنان. حنى السيد ايفاريستو رأسه قليلاً عندما أحسّ بعبق شراب الغران مارينيه ينبعث من العسكري.

- مرحباً، سيدي العميد، أرجوك أن لا تأخذ عليّ هذا الاتصال في هذه الساعة، أعلم أنها غير مناسبة.

- لهذا يكون الأصدقاء، أترغب في الدردشة في المكتبة؟

حنى الفارس رأسه بالإيجاب. أخذه الرجل البدين برفق من ساعده، كما لو كان مصنوعاً من الخزف، ودخلا إلى المنزل. تجاوزا البهو الضخم المزدان بمرايا مؤطّرة بالذهب وسجادات صُنعت في توليدو، إلى صالون مظلم مزيّن بتفاحات ويقطين مثيرة للإعجاب، وتماثيل لنابوليون ومادوناس من المرمر، والموسوعة البريطانية مغلّفة

بجلد الماعز. ضغط لاّراين على الجرس، ظهر بعدها كبير الخدم، وهو عجوز بمظهر الأموات، وتحت شاربيه الرفيع الساخر ابتسامة خدومة.

- بماذا يرغب الدكتور في الشراب؟ سأل لاّراين.

- حسناً...! أطلق ساريّا-كيروغا ضحكة متوترة. - أظنّ بأنّي سأفاجئك، سيدي العميد. أشك بأني بحاجة إلى شيء قوي.

- لا مشكلة لدي، سأرافقك. ماذا تفضّل؟

- رونّ.

- مع قليل من الكوكا كولا؟

- أنت تفضّل هذا المزيج المخيف الذي يدعونه «كوبا الحرّة»؟ سعل لاّراين مُنزعجاً.

- أظنّ أنهم يسمّونه هكذا.

- لا، شكراً، أفضّله صافياً، مع قليل من الثلج. ربما تسرّني بعض نقاط من الليمون.

- جيد جداً، مفهوم؟ قال لاّراين لكبير الخدم، الذي ردّ بإشارة توقير خفيّة. - اجلب لي الويسكي مع الصودا، والكثير من الثلج. لا، أفضل أن تجلب وعاء الثلج على حدة.

انسحب كبير الخدم جارّاً أذياله كالقط على السجادة الدمشقية. وقف لاّراين وتوجّه نحو منضدة مطلية بالبرونز المذهّب وأخذ منها علبة سجائر من الفضة مرصّعة بأحجار التوباز. فتحها، فعزفت موسيقى معدنية. عرضها أمام صديقه.

- شكراً، لا أدخّن. أومأ ساريّا-كيروغا بكل أدب.

- أعلم بأنك لا تدخّن، أعرضها عليك لأسمعك موسيقاها، أتسمع؟ عندما تُفتح علبة السجائر هذه تعزف لحن لارا. هؤلاء اليابانيون! ليس هناك ما لم يخترعوه، أليس كذلك؟

- هذا صحيح! أجاب الفارس بصوت خافت، وتململ منزعجاً في مقعده من ريش الإوز.

- ماذا قلت؟ زمجر العسكري ولفظ طرف السيجار المونتي كريستو باتجاه وعاء من الكريستال حيث يوجد الكتاب المقدس لغوتينبرغ. لم يسمع جواباً. سحب من جيبه ولاعة كارتر من البلاتين وأشعل سيجاره الكوبي نافثاً الدخان الكثيف. - اليابانيون جديرون بالتقدير، لست أفهم كيف خسروا الحرب!

جلس إلى جانب ساريّا-كيروغا ونظر إليه لبضع ثوانٍ.

- ما رأيك أنت بالحرب، دكتور؟

- كيف؟

- بالحرب العالمية؟

- هذا موضوع واسع، ألا تظن؟

- وما رأيك بهتلر؟

- هتلر!

- تظنه مجنوناً؟

- لا مجال للشك بأن لديه بعض التصرفات... المبالغ فيها.

- أنت تعتقد إذاً أنه كان مُنحرفاً.

- ربما.

- لكنك لا تستطيع أن تتحمّل اليهود.

- حسناً! وابتسم ساريّا-كيروغا. - ربما لا تكون هذه الكلمة الدقيقة. لا أتحمّس للقائهم في طريقي، هذا كل شيء.

- أنت لا تُوافق على الأفران والمحرقة وكل ذلك.

- طبعاً.

- هذا مُثير.

- لماذا؟ نظر إليه الأرستقراطي مدهوشاً.

- أحياناً لا أفهمك، عزيزي الدكتور. على كل حال... وتنهّد. - نحن نعيش في ديمقراطية، أليس كذلك؟

ابتسم ساريّا-كيروغا مرة أخرى، مُشتّت الأفكار. عاد كبير الخدم حاملاً الصينية.

- ضعها على الطاولة! قال لازّاين - أنا سأقوم بالخدمة. عاود المحامي النظر بكل تقدير إلى الخطوات الصامتة لذلك العجوز ببذلته البيضاء. - هناك خطبٌ ما؟

- لا، لا! هزّ ساريّا-كيروغا رأسه. - لفتتني طريقة مشي ذلك الرجل... يكاد لا يُسمع.

- العجوز؟ إنه رجل مسكين! جاء من ألمانيا في الأواخر... هو عندي منذ سنوات. زوجتي لا تتحمله. إنه يهوى إجراء التجارب على

القطط الحوامل. لو أنك ترى ما أجمل القطط التي يستولدها: عين زرقاء وأخرى سوداء. العجوز المسكين مولع بالعلوم. ولكنه، كما تراه، لديه الكثير من الطاقة. بالتأكيد سيُعمّر أكثر منّا...

عقد ساريّا-كيروغا حاجبيه.

- قصدت القول إنه سيعمّر أكثر مني ومن زوجتي، رحمها الله، أضاف لارّاين. سكب كأسين. أما الآخر فتنهّد من التعب.

- وسيعمّر أكثر مني أيضاً، سيدي اللواء، لا تستغرب. تعلم أنّي أعاني من القلب. بهذا تحديداً أودّ التكلّم إليك.

- أنا أسمعك. أصلح لارّاين جلسته على المقعد، وبيده كأسه من ويسكي الجوني ووكر وهو يعضّ بأسنانه على سيجاره.

- كما ترى هذا يتعلّق بوصيتي.

انتفض لارّاين من مقعده كمن مسّه التيار الكهربائي.

- ... إن همومي في تزايد، بعد ظهر هذا اليوم مثلاً، كان لي حديث غير سارٍ أبداً مع ولدي ألبرتو، أتذكره؟ أظنّ أنّي قد ذكرتُه لكَ.

أومأ الرجل البدين برأسه صامتاً دون أن يرفّ له جفن.

- حسناً...، الظاهر أنه أقام علاقة ما... سهلة. قال لي إن الآنسة تبلغ الثمانية عشرة من العمر فقط، لكنها قد تكون كذبت عليه، في الواقع. إنه فتىً ساذج جداً وورومنسي جداً. كان منذ صغره متعلّقاً بوالدته وأخشى بأن مرض زوجتي قد أثّر به كثيراً. وعلى الرغم من ذلك، فإنه كان دائماً فتىً مُطيعاً. باستثناء التمرّد المُلازم لهذا العمر، طبعاً، عمر

الثورة، لكنه لم يسبّب لي مشاكل تُذكر. أما اليوم، على العكس، فإني لحظته متوتّراً نوعاً ما. أفصح لي بأنه يود الزواج بتلك المرأة.

- يا للهول!

- لم أعطِ الأمر أهمية، بالطبع. كل ما في الأمر أن أبي يعطيه الكثير من الحماية.

- إنه رجل موقّر.

- أنت تعرف أبي؟

- إنه فخر الوطن.

- لا، أسألك إن كنت تعرفه معرفة شخصيّة.

- لا.

- حسناً، في حياتنا الخاصة هو هكذا أيضاً. بعد حرب التشاكو لم يقم بأي عمل سوى زراعة زهور الجيرانيوم. يعتني بزهوره ويتحدّث عن الشعر مع ابنتي. لا يتقاضى حتى مُستحقّاته. أيبدو لك ذلك معقولاً؟

- مجد العالم الباطل!

- على كل حال، لحسن الحظ بأن ألبيرتو لا يحمل أيّة... عدوى. غالباً ما تكون فتيات الشارع دون وازع أخلاقي، وهنّ يهملن جانب النظافة الشخصيّة. يُقلقني كثيراً أن يعتاد ألبرتو مثل هذه العادات السيّئة. أريد معرفة المزيد عن تلك الفتاة.

- باستطاعتنا اقتلاع أظفارها في الحال.

- لم يقل لي ألبرتو سوى اسمها مثل... مالينا. أسمعتَ بهذا الاسم؟

- ... أحياناً، نعم.
- لا بدّ أنه اسم عصري. أنا لم أسمعه من قبل. من المؤكّد أن تلك المرأة تخادعه... بالنسبة إلى اسمها وعمرها، وكل ذلك. يجب عليَّ أن أهتمّ بذلك. المهم أن تأخذ في الاعتبار الطابع البوهيمي لشخصية ابني. ما عدا ذلك مجرّد حكاية.
- أفهم.
- ابنتي الأخرى تدعى فيرونيكا. تصغر ألبرتو بعام.
- هي آنسة إذن. أتذكّرها. رشيقة جداً.
- نعم، لا مآخذ لي عليها. هي ناضجة ومسؤولة. لقد تورّطت في تظاهرات الشوارع في حزيران/ يونيو تحت تأثير رفاق السوء، كما تعلم. بالرغم من ذلك، هي فتاة جيدة وكانت دائماً أفضل التلميذات. هي تمضي القليل من الوقت في المنزل، لكنها قد تمضي أوقاتاً أكثر الآن حيث ستأتي للسكن معنا زميلتها في المدرسة. هي من عائلة كالحة نوعاً ما، لكن من دمٍ صافٍ. بحسب ما فهمت منها، إنهما تُخطّطان لدراسة الهندسة المعمارية معاً.
- وهل أنهيا المدرسة؟
- نعم، هذا العام.
- والفتى؟
- أيضاً، في المعهد الأميركي.
- وماذا تُريد أن يُتابع الفتى؟

- أنا لا أتذكّر الآن، لم أسأله بعد. لم يتكلم معي سوى بفكرة الزواج المجنونة... لقد غيّرته تلك القنفذة!

- إنها مشكلة مع هذا الفتى.

- نعم، في الواقع. وارتشف ساريّا كيروغا-قليلاً من شراب الرّون.

- حسناً، دكتور...، وأطفأ لارّاين السيجار، وبدا عليه القلق. بماذا أستطيع أن أخدمك؟

- معك حق، اعذرني، لم أكن واضحاً. كما قلت في البداية، الموضوع هو وصيّتي.

- لكنك ما زلت شاباً للتفكير في هذا!

- لا تظنّن ذلك، لم يعد يشعر أحدنا بقوى العشرين ربيعاً. إن فحوصي الطبّية لا تثير القلق إلى الآن، لكنك تعلم كيف يكون القلب...، ومن ناحية أخرى، يُسعدني أن أتصرّف بحكمة.

- الرجل الحكيم يساوي رجلين.

- جيد، إن سمحت لي، أحبّ أن أتكلّم بالتفاصيل.

- أشكر لك ثقتك بي، دكتور.

- جيّد. إن حالة زوجتي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. ولم يعد هناك أمل أن تقوم بخدمة نفسها. لقد قررتُ إذن توريث أملاكي لولديَّ، حصصاً متساوية. من الطبيعي أيضاً، سيكون هناك مُنَفِّذٌ يقوم بإدارة دخل لائق لزوجتي.

- يبدو لي ذلك حذَراً! لكن أليس ولداك قاصرين بعد؟

- صحيح. لذلك سمحت لنفسي بتسمية وصيّ يهتمّ بهما، وبتربيتهما المسيحية، وحسن الأخلاق، كما يقوم بإدارة أموالهما، وكل ما يلزم. لهذا الشخص خصّصت عشرة بالمائة من التركة، كتعويض على حسن إدارته.

- عشرة بالمائة يعني الكثير من المال.

- أظنّ ذلك عدلاً.

- و... هل فكّرت في مرشّح؟

- نعم سيدي العميد، أرجوك أن تعذرني على الثقة، لأنني تجرّأت على التفكير فيك أنت.

- دكتور!

- أرجوك، لارّاين.

- إنها مسؤولية كبيرة!

- انا مُصرٌّ.

- لا أدري، دكتور... أنت تعلم بأنه من المستحيل عليَّ أن أرفض لك طلباً، لكن، هذا أمر في منتهى الجدية! ولداك، وزوجتك!

- هو احتمال بعيد، لارّاين. يبلغ ألبرتو الثامنة عشرة، وفيرونيكا السابعة عشرة، وهما سيبلغان سن الرشد قريباً... وأنا لا أنتظر الموت غداً.

- معك حق، دكتور.

- أتقبل إذن؟

- يبدو ذلك لي صعباً بعض الشيء، لكنّي أودّ أن أضع شرطاً.

- كما تُريد.

- لا أستطيع قبول العشرة بالمائة، دكتور. لو وقعت مصيبة، أنت تعلم بأن ولديك سيكونان بمثابة أولادي.

- شكراً لارّاين، كنت أعلم أنه بإمكاني الاعتماد عليك.

رفع الرجل البدين كأس الويسكي بلاك لايبل.

- نخب حياة مديدة!

7

- لا أعلم كيف أستطيع أن أشكرك على كل ذلك، سيدتيّ!
- هو سهل، لا تناديني سيدتي، هكذا.
- وكيف سأدعوك؟
- إليزا.
- ماذا تقولين؟ الهاتف هنا يضجّ كثيراً.
- إ-لي-زا.
- إليسا؟
- هكذا!
- ... أريد أن أقول لك شيئاً بعد.
- وما هي المشكلة؟
- إنها... أظنك ستغضبين!
- حسناً مالينا، أنت تعلمين بأني أعيش وعيني على الساعة في يدي، لذلك تكلمي بسرعة.
- الذي يحدث بأني... لست متأكدة من أني أريد الزواج بألبرتو.
- هو شأنكما!

- لكنك ستعلمينني الانكليزية لأنك صديقته...

- أنا لا أقوم بالأعمال من أجل الصداقة. لا أرغب بأن أتفضّل على أحد ولا أن يتفضّل أحدهم عليَّ.

- لكن ألبرتو طلب من الدكتور أزواغا بأن يطلب منك بأن...

- أصغي إليّ: لا يهمني بأن تتزوجي بألبرتو، تباً. لدي الآن وقت لتعليمك الانكليزية، وأرغب في ذلك. عندما ينقصني الوقت أو الرغبة، سأخبرك. انتهزي هذه الفرصة، مالينا، وانسي ما عدا ذلك.

- إذن أنت لن تغضبي إن أنا قطعت علاقتي بألبرتو؟

- هذا لا يُعقل، ما هذه الغباوة! تمتمت إليزا بالانكليزية.

- أقلتُ شيئاً أزعجكِ، إليزا، انت تتكلمين بالانكليزية؟

- لا عزيزتي، لقد تكلمت باللاتينية. ما معناه بأن هذا الموضوع يستفزني.

- ما زلت لا أفهم ماذا تقصدين سيدتي.

- هذا لا يهم، مالينا، معك دفترك؟

- أنت غريبة الأطوار، سيدتي، أقصد إليسا!

- ...

- وأنتِ، ألا تفكرين في الزواج من الدكتور أزواغا؟

- ...

- أما زلت هنا إليسا!

- نعم.

- أنت جميلة جداً إليسا... لقد أخبرني ألبرتو بأنك سمراء وعيناك خضراوان...

- هذا ليس من شأنك، مالينا.

- أنتِ كنت متزوجة من قبل، صحيح؟

- نعم.

- لأنه لديك تلك الصغيرة العمياء... ألبرتو أخبرني.

- ...

- وكيف حصلت عليها؟

- اللعنة، ألا تعلمين كيف يأتي الأولاد؟

- هل الدكتور أزواغا هو والدها؟

- كلا، ألدَيك دفترك؟

- من هو إذن؟

- أنت لا تعرفينه، ولماذا تريدين معرفة ذلك؟

- ولماذا لم تتزوجي بوالد الطفلة، إليسا؟

- نعم، لقد تزوجت، وأنا مازلت متزوجة بوالد الطفلة.

- أنت تحبينه؟

- نعم، أحبه كثيراً.

- أتحبينه أكثر مما تحبين الدكتور أزواغا؟

- طوطو صديقي، وغونتر زوجي. هذان شيئان مختلفان.

- ما اسم زوجك، إليسا؟

- غونتر.

- وما اسم الفتاة؟

- يا إلهي، ألا تظنين أنها أسئلة شخصية؟

- ما اسم الفتاة، إليسا؟

- اللعنة!

- أهكذا اسمها؟

- لا

- ...

- لم أسمعك مالينا، تكلمي بصوت مرتفع.

- كنت أسألك إن كان غونتر متزوجاً بامرأة أخرى؟

- أكاد أفقد أعصابي، مالينا. انتهينا من الأسئلة! أما زال الدفتر معك؟

- نعم.

- حسناً، دوّني اسم كتاب ومعجم عليك شراؤهما، وعنوان شقتي.

- أستطيع أن أسألك سؤالاً أخيراً، إليسا؟

- حسناً، الأخير.

- هل توفي زوجك الأول؟

- وكيف عرفت بأني كنت متزوجة من قبل؟

- ...

- آلو؟
- لا أدري، إليسا. أنت قلت لي... أتوفي؟ أكان طيّاراً؟
- ولماذا عليه أن يكون طيّاراً؟
- إن الطيارين يموتون كثيراً. مثل أولئك الأقربين من جزر المالويناس.
- ...
- لقد قالت لي أمي بأن الطيارين يذهبون بسرعة إلى السماء.
- لا وجود للسماء.
- أنت ملحدة، إليسا؟
- ...
- ألا تؤمنين بشيء؟
- طبعاً، أؤمن بأشياء كثيرة.
- أنت لست... شيوعية؟ أليس كذلك؟
- بالله عليك، مالينا، خذي دفترك، ودعي عنك ذلك.
- نعم سيدتي.
- ممّ تضحكين؟
- ... أرأيت أنك مؤمنة؟ لقد قلتِ «الله».

لقد تعلمنا من بريخت بأن الحالة التقليدية يمكن تغييرها بواسطة تأثيرات غير منتظرة. مثلاً، هل هناك مشهد أكثر تقليدية من ساريّا-

كيروغا في مكتبته، مراجعاً أوراقه وهو يخط وصيته؟ يمكن للقارئ أن يتوقع بأن يخرج حالاً من المنزل ليلعب جولة أخرى من الشطرنج مع لارّاين. حتى ولو ثارت الشخصية فجأة، كما في كوميديا بيراندللو، الذي نسخ بدوره عن أونامونو، وألقت بكل رتابتها في وجهنا، بكل أبعادها، لن تكون تلك مفاجأة كبيرة. سيكون للمشهد نكهة الذي شوهد من قبل. لكن لا، بل ستكون نكهة الحال مع ساريّا-كيروغا كرائحة الحريق. يحاول تمييز الرائحة: لا، ليس في المطبخ، ولا في المرأب، من أين تنبعث رائحة الحريق؟ شيء ما يحترق في الطابق العلوي! زوجته! اجتماع ساحرات آخر؟ الركض، الصعود بخطوات واسعة، قرع باب غرفة النوم الموصد من الداخل، صارخاً.

هذه الحالة الدرامية، مثل كامو الذي يقاتل العربي، تفتح احتمالات لامتناهية. أكثرها وضوحاً هو اشتعال النار في المنزل، ووقوع كارثة رهيبة، وهذه هي الاشارة فقط، القليل من الدخان! والآن، تحطيم الباب والغرفة الغارقة في الدخان في عيني ساريّا-كيروغا. أتنطق زوجته؟ أتراها ماتت، ملفوفة بقميصها الشفاف؟ أتكون قد تركت له رسالة ما؟

تتوسع الاماديس مثل تثاؤب طويل رتيب، بينما تنفجر الدون كيخوت كضحكة متوحشة ضد عذرية ماريا ومحاكم تفتيش فيليب الثاني. هناك شيء لا يمتّ إلى البرجوازية بصلة في اقتراب ساريّا-كيروغا مرتعداً من فراش زوجته. يحاول تبديد الدخان ويتحسّس جسد

زوجته، يهزّها. يتملّكه الرعب! الذعر في تلك العيون هو الحقيقة كلها.

تمسك يد ساريّا-كيروغا المرتجفة بمقبض ذلك السكين المغروس بوحشيّة في قلب زوجته، ذلك المقبض الساخن أو النابض، لا فرق بين الكلمات، ساخناً كان أو نابضاً. لا يهم كثيراً إن استطاع الشاعر كتابة الأبيات الأكثر حزناً هذه الليلة أو إن ادّعى الكاتب أنه يستطيع كتابة الأبيات الأكثر حزناً هذه الليلة. المهم الآن... المجرم ما زال في الغرفة! المهم أنه في هذا الدخان الأسود النتن هناك بؤبؤا قطٍ يترصّد، يقيس ساريّا-كيروغا، يترصده، يقيس حركاته، يحاصره...

عينا ساريّا-كيروغا هي الآن عينا القارئ، وسمعه والرائحة التي يشتمها هي الرائحة التي يشمها القارئ، كما في الحالات القصوى عند همنغواي، حيث الدخان هو دخان أكثر، والخطر عمودي أكثر، والقُبلة ثمرة خوخ ناضجة. عينا ساريّا-كيروغا القلقة، التي لم تكن أقرب إلى الحياة يوماً منها الآن، يغشاهما الدخان، والشخص المنتفض في السرير، يشاهد قبس الضوء المحتضر ما وراء ستارة اللهب الكثيف، سترة الكاردين ذات المربعات الخضراء الكبيرة التي تتجه نحوه، وسكين آخر يلوح بين المخالب في الظلام... وشحوب الشخص الذي يرتجف على حافة الموت دون أمل آخر سوى الأمل العقيم بأن لا يكون اليوم هو اليوم الذي تقرأ فيه أنت أو أكون أنا قد كتبت هذا الفصل من الكتاب بعد...

لقد سببت الوفاة المأسوية للدكتور ايفاريستو ساريّا-كيروغا

والسيدة زوجته التي حدثت فجر اليوم في عاصمة المقاطعة، الذعر العميق لجموع المواطنين، وهو الرئيس السابق للجمعية الريفية وللمحكمة العليا في المقاطعة. كان الفقيد اللامع أبرز الوجوه لإحدى أكثر العائلات تميّزاً في مجتمعنا، وهو ابن الجنرال اللامع السيد الهاندرينو ساريّا-كيروغا، البطل المبدع في الدفاع عن التشاكو في الباراغواي عندما نادى نفير المعركة في البلد الشقيق إلى التنافس الملحمي للرجال. كان الفقيد المأسوف عليه قد ترأّس العديد من الجمعيات الخيرية والاتحادات الرياضية. خسارته التي لا تُعوّض تلف بالحداد أيضاً هذه النشرة التي نالت شرف الاعتماد على قلمه الموزون كمحام فقيه، وكاتب الافتتاحيات العادل وأب العائلة المحبوب. إن ملحقات الأخبار لن تكون ذاتها بعد اليوم دون أناقة أسلوبه، وهيبة توقيعه وحسن تقدير آرائه.

مبيع وشراء العملات والشيكات والحوالات والنقود الذهبية وكل أنواع الخدمات في الخارج ومعلومات عن سعر صرف اليوم للدولار والشيكات والمارك الألماني وبيسو الأوروغواي وكروزيرو الغواراني والليرة الاسترلينية والفرنك الفرنسي والفرنك السويسري والبيزيتا والليرة والين والسول البيروفي، الأمر القضائي في الساعة العاشرة في مكتبي في الشارع في هذه العاصمة بأمر من قاضي المحكمة الابتدائية في القضاء المدني الدور الأول عرض للبيع بالمزاد العلني دون تحديد السعر الأدنى سيارة ماركة نوع موديل محرك هيكل مسجلة في السجل

العام للملكية كسيارة تسلسل في الملف والمصاريف المتوجبة للمزاد على عاتق المشتري ودفعة على الحساب عشرة بالمائة في الحال نقداً وعمولة بنسبة أربعة بالمائة انتباه السيارة موجودة في مرأب الشركة تحت تصرف المهتمين الدلّال والسكرتير.

في هذه الصورة يمكن ملاحظة الضرر الذي سبّبته النيران في البناء الصلب لدارة آل ساريّا-كيروغا، التي تعتبر تحفة هندسية في كورينتس. إن مصورنا بمهنيته العالية وخبرته التصويرية، استطاع بواسطة عدساته المقرّبة اليابانية أخذ هذه اللقطات المؤثّرة للحريق، وهو الحدث الذي ما زال يثير وجدان الرأي العام إلى اليوم، وخيرة أهل الشمال الشرقي، الذين تمتّع في وسطهم المطعونان بالسمعة الطيبة والتعاطف بخدماتهما الوطنية البارزة.

وفي المحال و"الصيدليات المناوبة، شكراً للروح القدس على الخدمات المسداة، وزوجان بمظهر جيد يعرضان الاعتناء بمنزل، ومحامي شؤون إدارية وضرائب مدنية تجارية إخلاء وطلاق وحل شركات تحصيل أوراق وراثة جهود خارج نطاق القضاء ودعوة الدائنين تصفية وافتتاح المزيد من أعمال التقدم والتبليغات القضائية. مصبغة تنظيف على الناشف وكي على البخار خدمات للمنازل نظافة ناصعة لأطقم الحمامات البيضاء والملونة، أنابيب وصهاريج وأغطية وقطع مطلية وبلاستيكية أنابيب وبلاط وعلب الاسعافات. مسامير من كل الحجوم. لا للبدانة هو شعارنا كعك وخبز محلّى بالحليب وحلوى

جوز الهند مجموعة من الطيبات الشهية تشكيلة من المعجنات الجافة وبالزبدة الفاخرة والخبز المحلّى تذوّق المنتجات العائلية الخاصة والفاخرة والفريدة بطعم سويسري وبمواد اولية اوروبية بالجودة التقليدية بلا منازع، تمديد حظر التجوال.

لتوفير المزيد من المعلومات لقرائنا اجتمعنا مع المفتش روبرتو أمادور سومايا، الذي حضر بنفسه إلى مكان الكارثة بعد ساعات من نشوب الحريق. بترحيبه المعتاد بالصحافة المسموعة، المقروءة أو المتلفزة، أعلن الضابط الكبير، حسب الدلائل الاجرائية التي رفعها موظفو الأمن العام، أنه لا مجال للشك في سبب الوفاة. لقد فسّر المفتش أنه من المعروف للعامة بأن السيدة ساريّا-كيروغا كانت تعاني منذ زمن اختلالاً عقلياً خطيراً، ويبدو أنها تحت تأثير أزمة عاطفية كبيرة قد أقفلت عليها وعلى زوجها الباب هذا الفجر، وطعنت زوجها ومن ثم قامت بطعن نفسها بعد أن أضرمت النار في الغرفة مما تسبب بالحريق الذي دمّر الجناح الشمالي للقصر الفلورنتيني، والذي كان قد أتى على كامل البناء لولا تدخّل رجال الاطفاء الشجعان في الوقت المناسب، عند وصولهم بعد ساعات من بدء عرض الألعاب النارية للقدر المحتوم.

- آنستي، يتوجب عليك مرافقتي للتعرف إلى الجثث، وتقبّلي مني التعازي. قال المفتّش روبرتو أمادور سومايا.

- حسناً! قالت فيرونيكا، التي لم تكن قد ذرفت دمعة واحدة، والتي لن تبكي حتى بعد وقت طويل، حتى اختلائها مع سوليداد في غرفتها.

- الشيء الوحيد الذي يؤسفني أن تبقى على الرصيف كل هذه القطع والخزائن الفاخرة. هناك العديد من الفضوليين وأصحاب الأيادي الطويلة.

- هذا لا يهم، أيها المفتّش.

- ماذا قلتِ؟

- أنا سأهتم بكل شيء، هذه مسؤوليتي الآن.

أحسّت سوليداد بيد فيرونيكا تقبض على يدها بمنتهى العنف الناعم وتغرس أظفارها فيها حتى تجعلها تتأوّه.

8

حسناً! قال لارّاين مُتنهّداً، رافعاً ذراعيه الضخمتين المكسوتين بالشعر فوق المكتب الفاخر. - لقد ترك لي والدك كل شيء، شرط أن أحافظ عليكما على الطريق المستقيم. عليك إذن أن تعاملني كما يجب أيها الشاب، أفهمت؟

كان ألبرتو جالساً على الطرف الآخر لهذه الطاولة الرائعة من خشب الأبنوس، راح يتأمّل تلك البطن المنتفخة المبتذلة، وذلك الجلد الأدكن السميك، والرقبة المستديرة كرقبة الخنزير، واللؤم المتوحّش في ذلك الفم، والطقوس المدهونة لذلك المهرّج، وتلك الشفة المصابة المجنونة والتقرحات المرعبة على زواياها الأرنبية، وذلك الأنف المنحرف النتن، المرير، الذي تفوح منه أوبئة قبور الجيف المهجورة، وترتع فيه فئران المجاري النافقة، ويسيل البراز الممزوج بالدماء، وفي تلك التشنّجات الرهيبة التي لا تمتّ إلى الانسانية بصلة، حيث ترغي وتزبد الجهالة والبشاعة الوحشية والشهوة والطمع.

تأمّلَ ذلك الذقن الأجرب الضفدعي الدهني، الثقوب المُقزّزة، ودمامل الحظ السيىء المخدوشة والقشور المتقيحة. تخيّل أنياب

الفقمة تلك، الفاسدة المسوسة، ومخالب عقبان الكازينوهات، والتنين المُصاب بداء السيلان، هذا العسكري القاتل، عميد من ورق، والمملوك الوضيع. كرِهَ ذينك الشاربين الجبانين، لذلك اللوطي الزاني الفاسق الأخرق، وتينك الشفتين المُتراخيتين المتورّمتين الزرقاوين اللتين يسيل منهما لعاب بيوت الدعارة، وذلك الشخير الشهواني الماجن كما في المسالخ، وتلك العيون الغائرة الحمراء، وقسوة الجفون المُخاطية المختبئة، والكراهية الحيوانية لتلك النظرة، نظرة الشيخوخة الخرفة الشهوانية، وجمرة السطو والنهب في دموعه العجوز.

- لدي انطباع بأنك لا تصغي إليّ يا بُني. يبدو أنك لا تفهم بأني الوصي عليك الآن.

9

- كان ألبرتو يكره عبارة الوصي. قالت لي إليزا، التي كانت قد طلبت طبقاً آخر من السمك النيئ البارد، ومن حين لآخر كانت تضع شوكتها في صحن ايلفا ماسياس. - كان يكره هذه العبارة منذ صغره، لأن والده الذي كان يعيش وقتئذ في المزرعة، كان قد تركه تلميذاً في المدرسة تحت وصاية مارسلين. كنت حاضرة تلك الليلة، بعد الدفن، عندما روى ذلك لسوليداد. لم يعد يناديها مالينا.

إذن، لقد قتلتُ الأب مارسلين. أقسمُ للكِ، سوليداد. نحن تلامذة المدرسة الداخلية كنا دائماً تُعساء. كنا نخرج فقط أيام الآحاد. كان يأتي أقارب بعض التلامذة ليأخذوهم إلى حديقة الحيوانات أو إلى السينما الصباحية. كانت تأتي برتا لتأخذني إلى القداس ولأتكلّم مع أبي عبر الراديو لأخبره بمجموع علاماتي.

كنا ننام جميعاً في غرفة كبيرة فيها عشرون سريراً. كانت أسرّةً قديمة من الحديد، والمطّاط فيها مضى عليه زمن. كنا نستيقظ باكراً بسبب وجود حمام واحد. كان نصف التلامذة موجودين هنا لأن آباءنا كانوا يدفعون مقابل إيوائنا وإطعامنا. التلامذة الآخرون كانوا لا يدفعون

لأنهم فقراء ولأنهم قالوا للكهنة بأنهم يريدون أن يصبحوا كهنة. لكنّا كنّا نلعب معاً.

بعد انتهاء الحصة الدراسية، كنا نحن المقيمين نصعد لنأكل، وغير المقيمين يذهبون إلى بيوتهم. كانت غرفة الطعام أيضاً غرفة كبيرة جداً، حيث كنا نشعر بالبرد الشديد في الشتاء. وبدلاً من الأسرّة الحديد كان يوجد طاولتان طويلتان من الخشب. على إحدى الطاولتين كان يأكل الكهنة، وعلى الأخرى كان يأكل الطلاب، والأب مارسلين كان يجلس على رأس الطاولة ليحرص على ألّا تتطاير العظام وفتات الخبز. كان الأب مارسلين حارساً غيوراً ولا يسمح لنا بالتفوّه بكلمات نابية، ولا حتى كلمة أف. كان علينا انتقاء كلماتنا. وإن عصيناه، كان يلوي أصابع يدنا بشدّة حيث لا نستطيع كتابة واجباتنا أو كان يقرصنا في خدودنا. أيام السبت لم يكن يقرص وجوهنا حتى لا يرى أقاربنا والموكلون بنا الاحمرار في اليوم التالي. كان الأب مارسلين أكثر قسوة مع التلامذة الذين لا يدفعون. كان يقول بأن عليه أن يعلّمهم ليصبحوا قدّيسين وأن يقوموا بالكفّارة إن أرادوا أن يصبحوا كهنة. كان يأمرهم بوضع الحصى في أحذيتهم بينما يسكبون له الماء الساخن ليشرب المتّي، ممسكين إبريق المياه الغالية بيدهم اليسرى، كان ذلك مؤلماً جداً. وكان يوقظهم عند الفجر للصلاة.

كان أحياناً يقفل على نفسه مع أحد التلاميذ لساعات. كان يخرج التلميذ بعدها باكياً ولم يروِ أحدهم قط ماذا كانا يفعلان. كان لدي فضول كبير لأعرف ماذا كانت تحوي غرفة الأب مارسلين.

قلت له في أحد الايام بأني أنوي الاعتراف. سُرّ بذلك وأخذني إلى غرفته. أقفل الباب وبقينا بمفردنا في داخلها. كانت الغرفة ضيّقة ومستطيلة، كالأب مارسلين، وتفوح منها رائحة بول القطط. كان هناك سريرٌ واحدٌ، وفوقه ناموسيّة بالية، وطاولة وكرسي واحد. على الطاولة عدة كتب وصليب. لم يطلب مني بأن أقوم بتلاوة فعل الندامة. جلسنا معاً على السرير وأسندنا الظهر إلى الحائط وسألني كثيراً عن أبي وعن أمي. تكلمنا. أخرج بعدها ألبوم صور من تحت فراشه. كانت بعض الصور قديمة ضاربة إلى الصفرة. كان الأب مارسلين يظهر في بعض الصور أكثر شباباً، كان في بلاد الباسك الفرنسية، مع أبويه وأولاد آخرين هم إخوته. وأطلعني أيضاً على صور يوم تكريسه كاهناً. قال إن ذلك اليوم كان أسعد أيام حياته، لكنه كان يبدو في الصور رصيناً. بعدها أعطاني ورقة، تملّكني الرعب. كان هناك أبوا مارسلين، كأنهما توأمان، بلباس الكهنة جالسين على درج حلزوني ويبتسمان لأول مرة. داعب الأب مارسلين فخذي بيده الساخنة وقال لي بأن لا أجزع. هذا الذي في الصورة هو أخوه التوأم، وهو أيضاً كاهن، والحمد لله.

تنهّدت أنا وأحسست بيد مارسلين الدافئة في الجهة الداخلية من فخذي، وقلت له بأن عليَّ الذهاب لدخول الحمّام، ولم يكن ذلك صحيحاً. حينئذ أعاد ألبوم الصور إلى مكانه تحت الفراش ورفع قفل الباب. ركضت أنا إلى الحمّام، أقفلت الباب وبدأت بالبكاء.

في اليوم التالي ذهبنا إلى الحقل المجاور.

على بعد أمتار من المدرسة، كان هناك حقل كبير حيث كانوا يرسلوننا لممارسة الرياضة وللعب الكرة حتى لا تتكون لدينا الأفكار السيئة. كنا نذهب في طابور، على رأسنا أحد التلامذة الفقراء، كان أعلمهم بالدِّين، وكان يحمل صفّارة وكرة. كان يقوم بإجهادنا لبعض الوقت ومن ثم يوزّعنا للعب. كانت التشكيلات تضم ستة طلاب، وحيث كان من المستحيل أن نلعب جميعنا، فكنّا نتناوب على اللعب، وإن كان المقرّبون من الرئيس يلعبون كل الوقت. الذين لم يأتِ دورهم للّعب، كنا نشاهد الآخرين يلعبون، كانوا يثيرون الغبار الكثيف لأن الملعب لا عشب فيه، وإن كان بإمكاننا المشي في الجوار، لكنه كان ممنوعاً علينا عبور الشارع.

كنت أرغب في المشي على رصيف الملعب. في الجانب الآخر كان هناك منزل أبوابه مغلقة دائماً، كان يُقال بأنه مسكون بالأرواح. لكن التلاميذ الأكبر عمراً كانوا يدخلونه دائماً لقضاء حاجتهم ولم يصادفهم أي شبح. وعلى الجانب الآخر كان هناك بيتٌ من الخشب حيث كانت إحدى العجائز تبيع السكاكر والمرطبات. كانت تبيع أيضاً الفطائر لكنّي لم أجرّبها يوماً لأن برتا كانت تقول بأنهم يعجنونها بأقدامهم ولأنها كانت تسبب أوجاع البطن. غالباً ما كنت أتكلم مع العجوز، وكانت وحيدة وطيّبة، لقد توفي ولدها الوحيد. كانت أحياناً تعطيني بعض سكاكر الحليب مع صور للاعبي الكرة المشهورين. كانت للسيدة بضع أسنان، كانت تصطكّ عندما تتكلم. كانت تروي لي اشياء كثيرة، كما كانت تبيت في الخلف.

ذات ظهيرة، جلبت لي من خزانتها فستاناً قديماً مطوياً بعناية، قالت بأنها ارتدته في احتفال راقص عندما اختاروها ملكة جمال الاحتفال. أرادت إهداء هذا الفستان لي لعروسي، وقالت بأنه سيجلب لي الحظ. شرحت لها بأن لا عروس لي لأني ما زلت تلميذاً. كانت تهزّ رأسها وتقول بأن أفضل العرسان هم التلاميذ الذين ينامون في المدرسة، والبحّارة والتعساء. عندها وعدتها بأني سأعود لإحضار الفستان عندما أحظى بعروس. وعدتني بأن تحافظ عليه مطوياً بالعناية نفسها وأن تضع في الخزانة الكثير من حبّات النفتالين وأوراق النعناع والشبت. كانت تبيع أيضاً الأعشاب الطبية التي تشفي من الأمراض وتصنع العجائب.

لقد خِفتُ كثيراً إحدى المرّات. لقد عرضت عليَّ قارورة كبيرة من الزجاج في داخلها ثعابين كثيرة، قالت لي بأنها أفاعٍ سامّة، لكنها قد روّضتها لكثرة ما تكلّمت معها. من سُمّها كانت تستخرج الكثير من الأدوية وأفضلها. عندئذ طلبت منها أن تهدي إلي إحدى تلك الأفاعي، وضعتها في زجاجة وقالت لي بأن آخذ حذري جداً. وأنا وعدتها بأن أحتفظ بها تحت سريري لكي تجلب لي الحظ.

في كثير من الليالي كنت أنهض من فراشي لأذهب إلى الحمام. وكان الأب مارسلين الذي يتمشّى في الممرات حاملاً كتاب الأدعية يسألني لماذا لا أبول قبل أن أنام. كنت أقول له بأني أعاني الاسهال بعد أكل فاكهة الجوّافة الخضراء. حتى أنه اعتاد رؤيتي مستيقظاً في الليالي

ولم يعد يعيرني انتباهاً. كنت أنهض دائماً وزجاجة الأفعى في جيب بيجامتي.

في إحدى الليالي، أخيراً، وأنا عائد من الحمام، وجدت باب غرفة الأب مارسلين مفتوحاً. لم يكن هناك أحد. دخلت سريعاً وألقيت بالأفعى السامة بين أغطية السرير. وعدت بعدها للنوم.

في اليوم التالي، لم يأتِ الأب مارسلين للفطور معنا، قال لنا الكهنة بأنه أصبح مريضاً، لم نقل شيئاً، ولكننا جميعاً كنا نتمنى أن يموت.

جاءت برتا لتأخذني وقت الظهر، كان يومها الأحد. أخذتني إلى السينما لمشاهدة روبن هود والسهم الدامي. ذهبنا بعدها إلى منزل جدتي أرنستينا، التي قدمت لي طبقاً شهياً، وجدي الهاندرينو الذي كان يتابع النشرة الاخبارية قال بأن الحالة ستسوء وتغدو جحيماً، إن لم يستقل كامبورا.

يوم الاثنين، باكراً كعادتها، رافقتني برتا إلى المدرسة، كما كل أيام الاثنين. كنا نتثاءب في الصف وكان الأب مارسلين يلوي أصابع التلاميذ الذين يتثاءبون. سمعنا يومها أيضاً طقة إصبع تلميذ مسكين.

أنا كنت أشعر بالسعادة، وإن لم يعلم أحد بأن الأب مارسلين قد مات، وأن الذي يقوم بدور مارسلين الآن إنما هو شقيقه التوأم، وأن الكهنة أتوا به كي لا نشعر نحن. بعدئذ عاد أبي وأمي مع فيرونيكا من المزرعة للعيش معي. قال أبي بأنه يتوجب عليَّ أن أدرس كثيراً لأصبح محامياً مثله وأن أكون مفيداً للمجتمع.

10

- لكن، أيعقل أنك لا تفهمني، ألبرتو؟ ألم تقرأ قط رواية بوليسية؟ قالت فيرونيكا وهي تلوّح بيديها، على السرير. كلاهما كانا يتمددان عاريين على الشراشف الحريرية، برفقة سوليداد، بعد ممارسة الجنس. كانوا يدخنون لفافة رفيعة من القنّب الهندي شارفت الانتهاء بجمرة حزينة كأمسيات كانون الأول/ ديسمبر.

- من المؤكد بأن لارّاين هو المستفيد الأكبر من موت العجوز! قال ألبرتو - لكن الغريب أن يكون والدي قد ترك له كل شيء. كان دائماً يذكر العساكر بالسوء. لقد صاحب لارّاين ليكون له رفيقاً بلعب الشطرنج.

- لا تعتقد ذلك! قالت فيرونيكا. - كان العجوز محامياً لكثير من العسكر، وكان يذكر بالسوء روساس وبيرون وأمثالهما، ولم يذكره قط كغوريلا بعينه. كان يتشارك معهما في كثير من الشركات المساهمة. كان لارّاين محط ثقته. زد على ذلك، لو أن لارّاين قتله، كان بإمكانه إحراق الوصية واستبدالها بأخرى مُزوّرة، مكتوبة بما يناسبه.

- لا أدري لماذا، لكن ينتابني شعور بأن لارّاين رجل جبان! قال

ألبرتو، مقترباً بخده الأيسر نحو شعيرات بطن سوليداد، التي باعدت بين رجليها قليلاً ليستقر رأسه بارتياح أكثر. - لا يمكنني أن أتصوره يطعن شخصين! كان والدي رجلاً قوياً.

- هذا هراء، لم يكن عليه طعنهما! قالت فيرونيكا. - قد يكون قتلهما بإطلاق النار عليهما. إن الجثتين كانتا متفحّمتين، والشرطة لم تسمح بالتشريح.

- لكن المونسنيور كاسيريس طالب بذلك أمام القاضي! قالت سوليداد، وهي تداعب شعر الفتى الأشقر

- هذا واضح! قالت فيرونيكا. - من الممكن أن يكون القاضي هو من كتب الوصية الكاذبة للارّاين، يمكن شراؤهم جميعاً. وأكثر من ذلك، ألم تقولي بأن لارّاين هو مالك بيت الدعارة؟

- نعم! قالت سوليداد. - لقد رأيته عدة مرات. هو من قال لي بأن اسمي هناك سيكون مالينا، لأنه لم يكن بإمكان أي فتاة أن تستعمل اسمها الحقيقي. حتى أني تجادلت معه مرة لأنه أراد إجباري على عقد بالفم المغلق. وكما أني كنت أذهب أيام الاثنين والأربعاء والجمعة، كان لدي الحق بعقدٍ بالفم المغلق. هو يملك سلسلة بيوت الدعارة، حسب أقوال السيدة.

- أرأيت؟ قالت فيرونيكا لألبرتو. - وهي تعطيه لفافة الحشيش.

- لم يكن عليه حتى قتلهما بنفسه. كان يمكنه إرسال أحد القتلة، أو أحد قواديه. كان يكفيه ذلك.

- كم هذا جميل هنا... تمتم ألبرتو، وهو يبتسم لسوليداد، التي حبست رأسه بلطف بين فخذيها؛ أخذ قضيب الفتى بالانتصاب، وأخذ هو غطاء السرير لإخفائه بكل خجل. نهضت فيرونيكا وسكبت مزيداً من البيرة في قدح وقدمته للآخرين. وعادت بعدها للجلوس على حافة السرير وأسندت ظهرها وتجرّعت بقية البيرة من الزجاجة الدكناء. مال ألبرتو على سوليداد وقبّلها في فمها لوقت طويل. ركلته فيرونيكا على جانب مؤخرته.

- هيا! ... لا تبدآ من جديد... إن كان لا بد من ذلك فأنا رأيتها أولاً. قالت فيرونيكا ممازحة. تباعد ألبرتو وسوليداد وجلسا مسندين ظهريهما على غرار وضعية فيرونيكا.

- أنا أيضاً أعتقد بأن لارّاين قتل أو أوكل بقتل الاثنين! قالت سوليداد.

- بدون شك هناك الكثير من الفوائد التي سيجنيها.

كانوا يدخّنون بصمت لبعض الوقت، وفيرونيكا تتمايل متوترة. نهضت من جديد، وفتحت زجاجة أخرى من البيرة. وألقت بنفسها على الكنبة، واجترعتها دفعة واحدة. تأمل ألبرتو وسوليداد بصمت رقبتها الطويلة الجميلة وهي تتصبب عرقاً بينما تبتلع البيرة دون توقف. ألقت بعدها فيرونيكا الزجاجة الفارغة باتجاه مُلصق لروبرت ريدفورد. نهضت من جديد وراحت تمشي في الغرفة والهموم على محياها. على الكنبة، ظهرت تقاسيم ظهرها ومؤخرتها، طَبَعَها العرق على القماش المخملي الزهري.

- يجب علينا تصفية لارّايـن! قالت فيرونيكا فجأة. ضحك ألبرتو.

- أنت معتوهة! لا بد أنه يحيط نفسه بالآلاف من المرافقين، ونحن ليس لدينا حتى سلاح!

- لا تكن كالمخنّث! قالت فيرونيكا. - أنا أحتفظ في خزانتي بالمدرسة بمسدس العجوز، الذي أهداه إليه الجدّ في عيد الميلاد. لن يشكَّ بك أنتَ أبداً. تدخل إلى منزله، تتكلم معه لبعض الوقت، تنتظر حتى تبقيا على انفراد، وتطلق عليه رصاصتين.

- يا لهذه الفكرة الرائعة! قال ألبرتو ساخراً.

- أنتَ قلت بأنك قمت بتصفية الأب مارسلين عندما كنت صغيراً! قالت سوليداد.

كانوا يستمتعون بالنوم معاً، هكذا يمكنهم التحدّث حتى ساعة متقدمة من الليل. كانوا يمارسون الجنس قبل أن يغسلوا أسنانهم. كانت سوليداد شديدة الحياء في السرير كما هي خارجه، وكانت تقبل كل شيء لأجل إرضائهما. لم يكن ألبرتو وفيرونيكا يتلامسان قطّ. كانت سوليداد تردد على سبيل المزاح بأنها تفضّل لو أن لديها عشيقاً واحداً: فيرونيكا في جسد ألبرتو. وذلك ليس لأني لا أستمتع مع النساء، كانت تقول ضاحكة، لكني أستمتع أكثر مع الرجال المخنثين. لكن أفضل ما في ذلك لم يكن الجنس، ولا البيرة ولا الدخان. أفضل من ذلك كان الشعور بأنهم معاً، يقصّون أشياء عن الطفولة، ويستمعون بعضهم

لبعض. لمرة واحدة في حياتها، تحدثت سوليداد عن تلك الايام القليلة مع والدها، الحلّاق المتوفى، أمبيليو سانابريا.

كان والدي شخصاً جيداً. إحدى الجرائد كتبت بأنه كان شيوعياً. هذا ليس صحيحاً. أقدم ذكرياتي عنه هي في كورينتس، حيث ولدت وعشت كل حياتي تقريباً، هي ذكريات مشوشة، كنت صغيرة وقتئذ. لم أكن أذهب إلى دار الحضانة بعد. كنا نسكن في منزل أعارنا إياه خالي بانشو، ليس ببعيد عن وسط المدينة. كانت أمي تعتني كثيراً بالحديقة، كانت صغيرة لكنها مليئة بالأزهار. عندما كانت تعود من المكتب حيث كانت تعمل سكرتيرة، كنت أساعدها على الاعتناء بالحديقة. كانت مليئة بزهور الخبيزة على أنواعها. كان حلم والدتي أن توكل ببناء ممرّ في الجهة المقابلة يوماً ما.

كان المنزل قريباً من صالون الحلاقة حيث يعمل أبي. كان يعود أحيانا برفقة بعض الحلاقين، ويبقون لساعات يتحدثون ويسمعون الأسطوانات. كان أبي يحب الموسيقى كثيراً. اعتدنا استقبال الكثير من الأصدقاء أيام السبت. كانوا يعزفون القيثارة ويغنّون ويبقون حتى وقت متأخر. كان يحب المسرح أيضاً. كانوا يعدّون عملاً مرتين أو ثلاثاً في السنة الواحدة، مع الأشعار أو الموسيقى، حيث كان يعمل عدة أصدقاء، وأحياناً بعض الحلاقين. أحياناً كانوا يذهبون إلى الريف لتقديم العمل. كانوا يعرضونه أيضاً في الجامعة، حيث يدرس أبي وأصدقاؤه ليلاً.

لا أدري لماذا قالت عنهم الجريدة بأنهم كانوا جميعاً سيئين. الرجال السيئون لا يحبون الموسيقى، ولا عزف القيثارة ولا عمل المسرح. إنهم يحبون أن يتعذب الناس.

كورينتس مدينة صغيرة، الجو فيها حار جداً والناس يتكلمون الاسبانية. على الراغبين في تكلّم الانكليزية أن يتعلموها في القنصلية، لأن كل شيء كان بالإسبانية، حتى الرسوم المتحركة على التلفاز. حتى أهل الكهوف للصغار يتكلمون الاسبانية. والكثير من الناس يتكلمون الغوارانية أيضاً، لكننا لم نكن نفهم الكثير منها. لم يكن أبي يُجيد التكلم بالإنكليزية ولا بالغورانية. كان يحاول التحدث بالقليل من الفرنسية، وكانت أمي تسخر منه لذلك. كانت تمرّ بالقرب من المنزل حافلات كهربائية كثيرة الضجيج وقديمة جداً، بالقرب من الكنيسة، وأحياناً كانت الأسلاك الكهربائية تتشابك مع أغصان أشجار اللاباتشو الحمراء على زاوية الطريق. تحت شمس الظهيرة الساطعة، كانت الشرارات تبدو كأنها البرق الذي يلمع في رأس الله فوق المذبح الأكبر.

كان هناك أيضاً سوق. كنا نذهب أيام السبت باكراً مع والدي لشراء أفضل اللحوم لمشاوي تلك الليلة. كنا نشاهد تلك العربات الخشبية، تشدّها البغال، مليئة بالبطاطا والخس والملفوف والجزر والمانديوكا. كنت أتصبب عرقاً، لأننا كنا نتنقل بين البسطات لاختيار البصل الأكثر حلاوة والبندورة الأفضل للسلطة. وفي بعض المرات،

كنا نذهب الى أحد المتاجر الكبيرة، هناك كان الهواء مُكيّفاً، لكن المأكولات لم تكن أكثر اتساخاً ولا عطراً. في ذلك الوقت كانت لدينا سيارة، كان أبي يركنها دائماً على منحدر لتسهل عليه إدارة محركها. بعد شراء اللحوم والخضار، كنا نذهب لشراء الويسكي من متجر في المرفأ، كان يُسمّى باسم رائد فضاء. كانت السيارة تستهلك الكثير من الوقود، لأنها قديمة. كان سعر الوقود مرتفعاً. كان أبي يقول بأن ما ندفعه كثمن للوقود يذهب إلى الرئيس، وما ندفعه في الوقود المهرّب يذهب إلى معاوني الرئيس.

لم نكن نقضي كل العام في كورينتس، في إجازة والدي كنا نذهب إلى بوينس أيرس، إلى منزل جدتي. كان أبي يشتري هناك العديد من الأسطوانات والكتب، كل ليلة تقريباً كان أبي وأمي يذهبان إلى المسرح، وإلى السينما ومهرجانات الموسيقى، وكنت أبقى مع جدتي لمشاهدة التلفاز. كان أبي صديقاً لمرسيدس سوسا، وهي مغنّية. أتت ذات يوم مع زوجها بوشو إلى منزلنا، وأهدت إلي بالوناً مع الغاز وحلويات من سانتافي وأطلعتْ أبي على قصاصة كتبها صديق لها. كانت الأحرف غريبة، ربما لأن السيد يوناني، وقد كتب عليها موسيقى لفيلم مشهور جداً، اسمه زوربا. يبدو أن زوربا هذا كان شيوعياً. جدتي كانت من آفيلا، وكانت تقول بأن الشيوعيين الحمر كانوا جاحدين، ولكن فرانكو كان أسوأ. كانت مرسيدس تضحك، وتبدو كأنها تغني. وكانت تقول أيضاً بأن اسمي يعجبها، سوليداد.

في بوينس أيرس لم يكن لدينا سيارة، وكنا نتنقل تحت الأرض. كان القطار هناك يدعى السوب، وبعدها، عندما ذهبنا إلى نيويورك، كان يُسمّى بطريقة مختلفة، لكنه كان هو نفسه. كان أبي يريد الدخول إلى مكتبات شارع كورينتس، لكن أمي كانت تفضل شراء الأحذية في شارع سانتافي. في أحد الشوارع، واسمه فلوريدا، لم تكن تجري السيارات، كان للمشاة فقط. هناك كانوا يشترون لي البوظة والمجلّات. في أكشاك المجلّات كانت تُباع أيضاً الكتب والسجائر والسكاكر. لكن أبي لم يكن يشتري السكاكر لأنها تؤذي الأسنان. عندما كنا نعود إلى المنزل عند الغروب، كانت ملابسنا تبدو مُتّسخة كثيراً بسبب الدخان، لكننا كنا نستمتع بفتح الأكياس. كانت جدتي تنظر إلى الكتب التي يشتريها أبي وتتذمّر وتقول بأن الشرطة ستأتي لتأخذها لأنها مليئة بصور أصحاب اللحى. كان أبي يقول لها بأن ذلك الملتحي، من جنوب البرازيل أو ما شابه ذلك، كتب عدّة مرات دفاعاً عن جزر المالويناس وعن الباراغواي، كانت جدتي ترد عليه قائلة بأن الطُعم بالنسبة إلى الهر كان أغلى كل يوم.

ذات ليلة، أخذني أبي وأمي إلى مسرح ضخم. كان يعجّ بالناس باللباس الرسمي، وكان هناك فرقة اوركسترا وراقصون. لم يُرد حارس البار السماح لي بالدخول، لكن والدي تحدّث إليه وربّت كتفه. أعجبتني الموسيقى كثيراً. قال والدي إن الراقصين تدرّبوا سنوات طويلة على القفز بهذه الطريقة. تذكّرت حينئذ سيركاً كنا شاهدناه في

كورينتس وسألته عندها لماذا هناك هذا العدد الكبير من المهرّجين والبهلوانيين. لا بد أن هؤلاء أيضاً يتدرّبون كثيراً ليقوموا بهذه القفزات في الهواء ويُضحكون الأولاد.

كنّا نعود إلى كورينتس في مركب قديم وبطيء، ذي عجلة ضخمة، تدور في النهر، تئن كأنها مُتعبة. كانت صالة الطعام على ظهر ذلك المركب قديمة، وفيها ثريات قديمة تفوح منها رائحة الثوم. لم أتذوّق قط حساء كهذا. من نوافذ المطعم كنا نشاهد الغروب على الشاطئ. كانت الجبال في البعيد والأشجار تبدو كأنها تنزلق إلى ما وراء النهر. كان أبي وأمي يتعانقان على ظهر المركب ويلفانني بغطاء لكي أنام بدفء ولا أصاب بالبرد. كان يُخيّل إليَّ بأن القمر لا بد أن يشعر بالبرد في تلك المياه المظلمة. عند الفطور، كان المطعم يعجّ بالناس. ذات مرّة تعرّفنا إلى أسقف، ومرة أخرى تعرّفنا إلى أديبة، تكتب للصغار. كانوا جميعاً لطفاء. من يسافرون على المراكب هم أناس طيبون، لأنهم ليسوا على عجلة من أمرهم. كان أبي يأخذ الصور لنا، للذكرى، لكن بالأبيض والأسود، كانت الصور الملونة باهظة الثمن في ذلك الوقت. على الرغم من ذلك، فإني أذكر ذلك اللون الرمادي، الحزين مثل أيام أربعاء الرماد، لكنه يُعجبني.

11

كان طوطو أزواغا يشرب المتّي ويعزف على القيثارة في غرفته في تلك الليلة الماطرة. فاجأته دقات خفيفة على بابه. ترك العزف. عادت لمناداته. نهض أزواغا وفتح الباب. دخلت فيرونيكا والماء يتقطّر من ثيابها.

- فيرونيكا، أنت مُبلّلة! صاح أزواغا.

- عليَّ التحدّث معك الآن.

- كما تُريدين، اجلسي! وأشار أزواغا إلى أحد المقاعد وجلس هو على السرير. - ما الأمر؟

- الأمر يتعلّق بـ... حُجّة! تمتمت فيرونيكا.

وكل هؤلاء الناس أيضاً، كما في الزريبة، فكرت فيرونيكا، واقفون خلف الستارة، ينتظرون ليصفقوا لمأساة عُرضت عليهم بلغة لا يفهمونها.

- حسناً، في الحصيلة، أرى أنك وقعت تحت تأثير سحر بيت الدعارة. لقد ترددتَ إلى ذلك النزل. أنت تجهل أخطار خطيئة الجسد.

لم يقع قط أي فتى من سلالتنا بين براثن العاهرات والمثليين. أتمنى عليك بأن تنسى تلك الدار وآمرك بأن تبتعد عن تلك الآنسة. هل فهمت؟

- نعم أبي! قال ألبرتو.

- أنتم درستم التمارين والشعر والإلقاء ...، هذه هي اللغات الشفهية! تابع أزواغا، نافثاً دخان سيجارته نحو لوحة «ممنوع التدخين» في صالة المسرح في المدرسة، حيث كانوا يتمرنون. - أمّا في المسرح، فإن الرمز الإيمائي هو أكثر أهميّة. الحركة تقوم مقام الكلمة. وليست حركة الجسد فقط، إنما إيماءة الروح. ليس الأمر صراع حجّة مبسطاً، إنما صراع جمالي: هو التصادم الفكاهي بين ما هو مبتذل وما هو ساخر، إنه التصادم الدرامي بين ما هو عادي وما هو مُحرج، إنه التصادم المأسوي بين ما هو سامٍ وما هو مُدقع. وهذا ما يهمّنا الآن. هو الشيء الوحيد الذي يهمّنا.

- هذا الأسقف اللعين متورّط في هذا أيضاً! صرخ سومايا.

- هذا غير ممكن...! ردّت سوليداد بحياء.

- وكيف لا؟ صرخ سومايا، كالهرّ المعلّق في شجرة مرتفعة.

- إن كانت الجريمة وقعت منذ ساعة، فلا علاقة للمونسنيور كاسيريس بها! قالت سوليداد. - أنا كنت موجودة معه في مقصورة فيرونيكا كل الوقت الذي استغرقه العرض.

- نعم، هذا صحيح! قالت فيرونيكا. - لقد طلبت منهم البقاء هناك ليعطوني الحظ الجيّد.

- هذا الأسقف الباراغوايي مذنب! صرخ سومايا.

- ولكنه كان معي كل الوقت! قالت سوليداد. - المونسنيور كاسيريس شخص جيد جداً وبريء جداً! أقسم لك أيها المفتّش!

- سنقوم بخداع أونيل! قال أزواغا. - كما تعلمون، هو تصوّر هذا العمل كاستكمال للأسطورة اليونانية. حاول جعل المأساة أكثر عصرية. لكن عمله الآن قد تقادم عليه الزمن. وأنا أريد أن أقترح عليكم، لإحيائه، خدعة فيها بعض التناقض. الأمر يتعلّق بتقديمه كما لو كان مسرحاً يونانياً. سنستعمل الأقنعة وما شابه ذلك. ولكنها لن تكون أقنعة تقليدية، بل أميركية أكثر. أقنعة النمور، ما رأيكم؟ ربما وجدتموها غير مريحة، ولكنكم ستعتادونها مع التمارين. ليس من الضروري أن يرتديها الجميع. قناع فيرونيكا سيكون الأكثر أهميّة. إن القناع المسرحي يفيد بالتأكيد أن الممثلة ليست هي الممثلة، بل أخرى. فيرونيكا لن تكون فيرونيكا، بل ألكترا، والتي هي لافينيا، ستكون فيرونيكا. ستكون التي تخلّت عن ذاتها لتكون هي ذاتها. صحيح؟

- لم يعترفوا بشيء، لكننا نعلم كل شيء! صرخ سومايا. - كلهم كانوا.

- القليل من المتّي؟ عرض أزواغا. أومأت فيرونيكا برأسها إيجاباً. كانت تلفّ شعرها بمنشفة أعارها إياها أزواغا.

- أفهمتَ جيداً، طوطو؟

- طبعاً، المسألة كلها في تزامن الأوقات! قال أزواغا، مُقدّماً لها المتّي وبخاره يتصاعد.

- شكراً، قالت فيرونيكا بعصبية. وارتشفت المتّي مُحدثةً شخيراً. لن يدرك الجمهور بأنك لست ألبرتو، صحيح؟

- إن قرن القناع سيشوّه الصوت بنسبة كبيرة، من هذه الناحية أنا مُطمئن. أنا وألبرتو لدينا تقريباً الحجم ذاته. فضلاً عن ذلك، بلباس الإزار والجِزَم لن تُميّزينا حتى أنت.

تنهّدت فيرونيكا بعمق، على حافة المقعد، والمتّي يرتجف في يديها.

- عسى أن تجري الأمور على ما يُرام! صاحت.

- يتوجّب عليه فقط العودة قبل النهاية، عندما يخلع الجميع أقنعتهم لتحيّة الجمهور. إن لارّاين يستحقّ هذه الطلقات. كنت لأفعلها بنفسي، أنا على كل حال لن أعيش طويلاً، لكنني أفهم بأن على ألبرتو القيام بهذا.

نظرت فيرونيكا إليه بعينيها السوداوين الجميلتين.

- هذا يدعى... حجّة، صحيح، طوطو؟

تبسّم أزواغا.

اقتحم المفتّش روبرتو أمادور سومايا بعنف وصخب مقصورة

فيرونيكا، راكلاً الباب بقوّة. وجدها وحيدة وعارية تماماً، لكنها ما زالت ترتدي قناع المأساة الكبير، مثل آنسة آفينيون.

وقف المفتّش مدهوشاً عند عتبة باب المقصورة وراح يتأمّل ذلك الجسد الغامض العاري ذا الوجه الحجري كالطيف، الذي يتكرّر على صفحة المرآة الجدارية الواسعة.

- لقد قتلوا العميد لارّاين! صرخ سومايا.

- لارّايـن؟ قالت فيرونيكا. - أظنني سمعت ذات مرة هذا الاسم.

- كان رجل الحزب القوي! صرخ سومايا.

- نعم؟ قالت فيرونيكا. - كنت أعلم أنه يستغلّ كثيراً من نساء الحزب، لكني لم أكن أعلم بأنه رجل الحزب.

- ومن أنتِ؟ تباً لك! صرخ سومايا.

- أنا؟ قالت فيرونيكا، وبدأت بإلقاء دورها:

عذاب الليمون، والحزن الأوحد، وحنين المواساة، والمياه الدكناء، والوحدة اليومية، والمطر المختبئ، والرثاء العابر، والزجاج الجريح، والفرح الذي خانوه، والحب الأخير، والفرح الجامع، والعادة الحرّة، والصمت السرّي، والقبلة المتسرّعة، والمغامرة بدون حدود، وكهف الحلم، والهجران النهائي، ومساحة الصراخ، والأرق المسائي، والجلد اللامتناهي، والخيال دون درع، والمصباح دون عقاب، والمُسْكِر المتوحش، والقبّرة في الصباح، وشاطئ الشجاعة،

والدرب المظلمة، ودوار الشمس المرير، والهدنة المُختلسة، وخفة الذكريات، والنار العزلاء، والتألق العارض والمكسور، والتلميذة والجناح، والشفق الدقيق، والخطر الكهربائي، وبتلات الدم، والرحيق الأزرق، وصدى الحنان، والنكهة الحميمة، واستراحة النهر الصاخبة، والتصرف بدون عقال، والحظ المتردد والرطب، وإنكار العدوى، والزاوية المبكِّرة، والتآكل الطيِّع الهادئ، وحزام الثلج، والرماد الرائع، وجروُ الماس، خرساء وعالمية هكذا بوجه الفاضح، والمنحرف والرجعي والأدكن. تُلطِّف، تُشرق، تُوضح، تحرق، تسمع، تسامح، تقاوم، تغوي، تنسج، وتستعيد. ترفض.

- لا أفهم ما تقولين! صرخ سومايا.

- لا؟ قالت فيرونيكا. - إذن لقد انتهى العرض.

وخلعت فيرونيكا القناع كالطائر الطنّان يخرج من القعقعة وسط النهار، مُغنّياً ومُطيِّباً.

12

كان ألبرتو يختلس النظر إلى لارّاين من وراء زجاج المكتبة الليلي. كان الرجل البدين واقفاً يشرب اليانسون، وحيداً. انسل ألبرتو نحوه من ظلمات الستائر السميكة. قفز إلى وسط الصالة على بعد مترين من لارّاين. وصوب نحوه المسدس القديم بكلتا يديه.

نظر إليه العميد بطرف عينه، دون أن تتحرّك له عضلة واحدة. التفت ببطء وواجه الفتى بلفتة أبويّة.

- لكن، ولدي العزيز...! قال وهو يُداعب كأسه. - أَبِكَ خطبٌ في رأسك؟ ألا ترى خلفك كبير الخدم يحمل سلاحه؟

التفت ألبرتو بصورة غريزية، فخطف منه لارّاين المسدس بسرعة البرق ولكمه على فكّه فكسره.

وقع جسد الفتى دون حراك عند رجليه. تأمّله لارّاين لفترة طويلة دون أن يتحرّك، بغرابة واحتقار، وهو مُلقى على الأرض إلى جانب شظايا الكأس. تنهّد. جال بنظره باحثاً عن زجاجة الغران مارينيه. اقترب من الرف وفتحها. وتذوّق المُسكر. إلى جانب علبة السجائر

اليابانية يوجد كاتم للصوت. ضبطه لاراين على مسدس ألبرتو. انحنى وصوّب فوهة المسدس نحو الرأس مُلاصقاً لصدغ الفتى. وأطلق حتى أفرغ المخزن. تناثر دماغ ألبرتو والدماء على السجادة الدمشقية.

تنهّد لارّاين من جديد، هذه المرّة بعمق أكبر. جرّ رجليه نحو المكتب الخشبي. غرق جسده الهائل كالحوت في المقعد الوثير. كان ضجيج السيارات يسمع في البعيد عبر النافذة المفتوحة، والنسمة الساخنة التي تدخل من الحديقة الغارقة في الظل تحرك بلطف قماش الستائر. سحب لارّاين من جيبه منديلاً مطرّزاً وطوى ساقيه ومسح الدماء عن جزمته مُبدياً قرفه. رمى المنديل في سلة المهملات العاجيّة. فتح بعدها أحد أدراج المكتب وأخذ العدد الأخير من مجلة بلاي-غيرل. مدّها على المكتب وصفحة الوسط مفتوحة. كانت صورة المُلحق الشهري لفتى ذي ملامح شرقية وحجم خصيتيه بدا غير مُتناسق مع حجم جسمه الضئيل والمُضحك. تجشّأ لارّاين اليانسون، وداعب بطنه وفرجه، وأخيراً أسدل سحابات السروال. كان ينظر إلى ألبرتو من كرسيّه وقد تشوّه وجهه بالثقوب وعيناه الزجاجيتان اليائستان قد فقدتا محورهما، مضرّجاً بدمائه على السجادة تُحيط به قطع دماغه.

كان لارّاين يتصبّب عرقاً وشفتاه ترتجفان دون أن يشعر. نهض أخيراً مُتمايلاً، وقطعة اللحم الدكناء بيده ومشى نحو الجثّة مرتجفاً من الاثارة. قلب برجله جسد الفتى على بطنه، ركع بجانبه وجاهد حتى خلع سرواله.

عندئذ فقط انتبه لذلك المقنّع بوجه الكفن المقدّس يتّجه نحوه بحذاء ذي كعب مرتفع، وجلد نمر وبين أصابعه الملتوية يلمع مسدس أتوماتيكي.

الجزء الثالث

1

من الذي قتل غوميرسيندو لارّاين؟

لقد عثر كبير الخدم على الجثتين حوالى الساعة العاشرة ليلاً، عندما ذهب لإطفاء أنوار المكتبة. اتصل في الحال بسومايا الذي لم يتأخر في الوصول وأخذ الأمر على عاتقه. كان نظام المراقبة بالكاميرات قد سجّل بكل وضوح ما حدث في مسرح الجريمة. يُرى دخول ألبرتو، ويُرى لارّاين وهو يفجّر رأسه، ويُرى نمر الكرنفال الذي يطلق النار على لارّاين من مسافة قريبة ويختفي من النافذة. لم يسلّم سومايا التسجيل إلى القاضي ولم يخبر الصحافة بأمره. لقد أكّد التشريح والاختبارات البالستية وجود سلاحين مختلفين، وعلى الرغم من ذلك تم التستر على النتائج. ذهبت الفرضية الرسمية إلى أن ألبرتو ووصيه المحترم كانا يتحادثان بمنتهى الصداقة في اللحظة التي أرداهما مجرم مقنع بهيئة نمر.

هزّ الخبر مشاعر سكان المحافظة واحتل ليومين عناوين نشرات شبكات التلفاز الوطنية. أحد الموتى كان حفيد واحد من

أعزّ الأرجنتينيين الأحياء، عقيد مشاةٍ لامع التحق بجيش الباراغواي كمتطوعٍ إبان حرب التشاكو. كان العميد الهاندرينو ساريّا- كيروغا يجسّد في سنوات البؤس تلك خليطاً خيالياً ضائعاً من النصر والإيثار. رافق البلد بأكمله العجوز المحارب في ألمه.

كان الرأي العام يعي بأن هناك العديد من الخيوط التي لم يُكشف عنها. ماذا كان يفعل ألبرتو في منزل لارّاين؟ كان الجميع يعلم بأن عليه الحضور في احتفال التخرج في المدرسة ليقوم بدور أورين.

كل الحجج تقريباً كانت تشوبها الشوائب:

الحجة الفضلى كانت التي تقدّمت بها الأم تورّوكس والأخ التوأم للأب مرسلين، الذي جاء من بوينس أيرس ليتولّى وظيفة المرحوم التعليمية. لقد رآهما جميع الحضور جالسين في الصف الأول خلال تقديم عمل أونيل.

إليزا أيضاً صرّحت بأنها شاهدت العمل دون أن تتحرك من الصالة، لكنها لم تقدر على تذكّر وجوه أو حركات الأطياف الغريبة التي جلست بينهم. أمّا طوطو أزواغا فقد ادّعى بأنه قام بدور أورين لأن ألبرتو لم يحضر. العديد من الممثلين كانوا قد رأوه دون قناع في الجزء الأول، لكنه لم يخلعه بعدها في الأجزاء الثلاثة التالية. رغم إصراره على أنه لم يخلعه بسبب التهائه، وبأنه لم يفطن حتى بأنه يضع ذلك القناع، فإن ذلك جعل فرص التعرف إليه أكثر صعوبة.

فيرونيكا التي قامت بدور ليفينيا لم تخلع قط قناعها.

رفض كاسيريس الإدلاء بأقواله، لكن سوليداد أكّدت بأنهما بقيا كل الوقت في مقصورة فيرونيكا. ألقي القبض على سوليداد في المقصورة نفسها وتم عزلها في مديرية الشرطة المركزية للتحقيق معها. اتهمها الراديو الرسمي بممارسة الشعوذة بطريقة غير شرعية بهدف التحوّل إلى نمرٍ دون دفع الرسوم المتوجّبة. اتّهم المونسنيور كاسيريس الحكومة بالانتقام من الشاعرة الأكثر شعبيةً والزعيمة الطلابية في كورينتس بموجب قانون الطوارئ، وراح يردد ذلك بسخطٍ في كل قدّاسٍ يقيمه في الكاتدرائية.

لقد طلب القاضي أيضاً الاستماع إلى العقيد العجوز وزوجته. أفادا بأنهما كانا يلعبان الورق ليلة الجريمة مع بعض الجيران. ومع أن ذلك بدا مقنعاً وأن العمر المتقدم للعجوز لا يتناسب مع احتمال رؤيته في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل يتجول بمسدسه متنكراً بهيئة نمر، إلا أنه بدا من الغريب ألا يحضر إلى المسرح للتصفيق لحفيدته المفضّلة.

كما حضر إلى محكمة الجنايات خدم دارة آل ساريّا-كيروغا المرحومين رغم كثرتهم الواحد تلو الآخر. إن الاحتمال الوشيك بأن يقوم العميد لارّاين بصرفهم من الخدمة دون النظر في وضعهم كأن يجعل منهم متهمين محتملين تلقائياً. تقدّمت برتا، كبيرة الخدم، عليلةً دون التخلي عن عليائها، تغطّي رأسها بوشاحٍ أسود سميك تفوح منه رائحة النفتالين. توافق الخدم جميعهم على دعم بعضهم بعضاً والإفادة بأنهم قضوا طوال السهرة يشاهدون فيلماً قديماً من أفلام جورج ميسترال على القناة التاسعة.

لم تحضر أمابولا غونتر إلى المسرح، حيث أن ابنتها لم تكن في عداد الممثلات. أفادت بأنها كانت في الباص ساعة الجريمة، عائدةً إلى منزلها بعد شرب الشاي مع الجنرال خوان فرانسيسكو غونزالس، قائد فرقة الفرسان لمنطقة الشمال الشرقي العسكرية. كان غونزالس يرتاد صالون الحلاقة الخاص بسنابريا، وكان أرملَ مثل أمابولا. في إحدى جرائد كورينتس ظهر تلميحٌ بأنهما كانا يشكّلان زوجاً جميلاً. الشيء الغريب الوحيد أن الجنرال لم يعرض عليها كعادته السيارة أو الطائرة المروحية للعودة.

على أي حال، لم تبد الشرطة مهتمة كثيراً بكشف الجريمة، بل بدا أنهم أرادوا الاستفادة باستخدامها حجة لتصفية حساباتهم مع زعماء التظاهرات الطلابية في حزيران/ يونيو. العديد من طلاب الثانوية والجامعات جرى اعتقالهم وعزلهم. لقد سبّب حبس سوليداد القلق والسخط في أوساط الطلاب والشعراء الشباب في كورينتس. لقد أشار المونسنيور كاسيريس على أزواغا بالعودة إلى الولايات المتحدة في أقرب فرصة. أطاعه الأخير، ليس بسبب الخوف، بل لإحساسه بأنه عاجز عن التأثير في وقائع الأحداث، كما كان عليه معاودة العلاج الكيميائي في تولسا. شنّ الراديو الحكومي حملة نارية غاضبة على كاسيريس ولقّبوه بـ «أسقف كورينتس الأحمر»، واستغلّوا بطريقة رخيصة الإشاعات الحاقدة حول الشكوك بمثلية سوليداد الجنسية، التي روجها أنصار الحكومة. على جدران واجهة

المدرسة، ظهرت ذات صباح كتابات بالرشّ بعبارة «نعم للأرجنتين بدون شيوعيين ولا سحاقيات». حتى إليزا نفسها لم تسلم من الشتائم عبر الراديو ومن الاتهامات التي تشكّك بوفائها لعشّ الزوجية وعنصرية عرقها القوقازي. ولولا كونها زوجة رئيس البنك الدولي، لما شفعت لها مؤهلاتها العلمية ووقتها غضب الشرطة.

لقد اتصلت إليزا بزوجها عبرِ الهاتف لإخباره بأن ابنة أخته قد سجنت. أجابها غونتر بأن مشاغله كثيرة ولا وقت لديه للاهتمام بمتاعب الإقليم، وأن ابنة سنابريا قد كبرت وعليها الاهتمام بنفسها. كانت أمابولا تمرّ كل يومين إلى المفتشية لتأخذ ثياب سوليداد لغسلها في المنزل. كانت سوليداد ترسل إلى فيرونيكا أشعارها ورسائلها على قصاصات من الورق المطوي بين طيات الثياب. ذات يوم وصلت الثياب الداخلية ملطخة بالدماء. ذهبت أمابولا إلى إليزا لترجوها باكية بأن تسافر إلى واشنطن لإحضار غونتر إلى كورينتس على جناح السرعة. وبالفعل استقلت إليزا الطائرة في اليوم التالي.

أما بالنسبة إلى فيرونيكا، فقد أمضت أسابيع طويلة محتمية في منزل جدّيها. كانت على اقتناع بأنها الحلقة المفقودة في هذا التصعيد القمعي، ولم تكن مخطئة.

كان الجنرال يحبّ المعجّنات، تماماً كحفيدته. وكانت السيدة أرنستينا تشرف بنفسها على إعداد التوكو، ولم تكن تتحرك من المطبخ

حتى ترى بأم عينها المعجّنات تبتسم ناضجة لأواني المطبخ المعلّقة على الحائط. بعد تلك الوجبات الشهية، اعتادت فيرونيكا أن تأخذ قيلولة قصيرة في غرفة نومها في العلّية، حيث تحتفظ ببعض كتبها الثوريّة، وتنزل بعدها لتوقظ جدّها للذهاب إلى الملعب. أمّا هذا اليوم، لم يكن ذلك ممكناً.

كان العقيد يرتشف فنجاناً من القهوة، واقفاً قبالة نافذة غرفة الطعام المطلّة على الشارع.

- فيرونيكا! قال فجأة بصوت هادئ. - اغربي من هنا.

اقتربت فيرونيكا منه ورأت من خلال النافذة أربعة عناصر يرتدون بزّات خضراء ولهم تسريحات شعر عسكرية يتقدّمون نحو باب المنزل وهم يدوسون ورود الجيرانيوم. ركضت بسرعة البرق وخرجت إلى الفناء الخلفي.

سُمعت بضع طرقات على الباب وفتحت السيدة أرنستينا.

- طاب نهارك سيدتي! حيّاها أحد الدخلاء. - هل الشابة فيرونيكا ساريّا موجودة؟

اقترب السيد الهاندرينو من الباب. ألقى الزائر التحية العسكرية على العقيد بامتعاض واضح. في تلك اللحظة اقتحم غريب ضخم الجثة من الحديقة الخلفية ووجهه كالملاكم المتقاعد يجرّ خلفه فيرونيكا الشاحبة كورقة الخريف.

- ها هي سيدي الملازم! قال العربيد. - كانت على وشك أن تقفز عن الحائط الخلفي.

- لدينا أوامر باصطحابك! قال الملازم لفيرونيكا، التي كانت ترتجف بين ذراعيّ آسرها. وضعت السيدة أرنستينا يدها على فمها لتخنق صرختها.

- اهدئي يا ابنتي! وعانقها العقيد.

- جـدّي...! تمتمت فيرونيكا. - هلّا احتفظت لي بكتاب «العجوز والبحر»، إنه على المنضدة قرب السرير.

أومأ العقيد بصمت، دون أن يترك ذراع زوجته.

حالما دخلت غرفة التعذيب، طلب الضابط والسوط بيده من فيرونيكا أن تخلع ثيابها من وسطها إلى الأسفل، وأكّد لها وجود نسبة كبيرة من المثليين ومتعاطي المخدرات بين فنّاني المسرح والمغنّين والشعراء. سألته فيرونيكا أين هي سوليداد. أجابها الضابط وهو يمضع شيئاً ما هذه الكلمات:

- هذه الليلة ستبتلعين فضلاتك!

أخبرها أيضاً بأن سوليداد قد قامت بذلك وهي الآن في المرحلة التالية حيث سيُدخلون في مهبلها أنبوباً زجاجياً بداخله فأرة جائعة.

بعد يومين من توقيف حفيدته، أصيب الهاندرينو ساريّا-كيروغا بأول جلطة قلبية. خُشي عليه من الأسوأ بسبب عمره المتقدم. لكن العجوز، وبعد إدخاله العناية المركّزة في المستشفى العسكري الفخم، أخذ يتماثل للشفاء ببطء.

- هو الخوف! همس الطبيب المناوب في أذن السيدة أرنستينا.

- العقيد خائف على الفتاة. ألا تستطيعون التوسط لها مع أحدهم لإطلاق سراحها؟

- أيخاف أسد المعارك المئة؟ أجابته السيدة أرنستينا متعبة، دون أن تكون مقتنعة بما قال.

ذات صباح، كان العقيد وزوجته يلعبان الورق على سرير المستشفى. دخل الطبيب المناوب وأعلن قدوم حاكم المقاطعة للاطمئنان. أصلح المريض جلسته قليلاً وقال بأنه لا يرغب في استقباله.

- لكن الهاندرينو! اعترضت العجوز بصوت عذب. - إنها فرصة ذهبية للطلب منه بشأن فيرونيكا.

نظر إليها العجوز لوقت طويل بعينيه الزرقاوين الملتهبتين، وقال بعدها ببطء، كاشفاً أوراقه الرابحة: ها قد خسرتِ الجولة... لنبدأ من جديد!

كانت فيرونيكا تقضي أوقات نهارها مستلقية على بطّانية ملقاة على البلاطة الاسمنتية التي تقوم مقام سقف مطبخ المفوضّية. بالقرب منها كان ينام أحد طلّاب الطب واثنان من مروّجي المجلّات الإباحية وأحد النشّالين، وهو على أغلب الظن من المدسوسين. كان محظوراً عليهم التكلّم فيما بينهم، وقد تلقّت فيرونيكا عدّة رفسات على أضلعها

كلّما تبادلت الابتسامات مع الرفيق الجامعي. كان الطقس يميل إلى البرودة خلال الليل، لكن الأرضية الحارة بسبب نار المطبخ كانت تبدو مثالية للعلاج كالمستشفيات. تلك الليلة كانت فيرونيكا تلتحف بمعطفها وتتذكّر مولد جدّها. راحت تتذكّر أن جدّها قد تنبأ بنفور رجعّي من قانون التقدّم الدائم وكان يردد بلكنة إسبانية قوية القول الإنكليزي: «التاريخ هو الكابوس الذي أحاول أن أستيقظ منه». كانت فيرونيكا تعتقد بكل فخر بأن جدّها هو الثمانيني الوحيد في كورينتس الذي قرأ الأوليسيس. أحد الإنجازات العسكرية للعقيد كان الاستيلاء على آبار مياه في الخطوط الخلفية للعدو. بعد أيّام من التسكع سيراً على الأقدام خلال النهار ظمأى وخلال الليل في ضوء القمر الفاضح، على رأس كتيبة ممزّقة، قادهم العقيد وهو الأكبر سنّاً بين جنوده المرهقين، دون كلل أو ملل إلى التضحية والنصر. كان العقيد قد روى لها كيف تراءى له عشية المعركة قرب الموقد طيف عرّابته كالشبح، وكانت تقيم في الباراغواي، وأخبرته بأنه سيتحّول لاحقاً إلى شارع وورقة عملة ومدرسة، لكن ذلك كلّه كان مجرّد أوهام.

لن يستطيع أحد أن يحمل النجوم على كتفيه. لم يعد العجوز ليلبس بزّته العسكرية بعد تلك الليلة، وقد روى بأنه كان يجيب: إن كان الوطن شعراً، فتباً له! أنا أيضاً وزني اسكندراني. كانت فيرونيكا تبتسم رغم آلام بطنها المبرّحة، التي قطعتّها السياط وعمليات الاغتصاب، عندما تتذكّر ذلك المؤرخ الأميركي الذي اعترف للاستراتيجي

الغواراني بهذا الإنجاز في كسبه للمعركة «كما لو تعلّق الأمر بعملية حسابية».

عندما عانى العجوز النوبة القلبية الثانية كانت فيرونيكا ما تزال محتجزة، لكنّهم كانوا قد كفّوا عن إزعاجها ليلاً. كانت تعاني التهابات في المجاري التناسلية وتعالج على يد طبيب عيادة الشرطة بجرعات قوية من المضادّات الحيوية. أبقى ذلك لديها الأمل بالخروج على قيد الحياة. كانت تعتقد بأن مردّ القسوة التي عاملوها بها يعود إلى امتناع جدّها عن طلب الصفح عنها من السلطات العسكريّة بسبب عزّة نفسه. لم تكن تعلم شيئاً عن سوليداد. كانت تتحاشى التفكير فيها لأن ذلك كان يسبب لها الإحباط العميق.

كانت النوبة القلبية خفيفة، لكنّها كانت كافية لإدخال العقيد في غيبوبة. هذه المرّة حث الطبيب السيدة أرنستينا بنبرة أكثر دراماتيكية:

- ما زال يقاوم بما تبقّى له من قوة جسديّة! صاح الطبيب. - لا بدّ من أن تُخرجوا الفتاة الآن! أخرجوها وليرها العجوز!

مع أن العقيد استعاد وعيه، لكنه تابع رفض استقبال الحاكم والوزراء. جاء إليه الأب مرسلين مرةّ لرؤيته، بحجّة تلقّي اعترافه ومسحه بالزيت المقدّس. أقفل على نفسه مع العجوز. كان السيد الهاندرينو يتنفّس بصعوبة. نظر إلى الكاهن بعينين ساخرتين كالماسوني الميؤوس من خلاصه. سحب بيده المرتجفة من درج منضدة السرير كتاباً رخيصاً. فتحه على الصفحة الأولى وأعطاه للكاهن بما أمكنه من

ثبات يده. قرأها مرسلين. تحت الكلمات المطبوعة التي تقول «الرجل العجوز والبحر» كتبت فيرونيكا بخطّ يدها المتعرّج: جدّي، مهما جرى، لا تطلبني منهم أبداً!».

أتمّت فيرونيكا الأشهر الثلاثة في الأسر يوم سبت النور، وأحسّت بثقل هائل يضغط على صدرها عند منتصف الليل. تذكّرت بأن جدّها منح مرّة مقابلة لأحد الفرنسيين المبتدئين في قلب المعركة.

- أنت على أبواب النصر! خاطبه الفتى، وذكر له ريمبو. تركه العجوز يثرثر لبرهة، ثم أجابه بالفرنسية:

- وما الفائدة من حصولي على رؤوس الماعز، إن كنت سأموت قريباً!

- وريمبو أيضاً؟ سأله الصحافي.

- لا، هو في كل الأحوال ابن قائد المشاة، وهذا سلاح تافه... سلاحي. أتعلم؟ لا، هذا ما قاله لي أحد أبناء قبيلة الماتاكو، من هنود التشاكو: ما الفائدة من حصولي على رؤوس الماعز إن كنت سأموت قريباً! رجال الماتاكو ينتحرون بكثرة، أتعلم ذلك؟ لكنني قلته لك بالفرنسية ليكون وقعه عليك حضارياً أكثر، أليس كذلك؟

نظر إليه الفرنسي مدهوشاً، بينما قدّم له القائد كأساً من الشيري الصافي.

ليلة أحد القيامة، أدركت فيرونيكا بأن رؤوس الماعز قد تحوّلت إلى طائر طنّان. ركلها الرقيب على أضلعها لإيقاظها وسحبها مقيّدة

اليدين ودفعها أمامه بعقب البندقية حتّى مكتب رئيسه. دخلت فيرونيكا المكتب وتيقّنت بمزاج حزين أن أسطورة الجدران المغطّاة بأوراق الدستور الوطني كانت حقيقية! أبلغها الرئيس بصدور أمر إطلاق سراحها.

- لكن ذلك بسبب خبر مفجع فقط! قال متبرماً. - والحال كذلك، إن سوّلت لك نفسك أية رعونة سنتتبّعك ونلاحقك ولن يغمض لنا جفن حتّى نقبض عليك.

مع كل تعبها وألمها أوقفت فيرونكا سيارة أجرة ووصلت ساعة الدفن.

عند العودة من المدافن قدّمت السيدة أرنستينا الشاي لقلة من الأصدقاء والأقارب الذين رافقوها. أخذ الأب مرسلين فيرونيكا من ساعدها وقادها بلطف إلى الحديقة حيث كان العقيد يخاطب زهور الجيرانيوم بصوت مرتفع. اقترب الكاهن بفمه من أذن فيرونيكا والشاي الحار في يده، وهمس بنكهة أعشاب المتّي العنيدة:

- لقد سألتُهُ! وقلت له تشجّع الهاندرينو! لماذا يرتجف في مثل عمرك المحارب القديم؟ لم يرغب في الكلام معي. لكنه قال لي البارحة في آخر لحظاته: إنَ الألم الآن ليس ألمي.

أدركت فيرونيكا وقتئذ بأن عليها الاعتراف بالكتابة كفنّ لإنقاص الوزن، للتجريد من الماعز، وعادة من عادات الكلام، ولكن ليس

للحنان أو الكرم أو البطولة. صعدت إلى غرفة العقيد التي يفوح فيها عبق البشتول وأقسمت بأنها ستكتب هذه القصة.

كانت لا تزال تمرر أصابعها على كل قطعة أثاث، على كل كتاب وعلى كل إطار، عندما سمعت صوت جدّتها العذب عند باب غرفة النوم وهي تقول لها بأن أمابولا لديها بعض الأوراق لتعطيها لها.

2

- اسمكِ؟ سأل المفتش سومايا.

- سوليداد مونتويا سانابريا غونتر! قالت سوليداد. طبع السكرتير الإجابة على الآلة الكاتبة.

- عمرك؟

- سبع عشرة سنة.

- مكان إقامتك؟

- أنت تعلم بأني أقيم هنا.

- أقيم في كورينتس! أملى سومايا على السكرتير وعاود الاستجواب. - مهنتك؟

- طالبة.

- لا تكذبي أيتها العاهرة، نعلم بأنك تعملين في «وكر الحب» أيام الاثنين والأربعاء والجمعة.

- من أجل إعالة والدتي الأرملة فقط. وأذهب في النهار إلى المدرسة.

- حسناً يا ابنتي، لقد جئنا بك سجينة وسنضع في مهبلك سلكاً

حامياً إن لم تقولي ثلاثة أشياء: لماذا أنتِ سحاقية ولماذا أنتِ شيوعية وكيف تستطيعين التحول إلى هيئة نمر.

- أنا لا أعلم كيف أتحول إلى نمر. لو كنت أعلم لتحولت إلى نمر الآن لأهرب من هنا.

- لا، لأن الباب مصفّح ويُفتح فقط من الخارج. أنت تعلمين. وهذا مجرّب. حسناً. سنبدأ على مراحل.

3

رغماً عنك، في الغد يوم جديد حتماً. أعطي كل ما أملك لأرى الحديقة تُزهر عكس ما تريده أنت! كم سيؤلمك أن ترى النهار مشرقاً دون أن يأخذ الإذن منك. كم سأضحك، لأن النهار سيطلع أسرع مما تفكرّ أنت. (الفتى الهولندي بوارك).

قبل قشعريرة النصف الجنوبي، قضى غونتر وزوجته يومين في باريس. أصرّت إليزا على الدخول في صلب الموضوع، لكن غونتر كان يريد الاستراحة، وتتبع جديد المسارح ومساومة بائعي مونمارتر والاستيقاظ متأخراً في فندق يطلّ على قوس النصر. كان غونتر يحب المارتيني في الشانزليزيه، صافية، بدون الجين الإنكليزي وفرموت بورديبوس. أما إليزا فكانت تفضلّ السان ميشيل. منذ سنوات أسرّ لها كورتازار عن جادّة سرّية (حيث أخفى أحدهم أسماكاً ذهبية كل بضع بلاطات). إن لوكاس قد توفّي الآن، لكن إليزا تابعت البحث. من شرفة أحد المقاهي كانوا ينظرون إلى سراويل الجينز البالية الضيقة، وإلى الأفارقة واللاتينيين الذين يلفظهم قطار الأنفاق إلى السوربون، نفثات بشريّة من كتلة عصبيّة مجرّدة عند قدمي فيكتور هيغو بلحيته الصدئة في

تلك الأمسية الحارة. صور لا تبدو خارجة من الذكريات بل بالأحرى كأنها عتبات لغدٍ قد مضى، إنه الصمت الحزين للّوحات المرمية في أقبية الموت تحت المتاحف الجيدة.

التقى آل غونتر دون أن يدريا صديقين قديمين منسيين. التقت إليزا الأول وهو يغنّي في السوربون، في عرض لمرسيدس سوسا. غنّى ميتو معها أغنية لفكتور هارا (لا يعرفك أحد، لا، لكنّي أغنّي لك (فيديريكو غارسيّا لوركا)). لم أتعرّف إلى مانويل ولا إلى أماندا، لم أعرف بيتك. لم أنم إلى جانبك ولا تناولت الطعام معك. أعرف فقط إبتسامة رسائلك الجامدة وصوتك السحريّ المسجّل للأبد. لم أرَكِ قط تموتين مع أني مت معك. لكني لست بحاجة إلى صوتك كي أغنيّك ولا إلى دمك كي أحيا بغنائك. أريد أن أقول لك فقط بأن اسمي مانويل وأن أمّي تدعى أماندا.

أتيت من أجل هذه القبلات فقط، احفظي شفتيك إذا ما عدت مرّة أخرى (لويس سرنودا). أنا أدعى فيكتور هارا. ولدت لأغني بلدي شيلي الطويل والجريح. كان صوتي كالنهر بين بقية الأصوات، وكان حبّي مع البحر في أحلام أخرى. غنيّت لكرامة النسور والثلوج وعادات الحياة البنفسجية. مع أن قيثارتي انكسرت! اجمعوا لي قطعها! انتظروني وأنتم تغنّون. أعدكم إذن بالعودة.

لدى معاينتهم له بعد الممات، فوجئوا بجسد كبير في جسده، لروح العالم (سيزار فاييخو). انتزعوا عينيه، لكنه بقي ينظر إلى النجوم.

سلخوا شفتيه، لكنه بقي يعطي القبلات. قطعوا ساعديه، لكنه بقي يعانق إخوته في الملعب. قطعوا يديه، لكنه بقي يعزف القيثارة. انتزعوا صوته ولسانه ولغته ولكنه بقي يغنّي ويغنّي ويغنّي. سلبوا منه الحياة، وظلّ واقفاً تحت دمعة هائلة، تحت الرايات المبحوحة، تحت الأمل المدفون، هنالك وهنا، من الشمال إلى الجنوب، دون أن يستسلم. عندئذ، توجّب على الجنرال أن يصدر مرسوم وفاته. اللعنة!

يعلن الصباح نفسه بزغردة (نيكولاس غيين). لن تصدح القنابل ولا الأطباق، ولا حتى ثلاثون طلقة مدفعية. لن ننشر إعلانات مبوّبة، ولن نسجّله في دليل الهاتف، ولا في لائحة انتظار طبيب الأسنان، ولن نمدّ في عرض الشارع يافطة كبيرة، ولن نذهب من باب إلى باب. لن نصرخ. لن نقرع أي جرس ولن نتذوق الأطباق المميّزة ولا النبيذ الفاخر ولن نفكّر بأنه الميلاد أو الربيع. لكنك سوف تغنّي وجميعنا سيعلم بأنه اليوم الموعود.

لن تستطيع الغربان ولا الكراهية أن تسلخاني عن خاصرتك (هاريب كامبوس سرفيرا). يمكن تعذيب المرء، يمكن قتله في شهر أو في ما يليه، يمكن تقييده بالسلاسل وإبعاده عن ذويه، وحرمانه من الحياة ونفيه ومنعه وإنكار اسمه عليه، وتشويه سمعته. يمكننا أيضاً قطع يديه بضربة فأس. لكننا لا نستطيع إجباره على أن يكره إن لم يكن هو يريد.

اقتربت إليزا من المسرح ودعته إلى العشاء في اليوم التالي. قبل ميتو بكل ترحيب.

التقى غونتر المبعد الآخر هائماً كالأجانب في الحيّ اللاتيني. كان يبحث عن فيلم لائق كأفلام لينو فنتورا. فجأة تملّكه الضجر. شرب كأساً وانخرط في صالات العرض. كانت إحدى الصالات مكتظّة بالشباب المتلهفين العراة. على الباب إعلان عن حسومات وتوقيع فنان برازيلي للذين يرغبون في وشم أجسادهم. كان الفنان يختم باسمه بحبر يمكن إزالته بالغسل على يسار مؤخرة الذكور وعلى النهد الأيمن للإناث. دفع غونتر بعض الواقفين بمرفقيه. كان الطابور طويلاً وبعض الواقفين أزواج يتلامسون ويتفحّصون أجساد بعضهم بعضاً، وقد بدت الإثارة على كثير من الشباب وانتصبت ذكورهم. إلى جانبه وقفت شابة إيطالية بدينة وهي تشرب الكحول من زجاجة بيدها باستمتاع كبير، ثم تستعمل شفتيها اللتين غطاهما زبد الشراب لتصرخ بوجه شابة فرنسيّة نحيلة كالأموات، كانت تلعق بدورها قطعة بوظة أكبر من زجاجة رفيقتها. كان على غونتر أن يتطاول بعنقه، مع أن طوله يبلغ المترين، ليرى عمق المكتبة. رأى هناك ليفيو ابرامو هادئاً، وقد ازداد بياض شعره، لكنّه صغير ولطيف، ويجلس إلى طاولة عليها نسخ فرنسية من كتابه «الفن في ساو باولو»، وهو يخطّ التواقيع، وعلى أنفه نظارتان كبيرتان، كالفتى·الطبيب. كان غونتر قد تحدّث إليه مرّة واحدة

في عمره، عندما نظّمت إليزا ندوة عن ابرامو وبورتيناري في جامعة ماريلاند. عندما وصل الدور إلى غونتر، تملّكه الحياء حيث فطن إلى ما كان يلبس. أخذت الحيرة ليفيو ابرامو، وريشته في الهواء، وأعطى غونتر لوحاً خشبياً منقوشاً يدعى كيريتو كان إلى جانبه، ليستر جسده.

- أنا غونتر، أتتذكّرني؟ زوج إليزا، الشمالية.

لم يكن الرسّام البرازيلي يسكن في باريس، بل في جنوب فرنسا، وشاءت الصدفة بأن يمضي هذه الأيام في فندق ميتو نفسه. وهكذا اجتمع آل غونتر مع الاثنين على العشاء في اليوم التالي.

بحثوا عن نزل يقدّم اللحم السمين الدهني مع كثير من النقانق والسجق. لم يجدوا لديه المانديوكا. قال غونتر:

- أنا أدفع.

كانت رائحة الشواء تعبق بالمكان وفي المذياع يصدح ماكسيسا (الحركة الرابعة من الفالس الثالث لأوغستين باريوس). وضع غونتر صلصة الطماطم على الفطائر الساخنة. جاءهم الساقي بالنبيذ وأدلى غونتر بدلوه عن سلالات النبيذ.

- ألا ترى بأن ليفيو وميتو من الممتنعين عن الشراب؟ قالت إليزا بلهجة هادئة وسلسة كتلك اللهجة التي يتحلّى بها من قضى أكثر من عشرين حصاداً في زواج صعب دون أن يخسره.

- ماذا تعلم عن الجنوب؟ سأل ميتو. وكان من كورينتس.

- المعلومات التي لديّ تقنية جداً! أجاب غونتر، محاولاً إظهار

التواضع. - لا تأتيني المعلومات من الشارع. أظنكم تعلمون عن القيل والقال.

- الراديو موجّه إلى العامة! أشار ليفيو ابرامو.

- إنه طاعون الأرق! قال الموسيقي. - تماماً كما في ماكوندو. لا يحدث شيء أبداً والوقت متوقف. إنه خريف البطريرك.

- هذا البطريرك اللعين! صاحت إليزا، ظنّت بأن الأمر شائك، لأن ليفيو يعيش في المنفى، ماذا عساه أن يقول عن بلده؟ عن الناس الذين اشتاق إليهم ولم يعودوا كما كانوا؟ - أبنت شقيقة بانشو في السجن!

تجرّع غونتر متوتراً كأس ويسكي مضاعفة مع الصودا.

- ابنة أختك أيها الجمل؟ قال ميتو مستعملاً لقب أيام الدراسة الذي كانوا يخصّون به طوال القامة. - ابنة أمابولا؟

- أمابولا؟ سأل البرازيلي.

- شقيقة بانشو! قالت إليزا - إنها أرملة. ما كان اسم سنابريا، بانشو؟

- إمبيليو، يبدو لي. كنّا ندعوه سنابريا فقط.

- كان شخصاً كبيراً ذا صحة جيدة! تابعت إليزا. - أصيب بداء الشاغاس وتوفّي منذ سنوات. بقيت أمابولا في وضع صعب. حتى صالون الحلاقة لم يكن ملكه، كان مستأجراً، والمنزل ملك بانشو.

- وبقيت هي في الشارع! قال ميتو مستفزّاً على طريقة جون كاج. أظن بأن سنابريا كانْ من الليبراليين القدامى.

- لا، لم يكن ليبرالياً! قالت إليزا. - كان من أنصار حركة شباط.

- حسناً، هما سيان! قال الموسيقي. - إن لم يكن شباط فهو آذار.

- نعم، يميل إلى أتباع آذار! قال غونتر متثائباً. - وكان مجنون كرة قدم.

لاذ السيد ليفيو بالصمت، وتملّكه الفزع. وعادت إليزا إلى الكلام.

- المسألة أن الفتاة، وهي ابنة وحيدة، قد سجنت منذ أكثر من شهرين. اتهموها بالشيوعية والشعر إثر مقتل أحد الأشخاص من أميركا الوسطى.

- أمابولا المسكينة حزينة! قال غونتر- لهذا سنمرّ عليها في كورينتس، عند عودتنا، الأسبوع القادم. بالرغم من كل شيء، فهي أختي الوحيدة.

التزم السيد ليفيو الصمت، دون أن يهدأ فزعه.

مدّ الخادم إحدى الطاولات المطويّة ووضع الطعام. لقد طلب الجميع المشاوي التقليدية إلا غونتر، الذي طلب من الخادم طبقاً نادراً، مغرغراً حرف الراء، كما كان يدّعي، على طريقة انكليز يال الأصليين.

- لكنكم إذا...! سأل السيد ليفيو بكلّ رصانة، وهو يحرّك أصابع الفنّان على حافة كوب المياه الفضّي. - لم تستطيعوا الذهاب مباشرة؟ ماذا تفعلون في باريس؟

نظر آل غونتر بعضهم إلى بعض بصمت. احمّر وجه إليزا خجلاً! أما غونتر فمضغ قطعة من اللحم.

- لا تبدو المشاوي سيئة، أليس كذلك؟ قال غونتر مبتسماً. نظر السيد ليفيو إليه آملاً أن يجد في عينيه الطفوليتين ما يدل على جديّة نظرته إلى الأمور. ابتلع غونتر قطعة اللحم. - لقد اعتدنا أن نمرّ دائماً إلى باريس. لا أقول بأن الفتاة في أيد أمينة، ولكن الأمور ليست بهذا السوء.

- هذا ليس صحيحاً بانشو! تمتمت إليزا بكل خجل، دون أن تنظر إلى السيد ليفيو، الذي كان صديقاً لماشادو الفنان الذي أحبّت كثيرًا. - في الواقع، لقد تسلّمت والدتها ثياب سوليداد الداخلية ملطّخة بالدماء.

ترك الرسام منديله المطرّز بجانب باقة زهور الأوركيديا، وانتصب واقفاً بكل خفّة دون أن يشعر أحد.

- شكراً على المشاوي! قال لإليزا، والتفت نحو ميتو. - عزيزي، أنا بانتظارك على الباب.

لو أن الرجل يأخذ على عاتقه تكوين شخصه دون انحياز إلى الديمقراطية الحقيقية، لظهر في العالم على ما كان يبدو في عمر الطفولة وحيث لم يوجد أحد: الوطن (ارنست بلوش)

4

ابدأ مع الحبّ، وهو قول لا شيء، تلك العبارة الجامدة الماكرة، عمود من آلهة سيرس ودلفين أعمى، من أعلى الهاوية المتأرجحة، ينحسر البحر ويستدعيني إلى طرقات مضيئة من الحروب الثملة. ستأتين من الأعلى، أنت الصفحة النيزكيّة الدائريّة في دفاتري، صخرة حيّة نائمة، وأفعى، وظلّ بطيء قبل أن ينبلج الفجر فجأة.

عندما أتأمل السماء ومنبسطاتها الزرقاء كما الصنوج والأغاني، تنزلين من الهواء زهرة بحريّة مرتجفة، قصيدة يتغنّى بها أحدهم في البعيد، وأنا التي أمشي دون هدف وتنحدر دمعتي إلى شفتيّ، زهرة تحاول إخفاء ابتسامتها المشعّة كالنجمة، كالعقرب المنسيّ في جرّة أثريّة، تقتربين مني رقيقة وأنا قد رحلت، تحيط بك عصبة من الجان الأشقياء، والنسور تحوم في ظلمة الليل، والدم على الأشرعة الساكنة، وأفعى ذات نظرات باردة وقواقع كثيرة، ذاكرة حزن مشترك، وحفرة تحيط بك بألسنتها الأرجوانيّة.

وأنا سأكون كالريح تنفخ بعذوبة في روحك، أحيطك بعيون من الصلب، والصفيحة المصقولة للمرآة التي كنت دوماً، والآن مادة،

محيط أو سرّ، وأشكال مختلفة من الضوء. لا تتأوهي! أنا بداخلك والحبّ نهر يبحر في كامل جسدك، وهو أيضاً دمعة وعهد وشوكة أو ربّما مصباح لم يتسنّ لنا إطفاؤه عندما ذهبنا.

منذ أية لحظة يئنّ هذا اللحن بالجراح على القيثارة؟ حنين يتيم، يطلق الشرر على القمم حيث تركت جداولي وخرائطي ودواتي، وساعات الصيف الزرقاء، والعذراء التي قد تكون أمّي وقد لا تكون. مداعباتي بقيت عليك كل العمر. هذه السكينة التي ما استطاع فهمها علماء الآثار. إنها كمريض من عالم الأشباح حيث يرقد الماضي أو القلب الذي غلبته الكروب، ونحن نعيش في صباح الآلام الحارّ، وانعكاس الخريف بينما تتساقط الأوراق، والمرآة تنظر إلينا.

يتربّص بنا الموت دائماً في وسط الطريق، لكننا نجد أيضاً يداً ممدودة كلّما مررنا وأمامنا ينبوع يروي العطشى. أي اسم يكون للحب في لغة أخرى إن لم يكن الكلّ، وأي وجه سيكون لقناعكِ إن توقّفتِ عن الضحك وتوقّف هطل المطر خلف هذه النوافذ ونحن الآن بعيدون وفي الشارع مشاة فرادى؟

كلّميني! من كانت تلك التي لها نظير عيني وانا أحبّك، وتقلّد سحنتي اليائسة وتقول ما أجملك وأنت ترتدين هذا الفستان الأحمر، من كانت؟ قولي. تكلّمي عنها، أنت عرفتها أكثر مني، وأتحوّل إلى نمر عندما أفكّر فيها، هي وعاء السعادة والعذوبة وأفق المستقبل وعتبة العدالة الابديّة وشعار الحريّة، وأرض النار والكلمات المتضامنة، لغة

الأخوات الأحادية المعنى والمياه الصافية والجغرافيا المظلمة التي لا اسم لها، الساحل الأسمر والأرض الحمراء.

يأتي الموت بعينيه المعصوبتين ونظراته الصفراء، إنها الكلمة الأخيرة والحدود العمياء. وتنحدر دمعة نحو الفراغ. أين سيعبق تنفّسها؟ وأين تضع بصماتها؟

ما الذي أتى بك؟ إنّه الليل، إنّها تمطر، وأنا امرأة، ما زلت امرأة وما زلت أتنفّس. دعيني أعبر إلى ما وراء الوقت وخلف الغروب. أيّها النهر الجهنّمي! ابتلع كلّ جسدي! لقد أغمض الإله جفنيه، ووحدكَ أنتَ الموت تعرف المخبأ، بينما يقترب فارس ويبتعد آخر، وأبقى أنا أنتظر وسط الدماء، وحياتي في الحضيض، لعلّك تأتِين!

احميني من الجميع، أنت التي لديك اسمي وجسدي، احميني من نفسي ومن الآخرين، بعيون وسط النهار والألفاظ البسيطة. احميني من السماء ومن الهاوية، من الأشياء كلّها، من الشعب ومن الوطن. احميني من الغضب ومن الحزن، ادفعي عنّي! هنا ينزل الحبّ من عربته السماويّة، استوقفيه! افتحي رجليكِ البيضاوين حتّى تنساب الألبان الجوفيّة. ارفعي رموشك حتّى لا تري الموت، أعطيني يدك أيتها الرفيقة، زهرة عطرة بين السرخس. سترين جنينك بالخشخاش عندما أموت، وصنم من هواء سينتصب وسط الصمت إذا أنا متّ، وقطع من الليل وبوصلات تائهة إذا لم أمت. إنها الجواهر، بلسم وهذيان. بيعيني فقاعات مياهك الراكدة ووجهك المستحيل وصباحك، فأنا أموت.

قلّدي لي البحيرات، والكسوف الوهمي، والشعر الجامع، كلّ ما لم أكن ولم أرَ ولم ألمس ولم أسمع ولم أتذوّق، كلّ ذكريات ميلادي التي لم أتمّها، وإن ما زلت أموت وأحبّ.

وستقولين لي حبيبتي، حياتي، امرأة للأبد ووطن للجميع: ما زلت أشعر بشفاهك على شفتيّ، لقد متّ تواً، وسأعلم أنك تحبينني وأن موتي هو موتك وموت الجميع، موت شامل يأتي على هامش الوقت، يشتعل بطنه من لا شيء، بزهور اللوتس، وعند العتبة، في الساعة التي ينطفئ فيها النهار في قلب الانسان الحميم. سأكون فيك دون شك كما سأكون يوماً تحت التراب وعيناي مفتوحتان والحبّ على شفتيّ، والراية نفسها والذكرى نفسها سترفع صوتي على الصاري المشتعل، سترفع ظلّي وتصل به إلى عنان السماء التي خسرتها في صغري، ولن يكون صمتي صمتاً في أرواح الجميع.

دخل فرانسيسكو خافيير غونتر ليستحم ووقف على الباب مبهوراً. كانت قطع الحمّام من المرمر والخزف الفاخر والبلاتين. إنّه إرثٌ من عهد الحجارة والضجيج. أتمّ غونتر تمارينه الرياضية المعتادة. بعد سنتين من بلوغه الستين عاماً، كان يحافظ على قوامه. انتظر دون جدوى حتّى يلطّف البخار المتصاعد جوّ الحمام. لفّ جسده بالمنشفة وطلب من زوجته أن تضع له المدفأة إلى جانب السرير. سحبت إليزا الغارقة في عالمها وأشعار سولي بين رجليها شريط المدفأة وقدّمتها

له. كان قميص نومها الحريري يبرز بكل تيه نهدي الفارسة السمراء اللذين يسيل لهما اللعاب.

- شكراً! قال غونتر، وهو يقف عند باب الحمّام، وأضاف بنبرة أكثر رصانة: - أظن أن الوقت حان للاتصال بالقصر، تعلمين بأن الجميع ينهضون باكراً هنا.

بدأ الاستحمام، وجلست إليزا على حافة السرير المائي بجانب الهاتف. على طرف الطاولة كانت الخادمة قد وضعت طبقاً ذهبياً من فاكهة الجريب الفروت والخبز المحمّص والقهوة الدكناء وبعض الجرائد المحليّة. كانت هناك جريدتان مستقلتان وثالثة رسمية. كانت صور غونتر تظهر على الأولى والثانية. لقد وصل رئيس البنك الدولي في زيارة خاصة. كانت إحدى الجريدتين تذكر بنبرة وطنية معاكسة لتوجّه العاصمة بأن الزائر قد ولد في هذه الأنحاء، وهو ما زال يتكلّم لغته الأم، وكم يسعده سماع أغاني خوليو إيغليسياس في مكتبه في بلد الشمال الكبير، وخصوصاً أغنية «أين أنت الآن، كونياتائي». الجريدة الأخرى، وهي أكثر سخرية، أشارت إلى أن غونتر قد تحوّل إلى أميركي منذ أكثر من ربع قرن، وأنّ الرئيس فورد قد سمّاه سفيراً في بوخارست في رومانيا، وأنه حتّى تأخّر بدفع مستحقّات بلدية فيياريكا للاعتناء بقبر والديه في مقبرة البلدة. لقد تضمّن مقال الجريدة رسماً بنفسجيّاً لإليزا مع التعليق التالي: إليزا لينش دو غونتر، مولودة في بنسلفانيا وأستاذة جامعية في جامعة مريلاند. أمّا الجريدة الرسمية فلم تأتِ على ذكر الموضوع.

ارتشفت إليزا القليل من القهوة بينما أشارت ساعة المنبّه إلى التاسعة. أخذت السمّاعة وطلبت الرقم الذي أعطاها إيّاه أحد الموظّفين عند هبوط الطائرة ليلة أمس.

لم تطل المكالمة أكثر من ثلاث دقائق. خرج غونتر من الحمّام مرتجفاً ومتمتماً وهو يلعن الصقيع.

- لقد تكلّمتُ! قالت إليزا. -وهو ينتظرك بعد ساعة.

ارتدى غونتر ملابسه الداخلية وجواربه وهو يقفز من زاوية إلى أخرى، ثم عاد بعدها إلى الحمّام ليبحث عن المشط. نظر في المرآة: يكاد يكون أصلع! تجمّعت بضع شعرات شقراء ورمادية خلف أذنيه. بضعة أخاديد ذهبية أظهرت ذبول عينيه وشفتيه مثل قرصان عجوز ينظر بقسوة وغرابة إلى زرقة السماء. حلق ذقنه على عجل وسكب الكثير من العطر كعادته دائماً. أنهى لباسه وخرج وهو يعقد ربطة عنقه سائلاً: أيبدو جيداً؟ وإليزا كعادتها، أومأت برأسها دون أن تنظر إليه.

- ماذا تقرأين، إليزا؟

- هذه الجرائد! تتكلم عنك.

- وماذا قالت؟

- لا شيء، سيرتك المهنية.

- لا شيء عن الفتاة؟

- لا.

- يا لها من جبانة!

- لماذا؟ وما يدريك كم من الضغوط يمارسون عليها.
- نعم، كلّ هذا لا يتعدّى كونه لفتة إنسانيّة.

أغلقت إليزا الجريدة وغرست ملعقتها بفاكهة الجريب فروت. أحسّ غونتر بطعمها الحامض في فمه وهو يستودعها، وسمعها تتمتم بإنكليزية عذبة خلف ظهره. كانت تستعمل هذه اللهجة في المناسبات الرسمية.

كان المكتب الضخم والمريح لحاكم مقاطعة كورينتس يتحاشى الأناقة إلى تواضع عسكري. كانت تزيّنه لوحات لأشجار اللاباشو في الربيع وقد ترك الغبار عليها شقوقاً، ولوحة زيتية للجنرال غالتييري مبتسماً. كان ضوء الشتاء يعبر ستائر المكتب السكّرية، ويُسمع في الأسفل الصدى الأجش لعبور المركبات. أصغى غونتر إلى الحاكم، وهو يجلس في مقعده الجلديّ، يتدلّى منه سرواله ذو ماركة دي لا رينتا الشهيرة.أصغى غونتر إلى الحاكم الذي بدا له في مثل عمره، ولكنه أكثر بدانة، يلوّح وبيده إضبارة سميكة. لم يتمكن غونتر من النظر إلى الإضبارة، لكن، وحسب الحاكم، فإن الإصدارات والإخباريات دامغة بحق الفتاة، التلميذة ذات الثمانية عشر عاماً، فهي من أتباع ماو، يهودية، مهووسة بإشعال الحرائق، ماسونية ومن أنصار البيئة، غريبة الأطوار، ليبرالية وماركسية، منحرفة تتعاطى المخدّرات، رجعية ودون مال، ساندينية ومن مؤيدي منظمة أيتا الانفصالية، لا جنسية لديها وشاعرة!

في هذا البلد تبدو الشمس كصرخة، والحياة كلمة لم تقل بعد (ليبيرو دي ليبيرو).

بعيداً عن منتصف النهار المنبعث من أضلعك، من عذوبة شفتيك اللتين لا تنضبان، من طاقة أحلامك الصابرة، من الارتفاع المعتدل للشفق الذي يحيط بك كالزفاف، من جلد أسرارك العصية، من قلعة دمك العنيدة، من مفاجأة زواياك المتوحشة، بعيداً عن عاداتك البسيطة كعاملة، من العادة الشمسية لمجموع صباحاتك، من البراءة الاستشهادية للشرنقة، من أغانيك الشعبية الأزلية، من صمتك البعيد الموروث، من أشجار الليمون، من القيثارة والجرس، من أرضيتّك الثائرة والمؤجرة، من فضاء سقفك الأزرق الواسع، من الشعور العاطفي لضمّك بين الذراعين، من سعادة تقبيل يديك، من اليقين بأن نصبح معاً. نستمر نحن.

أيام من عيون عمياء على خطّ البحر، والساعات دائماً هي نفسها، أيام دون حريّة (بول إيلوار). مستمرون على الساعات التي لا تجرح أوقاتك، وفي اللهجات التي لا تسمعها مقاطع ألفاظك، وفي الزوايا التي لا تحرسها ظلالك، وعلى الأرصفة التي تتجاهلها فصول صيفك، في مكان لا تحلم به دموعك، في جفون ذاكرتك الزرقاء، في فراغات كهربائية متباعدة، وفي حنين إلى كوابيس عنيفة ومظلمة، وجراحات صامتة مشتعلة، وصرخات قديمة حدودية، وعلى صخور ضالة مجتمعة، وفي ضرر أوحد لا يقاس، وفي انتظار أن تعودي للاهتمام

بنفسك، وفي الأمسية التي تتبّعين فيها آثار قدميك، وعلى باب شمسك المحررة وفي الكلمة الواضحة لعذوبتك التي لم يمسها أحد. نقف على أهبة الاستعداد.

الدم والسماء والخبز، والحق في الانتظار، لكل الأبرياء الذين يكرهون الشرّ (بول إيلوار). هذا نداء لتلتحقي بنار الحياة وتتطهّري بنارها الرهيبة. لترمي بنفسك في نهر الآخرين وتتعرفي إلى نفسك في مجراه الدافئ. لتشربي السعادة بجرعة واحدة وتتمددي في هذا الامتلاء، لتعانقي أوّل من يمرّ وتدعيه للمشي إلى جانبك، لتنامي في عناق هادئ ولا توصدي باب منزلك، لتصبحي وعيناك متورّمتان بعد ليل من أرق الأحلام المنخورة وعلى الرغم منه تتوقين سعيدة إلى بلوغ النهار مبتسمة لسماع هذه الفتاة التي ما زالت تشخر قليلاً. لأنك تمتلكين الحق في الخبز وفي الكتاب وفي الهواء وفي الحبّ الهارب وفي الأمل، وأنا أدعوك باسمك مرّة أخرى في هذا النداء، وأعلنك عالمية هذا الأسبوع.

إن كنا لا ننام فذلك لشهود الفجر الذي يثبت أخيراً أننا ما زلنا أحياء (روبرت ديسنوس). عندما ينبلج النهار ستخلق شرايينك حكاية دم، وجلّاد ماكر سيتعرّف إلى النسيان، ويدان متعبتان ستخطّان الحياة، وستعود عيون قديمة من الخوف، ومفتاح صدئ مهترئ سيحرر طائر الحسّون من القفص، وباب مصفّح سيتطاير شظايا، ودمية مظلمة ستكفّر عن خطاياها، وياسمين واعية ستنزع الشتاء، وجنادب لا تعدّ

ستغني دون كلل، وعالم رياضيات سيوزّع اليراعات باكراً، وسنجاب مغفّل سيضحك كالمجنون، ورجل بدين متحمّس سيتصبب عرقاً وهو يرقص البولكا، وسمراء فاتنة ستختار لصاً(براءة جميلة ستصبغ فخذيها بالأحمر)، وحافلة مجّانية ستوزع الطوابع، وكارثة هائلة ستؤسس للسعادة، وسيكون هناك الكثير من الناس في كل مكان (في الواقع، كلّ الناس)، وسيكون هرج ومرج كبيران كالسيرك وطفل مدهوش سيسأل عن مولده والى أين أتى بعد كل هذا الانتظار. عندئذ سنرجع.

لكن لن يبقى واحد منّا هنا. لم تقل بعد الكلمة الأخيرة (بيرتولت بريخت). جميعنا. كلّ الذين عانوا اليتم والنسيان والعذاب والمنفى والافتراءات، أولئك الذين ورثوا الجحيم والعذاب والعطش والمرض والصليب والغضب، أولئك المحاطون بعتاة الخارجين على القانون، والجيف الشريرة والسكاكين الرشيقة، أولئك الذين يحلمون بتغيير تعاسة الأنقاض والأنقاض والأنقاض، والذين صارعوا الموت إلى الموت، والكراهية والخزي الهائل للقلب الأسير، ووافقوا وهم يرتجفون على ورقة صامتة، وموعد سري، واسم صامت، وحلموا بإلغاء الغباوة والحداد، وبعالم إنساني دائماً، وبشفاه متّحدة وعودة باكرة، وبحياة أبدية، هكذا، مع كلّ هذه الحجج التي لا تقهر، والحب والصفاء والأزهار والشعر الذي ينتظر نهاية هذه الليلة الطويلة المؤلمة.

سوف ننتصر.

- الموضوع مسألة إنسانية بسيطة...

- هنالك معضلة قانونية، والأمر بيد القاضي المختص. نريد احترام القوانين والمعايير. وخصوصاً المعايير.

- لكن، سيدي الحاكم، إن العفو من شيم السادة. لم أتعاطَ السياسة يوماً، وخصوصاً بين هذه القبائل. حكومتكم تعلم بأني لم أرفض لكم أي قرض. لكن، ماذا تريد مني أن أفعل؟ إنها ابنة شقيقتي، وهي أرملة مسكينة. لا أدري ما الذي تعانيه الفتاة. أرغب في اصطحابها إلى منزلنا في واشنطن. زوجتي تعرف طبيبة نفسانية ممتازة، وهي تنتظر لمعالجتها. يبدو لي الأمر مسألة إنسانية بحتة.

- نعم، أتفهّمك يا صديقي، أضع نفسي مكانك. أنت تعمل كلّ ما في استطاعتك. إن الرئيس نفسه على علم بالأمر. ونحن نريد مساعدتك، عليك بالصبر.

- عن أي صبر تتكلم؟ ما دمتم لم تسمحوا لأمها برؤيتها.

- دع الأمر بيد الله. عد إلى الشمال. إن الجنرال مشغول جداً بالحرب، وهو يكره الضغوط والاستعجال. بعض المنظمات المشتبه فيها (منظمة العفو الدولية وعصبة الحقوق الإنسانية)، الكثير من الضجيج. عندما يهدأ كل هذا، فإن القاضي سيعدل في حكمه، متسلحاً بالقانون.

- ماذا أيضاً؟ سألته إليزا عند باب المنزل، وجهاز التدليك الهزّاز

في يدها ما زال رطباً. أخذها بلطف من يدها ودخل بها إلى المنزل، حيث سكب لهما قدحين من الويسكي.

- سيكون شتاء طويلاً! قال غونتر.

5

راح يجوب المدينة هائماً في سيارة الفولفو المستأجرة. بدت المباني الشاهقة المبنية من الصلب والألومينيوم التي انتصبت بعد الازدهار الوهمي كأنها تحتقر منازل الطوب مثل الأقارب الفقراء. بائعات المفرّق، بائعات الحليب، بائعات التذاكر، شرطيات المرور، بائعات السجائر، نادلات المطاعم، موظفات المحال التجارية، ممرضات، مغنّيات، سائقات شاحنات، مدرّسات باللباس الأحمر والأبيض، راهبات، شرطيّات البلدية، وكلّ الألوان، كما كان الحال دائماً: النساء يعملن والرجال يلهون!

كان يعلم ذلك تمام العلم. لكنه لم يكن قد رأى هذا الكمّ من الشابات اللواتي يعانين خيبة الأمل والعنف. فكّر غونتر لبرهة، اللعنة، سينتهي الأمر بالاشتراكية تسود في هذا البلد.

ترجّل من السيارة، ومشى ببطء في شارع الثلاثين من شباط/ فبراير، شارع النصّابين وبيوت الدعارة والمصارف، الشارع الذي يكرّم ذكرى الاستقلال. جلست سوليداد ذات ليلة إلى جانبه في منزله في نيويورك، على حافة المسبح، لتتذوّق كأساً من الكونياك بعد العشاء.

أخبرته بتجربتها في الصيف الماضي في نيويورك. تذكّر غونتر ذلك بكلّ وضوح وحتى بكثير من الحنان.

- أنت هندية صغيرة طرية العود! قال لي أتيليو وهو يأخذ حقيبتي في المطار. - لذلك سأقوم بتدريبكِ وتعليمكِ. أتيليو من بلدكِ يا خالي. لكنه مربوع القامة ووجهه أحمر. يبلغ حوالى الخمسين عاماً من العمر، وهو يعيش في نيويورك منذ أكثر من عشرين عاماً. كان والدي حلّاقه المفضّل وصديقه. اعتادا الذهاب معاً إلى ملاعب نادي السِرّو. كتب إليه والدي ليساعدني على البدء بدروس الإنكليزية والمنحة الدراسية.

- إذن أنتِ ترغبين في دراسة علم الاجتماع عندما تنهين المدرسة! قال أتيليو لدى دخولنا السيارة، وكانت سيارة أمبالا خضراء قديمة. - هناك إذن هذا الاختصاص عندكم.

- نعم، تستطيع قول ذلك! قلت له.

- لم يكن هذا متوافراً أيام شبابي. وبم ينفع هذا الاختصاص؟

- حسناً، لدراسة المشاكل الاجتماعية، المرحلة الراهنة، وكل ذلك. هناك هيكلية كاملة.

- إنها تفاهات لا جدوى منها. هذا يمكن تعلمه في الشارع. إن الكتب لا جدوى منها. هنالك لم يوجد قط علم اجتماع. لم يكن هناك سوى العاملين بالكيمياء. هنا لا يصغي أحد إلى علماء الاجتماع. أحد عمّالي يدرس علم الاجتماع. جلّ ما يعلم أنه يشرب البيرة خاصتي.

لأتيليو مطعم يونانيٌ في حي البرونكس، زبائنه من أميركا

اللاتينية: من الدومينيك وبورتوريكو والمكسيك. كما يمرّ احياناً أحد الأميركيين في ساعة متأخرة. يبدو أنه اشتراه من أحدهم من الهند، بواسطة قرض. لقد كفله شخص يدعى كاردوزو، من مدينة ماراكايبو. كانوا يتبادلون الأنخاب أيّام الجمعة. لقد شرح لي أتيليو استحالة فتح مطعم بلديّ، فالأميركيون يحبّون سندويشات جيروس، وهم لم يتذوّقوا قط طبق «المبيجو» ولا حتى «السوبّا» الباراغوانية، وهي صلبة وليست حساء.

- حسناً! قلت له، عندما توقّفنا عند أولى إشارات المرور. - لقد كان هناك بعض علماء الاجتماع. جدّه، دون ايغناسيو ا. بانّي مثلاً، كان من الرواد الأوائل المهمّين.

- كان ممثلاً مسرحياً! وناولني سيجاراً كوبياً مصنوعاً في هندوراس. -والبقية تفاهات، بكلّ بساطة.

- شكراً، لكني لا أدخّن.

- وهل لديك أيّة عادة سيئة؟ لا بد أنكِ تتجرّعين الكثير من البيرة.

- القليل، أحياناً. ذلك يسبب لي البول بكثرة.

- توخّي الحذر من الأميركيين. أغلبهم مصاب بالهربس، وهو نوع من القروح الرهيبة. أكثر ما يعجب الأميركيين هو أن تُفتح الأرجل، ولا أقول لك أكثر من ذلك لأنك فتاة.

أتيليو عازب عتيق، بطبيعة الحال، ولديه اشتراك في مجلّات

بنتهاوس وبلاي بوي، حيث أخبرني بأنه قرأ أخيراً مقابلة مع أحد أهل الساحل الذي فاز بجائزة سويدية لإلقائة المثير للنكات اللاتينية القديمة.

- حسناً! قلت له. -عندي صديقة بانتظاري، ومنحتي الدراسية تدوم شهراً ونصف الشهر، ولا أدري ان كان سيسعني الوقت.

- الواقع أننا كالكلاب نهوى المعاشرة. وأنت لن تستطيعي الدراسة كل الوقت. ولا ضير في ذلك، ولا مجال للعودة عنه بعد إتيانه. عليك بالحذر، واستعمال الواقي.

كنا نجتاز جسر بروكلين في أثنائها، وكان أتيليو ينظر إلي بطرف عينه ليرى إن كنت مهتمة بما يقول.

- هذه مدينة ضخمة! تنهّد أتيليو. - مثل بوينس أيرس، لكن دون أن يكون فيها الكثير من الأرجنتينيين المشؤومين. لا يتكلم فيها أحد الانكليزية تقريباً، ولا الغوارانية، عليك إذن التعامل بالاسبانية.

وصلنا أخيراً، وأعطاني غرفة فوق مطعمه الصغير، حيث كان ينام هو أيضاً.

- مكيّف الهواء لا يعمل! وواساني من رطوبة شهر آب/ أغسطس. - سيأتي أحدهم لإصلاحه يوم الإثنين.

حسناً، أخذت حمّاماً سريعاً ونزلت إلى المطعم. كان يغصّ بالزبائن، كان يوم السبت. كان الزبائن يأكلون ويتجادلون ويستهلكون جداول من البيرة، وكانت القوارير تتمايل على أطراف الطاولات

المهترئة. كانت طاولة البلياردو تتأرجح وعلى شاشة التلفاز تتناوب الرغوات والمنظّفات وشركات التأمين وطعام الكلاب وسيّارات التويوتا وصلصة المايونيز. كان أتيليو يضع قلم حبر «بيك» خلف أذنه ويراقب الصندوق ويناول الأطباق التي أعدّتها فتاة بدينة ذات شاربين أشقرين في المطبخ إلى شاب أسود نحيل يدرس علم البيرة ويقضي على كلّ علم الاجتماع. أجلسني إلى طاولة بالقرب من الحمّام (حيث تفوح رائحة المنظّفات بالصنوبر). أحضر لي طبقاً من اللحم والبطاطا المقليّة والسلطة والخبز اليوناني وقارورة مثلّجة ووضع الأطباق على الشرشف ذي المربّعات الحمراء الكبيرة. ذلك المشهد أصابني بالجوع.

- وكيف حال كرة القدم، لم أذهب إلى الملعب منذ زمن. لقد ذهب أرّووا إلى اسبانيا وأصبح من الأغنياء. كانوا ليقولوا عنه في البرازيل بيليه آخر. نحن اتّهمناه بأنّه مخنّث! أتتصوّرين ذلك؟ بكلّ تأكيد لم يتغيّر شيء إلى الآن.

- حسناً، لقد فازت الضفّة السوداء ببطولة أميركا.

- هذا لا يهمّني، الضفّة أسطورية!

- أنت تبالغ، سيد أتيليو. هذه بالتحديد من السمات التي تساهم في فرقتنا لأتفه الأسباب، من ليس معي فهو ضدّي.

- أنت فيلسوفة. ادرسي المعلوماتية، إنها علم المستقبل. اغتنمي الفرصة وإلا ستموتين من الجوع. نساء هذه الأيام كالمجنونات، يضعن

الكثير من الأطفال، والأرض ستضيق بنا حتماً. ادرسي شيئاً عملياً، يدرّ عليك عملة صعبة.

- لكننا هناك نحتاج إلى الأشخاص. كلّ شيء ينهار من حولنا.

- أنت ابنة ابيك! ابنة أبيك دون شكّ! تماماً مثل والدك العجوز. أيّ نوع من الأشخاص كان سنابريا؟ كان شيوعياً ابن عاهرة.

- لم يكن شيوعياً، سيد أتيليو، كان دائماً من مناصري حركة شباط/ فبراير.

- بالأحرى شيوعي، لا علاقة للأبراج بذلك. أزرق أو أحمر! لم هذه المهاترات؟ لكنه كان رجلاً عظيماً، والدك العجوز. كنت أحبّه كثيراً.

- شكراً، لكنّي أؤكد لك بأنّه لم يكن شيوعياً. كان يذهب للصلاة في الكنيسة. في الجمعيّة الأخيرة صوّت لمصلحة الدون آلاراكو. هل أنت راديكالي؟

- يا للأمل!

- أنت من الحزب الأحمر إذن!

- أبداً. أنا من نادي السرّو.

- هذا ليس حزباً، سيّد أتيليو، سِرّو نادي كرة قدم. إذا اتّبعنا تحليلك للأمور، فأنت أيضا بلشفي.

- أنت متغطرسة يا فتاة! ألم تسمعي قط عن أدريانو الكبير؟ لقد أسس النادي البنّي الأزرق ليتحاشى استفزاز الألوان.

- سمعت شيئاً من هذا القبيل. هذه مشكلة اجتماعية، إنها المرحلة الراهنة!

- دعك من المواعظ وأكملي طعامك. ألا يعجبك سندويش الجيروس؟ قد آخذك لاحقاً إلى جادة الـ 42. اليوم السبت هو أسوأ الأيام هناك. سترين هرجاً ومرجاً كبيرين! لا أستطيع إلا أن أفكّر كيف يريد رئيس البلدية كوش إزالة كلّ ذلك!

- الطعام شهيّ جداً، سيد أتيليو، شكراً لك، لكني متعبة قليلاً، من الأفضل أن أنام.

- لقد وضعت التلفاز في غرفتك، سيعرضون الليلة مباراة لروبرتو كابانياس، وستعرض باللغة الإسبانية كاملة.

- شكراً، ولكنني أودّ تحسين لغتي الانكليزية.

- عليك بقنال HBO للأفلام إذن. طرزان رجل الغابات. وتلك المتوحّشة الجميلة، بو ديريك، وإن كانت مؤخرتها صغيرة، لكانت أفضل لو أنّها أكثر اتساعاً، هذه المنطقة... أين تعلّمت الانكليزية؟

- في المركز الثقافي.

- يعلّمون الإنكليزية الآن؟ في تلك الأيّام كانوا يقدّمون المهرجانات. كان يغنّي البولكا بالغوارانية ثلاثة من اليهود، بدون قيثارة، وأحد الأميركيين يعزف آلة طرب غريبة، البلاليكا، تشبه العود.

- لا أدري عن ذلك، لكنّهم الآن يعلّمون الانكليزية، ويهيئون التلاميذ لامتحانات التويفل.

- لا جدوى من ذلك، إنّها الإمبريالية، دون مواربة.
- لكنّك رجل تقدّميّ!
- لنقل ذلك. كنت أملك العام الفائت سيّارة تويوتا، والآن عندي سيّارة أمبالا.
- كنت أقصد تعبيرك عن الإمبريالية، إنها المرحلة الراهنة، بكلّ تأكيد.
- ما قصدته بقولي عن العزف بالآلة الغربية، بدلاً من القيثارة.
- كانت تلك آلة عزف روسية.
- هي كذلك! انتظريني لحظة، سأطرد هذا الأسود اللعين. يظنّ أن بإمكانه أن يشرب حتى الثمالة حيث يشاء لمجرد كونه من قدامى محاربي فيتنام، الأسود الوقح!

لقد أتعبني لأسابيع ثلاثة بنظرياته الملتوية عن سخرية الأقدار لأوضاع المهاجرين من أبناء بلدنا، مستوحاة من عقود في العالم السفليّ في نيويورك. أعطوني بعدها في المدرسة غرفة يشاركني فيها طالب من تايوان. كنت أتّصل بأتيليو عبر الهاتف، لكنّي لم أتمكن من رؤيته حتى نهاية الفصل الدراسي. ذهبت لوداعه إلى المطعم، كان خاوياً تقريباً، وكانت أنغام السامبا بصوت ميلتون ناسيمينتو تصدح في مكبّرات الصوت. فتح أتيليو ذراعيه.

- أليس لديك الرغبة في البقاء؟
- لا أدري سيّد أتيليو، الإقامة هنا مثيرة، لكنّ شعبي هناك!

- هذا مؤسف، من يدري ماذا يخبّئ لك القدر هناك، وعلم الاجتماع. على كلّ حال لوالدك عمله هناك. تعملين في صالون الحلاقة؟

- الحقيقة أن أبي لم يعلّمني مهنته، كان يريد بأن أكون أكثر طموحاً.

- لو أنك تدرسين الطبّ! الأطباء لا يموتون أبداً من الجوع. بإمكانك جني الكثير من المال هنا. قد تستطيعين التباهي بسيّارة كامارو فاخرة!

- وأنت، لماذا لا تعود، سيّد أتيليو؟ إن بعت المطعم قد تستفيد من سعر صرف الدولار المرتفع، بالتأكيد سيكون وضعك جيداً هناك.

- أنا لم يعد لديّ وطن، تماماً مثل ما قال أرتيغاس. هل يعجبك تمثاله قبالة المدرسة الألمانية؟ إنها منحوتة رائعة للنحّات رودو! كلّ الطيور تحطّ هناك، ويبدو أرتيغاس مجنحاً. إنه تمثال نمر، يا جميلة... والطيور تغطّي رأسه بفضلاتها، والكلاب تغسل قدميه ببولها! لن تَجِديه وحيداً ابداً!

كان يبدو ثملاً بعض الشيء، وتابع بهذا المونولوغ إلى هبوط الليل. لكنّي لم أظهر استعجالاً، كل شيء كان جاهزاً. في النهاية أجهش بالبكاء. أقسمُ لك، خالي، لم أر قط شخصاً يبكي، كنت أظنّ أن رجال الباراغواي لا يبكون. كانت الفتاة البدينة تنظر إلينا بازدراء، والنادل الأسود يتابع رقصة العمارة الهولندية ضاحكاً.

- هل أستطيع مساعدتك يا سيّد أتيليو؟ قلت له.

مسح دموعه بأربعة عشر منديلاً من الورق، وحرّك رأسه بالنفيّ وظل صامتاً لوقت طويل. صعد بعدها إلى سيّارة الكامارو، التي اشتراها هذا الصباح. أخبرته بأني رأيت التمثال، وأن القيادة بهذه الحالة فيها مخاطرة. لا أدري كيف وصلنا. كان يتصبب عرقاً برائحة البيرة، ويمسح بالقارورة الباردة على جبينه. أشار إلى الشعلة الحجرية في الأعالي، كانت شديدة الإضاءة، وقال لي:

- سفراً سعيداً يا ابنتي، واعذريني. بالتأكيد لم يخطر على بالك بأن اليوم هو يوم 30 شباط.

6

انقضت أسابيع وأسابيع، وكلّما مرّت أمابولا لتأخذ ثياب ابنتها لتغسلها، وجدت أشعاراً.

- أنت من الأدباء! وتعطين الأشعار لإليزا. في إحدى المرّات حاولت قراءتها، تدفعها الحشرية. قرأت قليلاً وتوقّفت، وأعادتها إلى أمها.

- تبدو هذه الأشعار لصديقتها! تمتمت بتأثر.

خلال هذا الوقت، كان رجل قصير القامة، حيوي المظهر، من الطبقة المتوسطة، حذر، يناهز الثمانين من العمر، لا يرفّ له جفن كأنه قناع هندي، يكابد الشيخوخة بتفاخر في بوينس أيريس، يستقبل غونتر بالحفاوة نفسها التي قد يستقبل بها كاهن الرعية بابا روما.

- ثمة حل للأزمة! كان يتنهّد بسبب الربو خلف مكتبه. - إن نقصان عائدات رؤوس الأموال سببه تقليص تدفّق الاستثمارات في الكيانات الثنائية البلد. يمكننا القول أيضاً بأن ندرة الاستثمارات الخارجية هي أيضاً أحد العوامل الصغيرة.

– الصغيرة؟ قال غونتر. – من فضلك سيّدي، أتظنّ بأنّي لا أقرأ المعطيات؟ إن كنتم لا تستطيعون تحمّل عام آخر من العجز في ميزان المدفوعات، أليس كذلك؟ والتمويل التضخّميّ للميزانية العامة الآتية. أتذكّر واقع العام 1980، فاقت نسبة الاستثمارات الداخلية الاجمالية الثلاثين بالمئة من الناتج المحلّي الاجمالي.

– الثلاثون ونصف بالمئة! تمتم الآخر بغصّة وعجز، مقلّباً بين أصابعه النحيلة الذابلة قلم باركر ذهبياً حُفر عليه اسمه، كان غونتر قد أهداه إيّاه.

هكذا تكون هذه الأيّام التي تئن فيها الساعات، وتسافر فيها المساحات مثل ذكريات قاتمة، والغيوم فيها دموعها مظلمة، وللراديو ضجيج حزين وحيد ومرير. لم يبقَ عندي تقريباً ذاكرة ولا آمال. لقد رميت مرساتي عند نفسي بعيداً عن الجميع. لم يبقَ لي صوت أتكلّم به مع ظلّي، والكلمات صعبة وخشنة تشبهك. يذكرونكِ دائماً.

كيف يمكن أن يفصلوا بيننا، حبيبتي؟ هكذا! بهذه الطريقة العنيفة، الطويلة والسيئّة!

لا نسبب الأذى لأحد إن تبادلنا القبل قليلاً، وإن بقينا أو ذهبنا وأيادينا متّحدة ونحن نتشارك في الصمت وجواز السفر. كيف يمكن، حبيبتي؟ أن تكون كل الصباحات الآن الوحدة نفسها والحلم نفسه؟ كيف يمكن، حبيبتي؟ ألا توجد نافذة غير هذه النافذة التي يصمت عندها الهواء ويبدو المشهد من خلالها حجرياً رمادياً لا يتغيرّ! كيف

يمكن، حبيبتي؟ أن لا يكون هناك أرصفة وساحات ومنتصف النهار ومعجزات ومحادثات بسيطة. كيف يمكن حبيبتي أن تكون الحياة هكذا؟ كيف يمكن، حبيبتي، أن تمرّ الأيّام دون أن تتحرك وألا يمكننا الخروج من ذواتنا؟ نحو الحرية المعشوقة الصغيرة التي لا أدري كيف تخفق إلى الآن في هذا السجن من غير سجّان، دون موسيقى ولا أيد؟

هكذا هي الأيّـام التي تئنّ فيها الساعات. أتخيّلكِ صامتة، تنتظرين. أتخيّلك مكروبة أيضاً في هذا الانتظار من الأرق والكوابيس ويداك فارغتان. لا شيء سواي في ذاكرتك، لا شيء غيرنا مجتمعتين في الدموع رغم كلّ شيء. كيف يمكن حبيبتي أن يكون اليوم الأحد دون أن نستطيع أن نركض معاً في الهواء؟ كيف يمكن حبيبتي، رغم هذا الغياب، أن يطلع صباح يوم الاثنين والأبواب مغلقة؟ هكذا هي الأيّام التي تئنّ فيها الساعات. لم يعد عندي كلام، إلا بعض المقاطع من الألم والصمت. هذه الأيام ذات الفصّالات الصدئة فقط. هذه الوحدة التي لا تنتهي فقط. هذه الساعات التي تئنّ فيها الأيّام فقط.

- يبدو لي أنه لا بديل عن اللجوء لمزيد من التعاقدات بالقروض الداخلية، والخارجية! لا سيما إن كانت الضرائب المجباة لا تكفي لتغطية النفقات العادية.

- لا أستطيع الكلام دون أرقام! تمتم غونتر، وأشعل سيجاراً كوبياً شرعياً مهرّباً.

- قمنا بحساب الإيرادات الاجمالية بأقل من تسعين ملياراً. ربما وصلت إلى تسعة وثمانين.

- كم هي النسبة المئوية لإيرادات رأس المال؟

- حوالى الستة عشر ملياراً تقريباً.

- ثمانية عشر بالمئة؟ زمجر غونتر. - أكثر من ضعف ما تم توقّعه العام الماضي!

- لقد قامت وزارة المالية بحساب هذا الفرق على قاعدة امتصاص الموارد الصادرة عن المصرف المركزي، سواء على شكل سلفات أو وفق نظام سندات الخزينة نفسه.

ضحك غونتر بملء فمه بينما نظر الآخر إليه كئيباً.

- وماذا تريدنا أن نفعل؟ لدينا الكثير من النكسات لزيادة القروض الخارجية بواسطة المشاريع التي قد توافق عليها المصارف التي تموّل بالآجال المتوسطة والطويلة بفوائد معقولة، هذا واضح. أنت المسؤول عن هذه النظرية السخيفة بعدم تمويل عجز الميزانية التي تستعملونها على نطاق واسع في البنك الدولي هذه الأيّام.

- سخيفة؟! أنت لا تعلم ماذا تقول. لولاها لكنا الآن في طور الافلاس. عليكم أن تكونوا أكثر واقعيةّ!

لو لم يكن عندي هذا الحبّ لاخترعته. لن يستطيع أحد أن يحيا دون هذه النار. لن ينخدع أحد، كالأعمى منذ الولادة يتخيّل إشراقة

الفجر. هذا الحب أعطاني القوة في مقابل كل الأشياء. وسط القلق، مسمّرة بين القضبان، منفية عن العالم، مضطهدة ومشوّهة السمعة، تجرحني التهديدات، وحيدة كالأسرار دون أصوات ولا أخبار. أختبئ من الصقر الذي يشكّ بكلّ من حوله. لن يستطيع أحد أن يحيا بدون هذه الشعلة، بدون هذا الاحتراق المنيع، بدون هذه الحمّى المتضامنة التي تمقت الموت، بدون هذا الربيع الذي يفتح أعيننا، بدون هذا العطر المخلص الذي يفتح مسام جلودنا، بدون هذا الضوء المدوّي الذي يفتح شفاهنا، بدون هذا الحبّ الذي يفتح لنا أبواب الحياة.

كنت لأخترعك أنت، أحلم بك ترتدين أبراج السماء وطيور القبّرة، على رأسك تاج من الأزهار والقبلات، سخيّة كالماء وعذبة كالليل، شابة أبداً كالنهار وعاشقة كالنبيذ. من أجل حبّك يا حبيبتي أخترع العالم. لا أستطيع أن أتصوّر الزمان ولا المكان دون أن تأتي لملئهما بالموسيقى. أشعليني بين ذراعيك. من أجل حبّك أقتات، وفي حبّك الصامت عرفت الحنان، ومن أجل حبّك أشعّ بالحريّة أكثر من الهواء.

ذراعاك، المقيدتان إليّ كالذكرى، هما هذا المصباح الذي يبدد الظلمات ومفتاح الدمعات التي تغشى عيني. في هذه الوحدة التي لا تنتهي في هذا المكان الرطب أقرأ أخيراً خطواتي وكتاباتي وأحلامي. أكتشفك إلى جانبي، مرّة أخرى ودائماً لي ومعي. أكتشفك مبتسمة وتأتيني حتى أعماق روحي. أكتشف عندها كلّ شيء: الأمل والحياة

واليدين الممدودتين، والخريف دون هوامش، ونهر الصداقة الخالد، والحرية الصادقة التي لا رجوع عنها لقبلاتك وحركاتك وصمتك.

فليكفّوا عن وخزي بهذه القضبان، وليكفّوا عن الكذب عليّ أيّام الثلاثاء، وليكفّوا عن تمزيقي بأوراق النعي. فليكفّوا عن إغلاق الأبواب عليّ، وليكفّوا عن حرماني من الطعام وليكفّوا عن تعكير قيلولتي. لم أعد أريد النظر ولا أن ينظروا إليّ. فلينزعوا عنّي هذه النافذة المؤلمة وليمحوني من هذه المرآة اليومية. ليعيدوا إلي الحياة. هنا تنتهي هذه اليقظة. لا توجد هنا أيّة شاعرة. هنا سجينة تعاني وحدها، امرأة بسيطة وحزينة، وحدها بكلّ صراحة. لكنّها تنتظر مع حبّها الهائل.

- لقد خفّضت وزارة المالية تقدير النفقات الجارية بنسبة ثلاثة عشر بالمئة. لقد استدانت الخزينة بشكل بربريّ في المصرف المركزي، وأنت تعلم بأن هذا الدين هو لأجلٍ أقصر من القروض الخارجية.

- وهذا سيؤدي إلى مزيد من رفع الضرائب.

- وما الذي يمكننا فعله غير هذا، سيد غونتر؟ إصدارات مالية دون مقابلها من السلع والخدمات؟

- ولكنكم تعانون تضخماً هائلاً بمجرّد تمويل عجز الحكومة.

- حسناً، من يدري، قد تكون الوصفة السحرية عندك!

- لا طبعاً. على الرغم من ذلك، وبما أن عائلتي هنا...، لنقل إن بإمكاني التأثير القليل دائماً هناك، في واشنطن. أنا أعلم بأنكم لستم عديمي الإحساس بالنسبة إلى القضايا الإنسانية...

- كنت أعلم بأنك ستفاتحني بموضوع ابنة شقيقتك. أنا لا أستطيع فعل شيء. أنا موظّف رسمي ولا أتدخّل في السياسة.

- كيف لا تتدخّل؟ ماذا تعني لك فتاة دون مال؟ لماذا تضع البلد بأكمله على حافة الهاوية بسبب اضطراب لا أهمية له.

- ليس عندي فكرة، سيّد غونتر. إن المسؤولين في كورينتس لم يكونوا على علم بأنها قريبتك. هذا ليس ذنبي. لقد كنّا نتعامل على أتمّ وجه كلّ هذه السنوات حتى برزت لنا هذه التفاهة....

- اسمعني، والحقّ يقال، هل تظن بأن هذه المسكينة هي كما يقال عنها؟

- ماذا؟

- يعني...غريبة الأطوار نوعاً ما؟

تبسّم العجوز خلف مكتبه بالرغم من التعب الذي تملّكه. تنهّد كما لو أنّه كان يخشى أن تعاوده نوبة الربّو، وأجاب أخيراً بصوت خافت:

- نعم ولا. وشكراً لك على إهداء هذا القلم إلي.

7

عندما علم طوطو أزواغا بأن إليزا قد فازت بجائزة الغوغنهيم وأنها على وشك السفر إلى مدينة كورينتس لإتمام المرحلة الأولية من أبحاثها عن حقبة البارّوك اليسوعية، قرر دعوتها إلى جامعته كمحاضرة شرف في ندوة صيفية للأساتذة ترعاها الجمعية الوطنية للعلوم الإنسانية. لم يخطر ببال إليزا حجم التعقيدات التي كانت تنتظرها في كورينتس، مأساة آل سارّيا-كيروغا، ومقتل لارّاين وسجن سوليداد. قبلت إليزا دعوة طوطو. لم تكن ترغب أن يزيدها هذا شرفاً إلى سيرتها المهنية الطويلة، التي غالباً ما كانت تنعتها بـ السخيفة. ومع أنها لم تكن قد زارت أوكلاهوما من قبل، فلم تكن متحمّسة لهذا السفر.

كان هنالك سبب آخر. كان طوطو أحد أولئك الأشخاص الذين يدوّنون مذكّراتهم، وكان أحياناً يرسل إحدى الأوراق إلى إليزا بالطريقة نفسها التي قد يمزّق فيها غلاف علبة أعشاب المتّي الفارغة نافخاً في البومبيّا. إن التضخّم، كان يقول لها، هذا الكوب الممتلئ بالأرقام والذي يسبب لك القرحة أيّام السبت ويسبب هيجان الكبد كالنبيذ الرديء، لا يعقل أن يقطع ذكرياتك ولا رغبتك في الصمت لبعض

الوقت. أنت تعلمين بأن ذلك لا يمكن إصلاحه بتصويت بنفسجيّ أو زهريّ، ولا بثورة ما زالت تزحف ولا حتى بدكتاتورية بدأت بالتشقق. أنت تعرفين بأن كلّ الأشعار لن تجدي نفعاً، وهي تستمر، لا فائدة من عدم قول هذه الأشياء، ما يهمّ هو الرياح، هنا لا يباع الشعر وهناك يصطبغ بالرقابة الذاتية. ما يهمّ هو الريح.

وكلّ أمسية، تباً، أبصق الدماء، وعندما يحلّ الليل، لا يسمع أحد، الكل ينام في المنزل، والنافذة تكاد تختنق من الستائر السميكة. وترقد لتنام باكراً، ففي الغد يوم عمل جديد، وبطاقة الائتمان تتربص بنا، وفكّاها المبتسمان يغريانا بأنيابها اللامعة بنسبة التسعة عشر بالمئة، وفجأة يكتب أحدهم هذا الشعر، وكلّ شيء. من كان ليصدّق هذا! كل شيء يذهب هباء، ما عدا الكاتب وقارئه، ومؤخرته مكشوفة للهواء تحت النافذة المفتوحة، بدون رصيد ولا أيّة بطاقة بريدية إلا السماء، حمراء كبطيخة قسمت نصفين. لماذا ينجو الشعر؟ ربما لأنه الشيء الوحيد المجّاني الذي تبقّى لنا.

السبب أن طوطو كان يعاني ورماً سرطانياً!

- الجميع يقولون ذلك، لكنّه هراء. كلّ ما لدي قرحة معوية بسيطة.

- ومتى ستتقاعد من عملك؟ سألته إليزا، وقد فوجئت برؤية شاحنته الصغيرة التي اعتلاها الصدأ متوقفة في المطار.

- لا تعجبك هذه الصخرة؟ هذه الخردة، كما اعتاد أن يقول

الرفاق؟ لقد اشتريتها للذهاب في رحلات الصيد، كما فعل اثنان من زملائي، يعانيان الضجر، مثلي تماماً، والباقي تعرفينه. هذه الغرفة تستعملها الفتاتان دائماً، وهما بعمر الديوك الحبشية. في بعض الأحيان يتبدّى لي أنّي ارتكبت خطأ عندما تزوّجت بعد بلوغ هذا العمر. أنظري إلى نفسك! ما أسعدك دون أولاد.

- كنت أودّ أن تكون لي فتاة، لكنّي قد اعتدت ذلك.

- ومع ذلك، لا بد من أن زعيم القبيلة يقضّ عليك مضاجعك، واعذري صراحتي، بحكم موقعه الهام، وأوامره التي يوزّعها يميناً وشمالاً. على كل حال، من يدري، لعلّ الغيرة تدفعني لقول ذلك، في الواقع أنت جميلة جداً. إن هذا المنفذ إلى مطار روي روجرز هو في طور الإنشاء دائماً، انظري، إنه أسوأ من مطار ايزيزا في بوينس أيرس، أرأيت كيف يهدرون الأموال...؟ لأنهم متخمون بالنفط. وهم يعفون المعمدانيين من الضرائب، أتتصورين كم هم محافظون؟ أما في الجامعات، فإننا نعاني التقشّف ونحال إلى السؤال الرابع بسبب نقص الموارد. أنظري هناك، بعد إشارة التوقّف، ... ماذا كنت أقول؟

- شيء عن حالة الطريق.

- لا، ليس هذا، بل عن جمالك، ماذا تفعلين للحفاظ على جمالك؟ أخبريني. لست بصدد إغوائك، أنا لم أعد قادراً على المعاشرة، يا ابنتي. لا بد أنك تشعرين بالملل، من كل هذه الاستقبالات واللقاءات، سيدة...، ما كانت كنية الغاوتشو زوجك؟

- غونتر، وأنت تعرف ذلك جيداً.

- استقبال هنا واستقبال هناك، سيدة لا أدري ماذا هنا وسيدة هناك. والمضحك أنهم جميعاً من الأميركيين وهم يريدون أن يظهروا للجميع أنهم يتقنون الأكل بالشوكة والسكّين أخيراً.

- ولكنّي أيضاً أميركية يا عزيزي.

- حسناً، هذا مختلف، أنا أتكلم عن الطبقة الوسطى. كل أولئك الفتيات اللواتي يتشدّقن بمضغ اللّبان.

- أنا لا أرى أنهن يستحققن هذه السخرية. لا أعتقد بأننا نمتلك الحق في احتقار الآخر... لا أدري، قد يكون ذلك كي لا يحتقرنا أحد، أليس كذلك؟

- معك حق يا أختاه! ها قد تعلّمت منك درساً.

- اعذرني! قالت إليزا، واصطبغ وجهها بالاحمرار في ظلمة الشاحنة. -لم أقصد ذلك. لا أدري، أقدّركَ كثيراً، لكن، أليس صحيحاً بأنكَ ...؟

- وزيادة للطين بلّة، كما قلت لكِ مراراً من قبل، فإنك لن تتعلمي أبداً صوغ الجمل الاحتمالية. لا يقال «لا أعتقد بأننا نمتلك الحق» ولكن يقال «لا أعتقد احتمال امتلاك الحق»

- دع عنك هذه التفاهات، فأنت لم تتعلم الانكليزية طوال الثلاثين عاماً.

- ليس من الضروري، فهي ليست لغة العمل بالنسبة إليّ،

ورسائلي تصححها السكرتيرة، وفي الاجتماعات يتحمّلون أخطائي، ولذلك لا ينصبونني أبداً مسؤولاً عليهم، فأنا أكثرهم غباوة. أمّا أنتِ، فمن واجبك إتقان اللغة، ألا تخجلين؟ كيف وصلت إلى تبؤ هذه الرتبة بتلك اللكنة الإسبانية كأهل غاليسيا؟ وهذا ما لا أستطيع تفسيره، من أين لك هذه اللكنة الرديئة؟ من الألمانيّ الأحمق!

- ...

- إنه زوجك! أنا متأكد.

- أنت لا تستطيع تحمّل هذا المسكين.

- لا تنكري بأنهم يسيئون معاملتك خلال هذه الاستقبالات.

- لا يسيء إليّ أحد، تباً لك، دعه وشأنه.

- هل قدّموا لك شيئاً في الطائرة؟

- بعض المقبّلات، لا غير.

- أنت تتكلمين بما لا أفهم.

- شكراً، لا أشعر بالجوع.

- إنها الحكاية القديمة نفسها. نستطيع التوقف لتناول بعض الطعام المكسيكي، سيكون مطعم الجامعة مقفلاً عند وصولنا.

- لقد مرّ زمن طويل دون أن أتناول بعض الشطائر المكسيكية.

- نتوقّف اذن، لديهم بعض الشطائر الفاخرة.

- حسناً، نتوقف، لكنك لن تشرب الكحول، أليس كذلك؟ لا أرغب أن يأخذني سائق سكران.

- قد آخذ كأس مرغريتا فقط.

- حسناً.

- أو كأسين!

- حسناً، انطلق من جديد.

- حسناً، كأساً واحدة! تباً! لم هذه اللهجة؟ إن كان الكلام الهادئ لا يكلّفك شيئاً! الوقت متأخر والجو بارد وممطر.

فتح لها باب السيارة لتنزل. كان المكان يعبق برائحة المقالي. شعرت إليزا بارتياح كبير. جلسا إلى واحدة من الطاولات المثبّتة عند المدخل كمقاعد القطارات، على الطراز الغالب في مطاعم شيكاغو. كانت الكؤوس مزدوجة، لكنها خفيفة. في المقابل، كانت الصلصة الخضراء تثير العطاس بمكوّناتها التكعيبية كرسومات روفينو تامايّو.

كنت أعتقد دائماً بأن خوليو إيغليسياس لم يكن مطربي المفضّل، بعاداته التجارية دائماً والمدروسة دائماً، وهو ابن عائلة من أتباع فرانكو. اليوم هو يوم الهلاووين، عيد الساحرات الأكثر تميّزاً في ولاية تكساس. رافقت زوجتي المتنكّرة بغطاء سرير بناتي المتنكرات، إحداهن بلباس دراكولا والأخرى بلباس شخصية كعكة الفراولة لجمع الحلوى. ... إما أن تعطينا الحلويات وإما أن نلقي عليك السحر. بقيت وحيداً في المنزل. كان يقاطعني قرع الجرس وبعض الأولاد المتنكرين

يقايضون الحلوى بإلقاء السحر. كنت أشاهد التلفاز وبيدي كأس من البلاك لابل، الويسكي الإسكتلندي الوحيد 100 %، الذي علّمني شربه في روشستر، نبراسكا، صديقي من أوهايو، هاملتون بك، وهو خبير في فلسفة ديديرو.

على شاشة التلفاز كان إيغليسياس يصدح بالايطالية أغنية الغوارانية الباراغوانية «ذكريات من ايباكارائي» في ملعب كرة قدم مثير للإعجاب في إحدى الليالي في مدينة أورشليم القدس. كانت تظهر على الشاشة بعض الكلمات لإحدى قنوات دالاس (لعلّهم أرادوا بذلك منع المشاهدين من تسجيل هذه الحفلة التاريخية بطريقة غير شرعية على مسجّلات الفيديو المشتراة ببطاقات الماستر كارد). كان إيغليسياس يتلفّظ بعبارة «كونياتائي» الغوارانية لفتيات القدس، وكانت الوجوه تبتسم كلّما سمعت تلك الكلمة بالغوارانية. وجوه شقراء وسمراء، بعيون سوداء وزرقاء. يهود من إسرائيل وفنزويلا وإسبانيا والولايات المتحدة الأميركية وميسيونس. كانت كلّ الوجوه تبتسم. وإحدى الفتيات التي صعدت إلى المسرح كانت تتكلم العبرية السفاردية فقط، ومع ذلك كان الجميع يفهم ما تقول. كنت أعتقد دائماً بأن خوليو إيغليسياس لم يكن واحداً من المغنّين المفضّلين لدي. أما الآن، فلا.

- آه، السيّدة لينش المشهورة في أوكلاهوما. وأخيراً تمكّنتُ من إحضارك، أختاه.

- لا تبالغ، أنت تعلم بأني لا أحب ذلك.

- دعيني أقل لك ما أحسّ به. هو غني، أليس كذلك؟

- غني جداً.

- أخبريني، ماذا تفعلين؟

- الأمر نفسه. أذهب إلى كورينتس، أنت تعلم، الأسبوع القادم. شقيقة زوجي تسكن هناك، وأريد أن أكتب كتاباً للترشح للغوغنهيم.

- أعلم ذلك... كورينتس! ...لكن! ... هذا مرعب! لماذا لا تذهبين إلى طوكيو، أو هونولولو أو أكابولكو؟ أنت مملّة فعلاً.

- وأنت يا طوطو؟ أنت مريض حقاً؟

- لا أعاني السرطان، لقد قلت لك، إنها قرحة معوية فقط. لكن من المؤكد أني سأموت الشهر القادم، فأنا أصبحت عجوزاً.

- منذ سنوات أسمعك تردد بأنك ستموت الشهر القادم، كم يبلغ عمرك؟

- ثلاثة وستّين ربيعاً مثقلاً!

- إن الحياة تبدأ في عمر الثلاثة والستّين.

- أمّا حياتي فلا. لقد استهلكت حياتي كلّها. كؤوس كثيرة يومياً، ولا أيّ تمرين رياضيّ بائس، والشحوم كما ترين على كلّ الجوانب، والعضلات معدومة. فقط ما تسمح به المجلّات التي تنظم الحِمية الغذائية، توازن بين السعرات الحرارية والغضب، كحمية خوانا دو أركو. لا بد أني سأمدد قدميّ في العام القادِم. لذلك أردت أن تأتي الآن.

- ومتى ستتقاعد؟

- في العام 1984.

- هذا ما كنت أخشاه. يبدو بأن حياتك تكاد تنتهي.

- لا، عندي أمل.

- وما هي مشاريعك إذن؟

- ليس عندي أيّ مشروع.

- أنتظر طوطو! لا تهزأ بي من فضلك.

- أريد العودة إلى شاسكوموس، أرغب في طلاء المنزل، أو في أيّ شيئ. أحنّ إلى مشاهدة التلفاز بالإسبانية وزرع زهور إبرة الراعي وأن أغدو مجنوناً وأطلق لنفسي العنان.

استقّرت إليزا في جناحها المريح في فندق الجامعة وأتمّت تعهداتها الأكاديمية وسُحر بها الجميع، ابتداء من عميد الكلية الذي كان ينظر إليها بعيني الصقر وابتسامة الضباع وصولاً إلى أكثر التلاميذ كسلاً. قدّم إليها أحدهم خلال حفلة العشاء الآنسة ماريا ايناّس، ابنة ألفونسين، التي تعيش بالقرب من الجامعة. أحد زملاء طوطو الشباب، اغتنم الحضور الكثيف، واقترب منها حاملاً بيده كأس شراب البلودي ماري، ولمس مؤخرتها بينما كان يذكر لها كتابها عن الشاعر ماتشادو. تقبّلت إليزا يومئذ برحابة صدر، ولكنها لم تستطع الاسترخاء للحظة. كانت مقتنعة بأن طوطو قادر على إطلاق النار على نفسه بواسطة بندقية لصيد البطّ. اشتاقت إلى زوجها الشديد الثقة بنفسه، بطبيعته الجرمانية، الذي يبدو دائماً بعيداً عن الطوفان.

أتى يوم الأحد برياحه وغباره وغيومه، وأقلّتها الشاحنة نفسها بطريق العودة إلى المطار عبر البراري الجافة والموحشة إلا من السلاحف والآبار النفطية. حاولت إخفاء دموعها. عادت بها مخيّلتها إلى مدريد، وهذه المرّة ليس إلى غرفة سكنها، بل إلى سكن باكو ايبانييز، وإلى الناس في الهواء الطلق، إلى إسبانيا الغضب وإسبانيا الفكرة، وإلى إسبانيا الملكة صوفيا. كانت مقتنعة بأن طوطو لم يعد لديه سبب ليكافح، فأحجار قرميد عقيمة قد غطت سقف أحلامه، أحلامه بأبقار زهرية اللون تعزف الكمان، وأراجيح من القُبل. لقد وضعوا لسمائه سقفاً، أحمر كالبطيخة التي انشطرت نصفين.

وعندما عانقها في المطار، ارتجفت للاحساس اليقين بأنها المرة الأخيرة. تذكرت قصيدة قديمة للشاعر بورخيس حيث يتكلم عن الحدود. وظنت بأن هذا سيكون الحد الحزين لحياتها مع حياة طوطو الوضيعة. وتذكرت ما رددته والدتها لها ولأختها عندما كان أبوهما يُحتضر في بتسبورغ: إن الجنة تكمن في أن يموت الفرد مسروراً.

عندئذ، وبكل بساطة، لم تقل له وداعـاً، ودعته لزيارتها في كورينتس عند نهاية الفصل الدراسي.

8

من الوقت ومن المعدن، من الدماء النقية، بقوة الكلمات والعذاب تتكون حكاية الضعفاء، من صفير مصباح أسير وقلب نابض وحمامة، للأبد ربما وأيضاً وليس بعد. الجو بارد وبالرغم منه ها هو النشيد القديم يأتي فجأة. ها هو الموت المتضامن في الطريق. وها هي قطعة السماء تهبط إلى السراويل، سراويل الرجال وقمصانهم، وحبها الهائل علّم الناس حب الرياح. وها هو ليل وطن عامة الناس ينفتح على البلّور وعلى الفجر المبتسم. وحيثما وجد الشباب، كانت الدماء تكتب اسمها على الحيطان.

كان غونتر على موعد مع رئيس معهد المحامين. إن أحفاد الراديكاليين القدامى لم يتعرفوا إلى حاكم غير الجنرال الأبدي، صاحب الليالي السبع والوجوه السبعة، ولكنهم كانوا يثابرون، كما قال بلوش، على التمسك بالأمل. لقد كلفهم ذلك خيبات أمل اجتماعية، والنوادي التي يتحكم فيها الوصوليون الفاحشون الجشعون، ناهيك عن السجن والتعذيب. لكنهم تشبثوا بديمقراطيتهم الفاضلة بكل

ظلامتها للنجاة بكرامتهم. لم يبق لهم سوى هذا الطريق: لقد حرقوا المركبات مثل أسلافهم الكاراي، وتشاركوا في المشاعر الجياشة خلال صراعهم، وحداهم الأمل بإحراز فريقهم ذي اللونين الأزرق والأحمر هدف النصر في الدقيقة التسعين للمباراة.

كان الموعد عند الساعة الرابعة، كان غونتر ينظر إلى ساعة الأوميغا في معصمه، وسيارة الفولفو تسير بأقصى سرعتها. وصل، نزل وقرع الجرس. تقدمت نحوه إحدى الخادمات، يحرسها كلب رعاة ألماني، إلى السياج العابق بزهور الياسمين، ودعته إلى الدخول وأخبرته بأن الدكتور المحامي سيكون معه خلال لحظات.لقد بدا المكتب المنزلي رغم الفوضى التي عمّت أرجاءه، أكثر أناقة من مكاتب الوزراء. على الحائط لوحة زيتية طاغية لرسم المارشال في حرب التشاكو، وعلى إحدى المناضد تمثال نصفي من حديد مسكوب لجون كينيدي. على أحد الرفوف كان ليشدّ نظر إليزا بسهولة كتاب لخوان رامون خيمينيز، كالذي يتوق إليه رئيس الأساقفة. دخل المحامي بهدوء إلى الغرفة. بالرغم من صغره، وبدانته الزائدة، فقد صبغ حضوره الجو بالكثافة المتوهجة في الحال. لقد أحس غونتر بأن هذا الشخص، ودون أي شك، كان واحداً من أولئك الذين لا يقهرون والمتمردين القساة، القادة القادمين لفريق كرة القدم ذي اللونين الأحمر والأزرق، الذي كان قد حاز كأس البطولة أخيراً. لقد لفت نظر غونتر بنظافته وأناقته القصوى،

بدءاً بتسريحة شعره وحتى لمعان حذائه: لم يبدُ عليه التصنّع والتكلّف في أناقته، بل نمّ ذلك عن حب وشغف. لم تكن عينا هذا المحامي بلون القهوة تنظران إلى غونتر كرئيس للبنك الدولي، بل إلى قريب إحدى الفتيات المسجونات. لأول مرة من وصوله إلى كورينتس، أحسّ غونتر بالاحترام.

- عزيزي الرئيس، أنا أتشرّف بمعرفتك، لولا جدّك، لكانت منحتي الدراسيّة...

- لقد ولّى زمن جدّي، دكتور، وعلينا الآن الاهتمام بابنة أختك!

قاطعه المحامي بكل لطافة. ماذا أستطيع أن أعمل من أجلها؟

كما تعلمين حبيبتي، في وحدتي هذه يرافقني جهاز الراديو. لكن الشبكة العامة تبدأ البثّ تمام الساعة الثانية عشرة. عندئذ تبدأ النشرة الاخبارية الموحدة. وحتى لو حاولت تبديل المحطة، فلا شيء يتبدل. إنه صوت أوحد، روتيني حجري مفرط. عندئذ ألقي بالراديو وأسحب شريطه. عندئذ يبدأ المستقبل.

- حسناً، إن معلوماتي عن الأسس القانونية تكاد تكون معدومة، هل نسميها بدائيات؟ مثل الانكليزية؟

ابتسم المحامي وهو يحاول إخفاء ملله من حذلقة ضيفه الشمالي الذي يتجاوز طوله المترين.

- قد يكون أصل الكلمة باللاتينية ما يشبه هذا. لكنني لا أظنك أتيت لتناقش معي تفسير المفردات القانونية وأصلها.

- حسناً! تابع غونتر. - كما قدمّت لك بالهاتف، لقد استشرت الوزير والرئيس القادم للمحكمة العليا الانكليزية.

- الواقع أن هاتفي مراقب، من الأفضل أن لا تذكر لي شيئاً عبر الهاتف، إلا إذا أردت أن تعلم الحكومة بذلك.

- لقد ذكرت لي زوجتي شيئاً عن هذا! قال غونتر، وهو لا يصدق ما يقول الآخر. - على كل حال أنا ليست لي مآخذ على هذه الحكومة. أنا أريد بكل بساطة أن آخذ ابنة أختي معي. إنهم يعلمون بأني اود أخذها معي، لا أفهم ما ضير أن أقول ذلك عبر الهاتف.

منذ ذلك الربيع الذي خافوه، وأرض من الدماء بلون الأرض، وعيون متعبة وحيدة، وسفر إلى كازابلانكا وفيريديانا، وسلالم الحريق للوصول إلى بشرتك بلون الدرّاق، والمعرفة المريرة للاقبية والزوايا، والصوت ينطق بالشعار، وقيثارة صامتة منفيّة، والصمت عند الأمسيات، وفتاة تضع النظارات في مركب ذي مراوح، وعجوز صامت، وحربان مستحيلتان، وأساليب الريح الكثيفة تحرس الأبواب، ودقة الماء والأمل، والساعة الرملية المكسورة، كل ما لدي وكل ما عندي: أحبك.

صمت المحامي لبضع دقائق، ثم سأل غونتر إن كان يرغب في الشراب. قبل غونتر كأساً من الويسكي. أخرج مضيفه كؤوساً وزجاجة ويسكي ذات ملصقة سوداء من أحد رفوف البار الذي بدا متخماً بأنواع الشراب الفاخر. قدم الكأس لغونتر وفتح هو زجاجة كوكا كولا.

- ولماذا اتيت لرؤيتي بالتحديد؟

- أنت رئيس المعهد، ولديك صيت رجل مثابر وعادل، ويُعرف عنك الاجتهاد بمسألة المساجين السياسيين. كما قال عنك بعض الكهنة، أصدقاء شقيقتي وكذلك أمهات ساحة مايو: أنت الولد الكاراي، الأمل الوحيد.

- هذا كل شيء؟

- نعم، أكيد. وبالطبع سأدفع كل أتعابك، دون شك.

- لم أقصد هذا. أرى بأنك لم تأخذ في الاعتبار ...

- ماذا؟

- كيف يعقل؟ ألا تعي بأن الديكتاتورية تسود هنا. وحيث تسود لا وجود لدولة القانون. ماذا تظن أن باستطاعة المحامين أن يفعلوا؟

- حسناً، أظن بأن الوضع الخاص للعاصمة ما زال ساري المفعول، وابنة شقيقتي اعتقلت في هذا المكان.

- إنس هذا الأمر، إن إرادة المزربان هي الوحيدة الصالحة. لقد سجن الحاكم الأبدي ابنة أختك، وسيطلق سراحها عندما يحلو له.

سأذهب عنك يا وطني، ربما لوقت طويل. أنا مدينة لك بتفسير: أنا لا أذهب طوعاً، بل انتزعوني من بيوضك. لكني سآخذ معي طيورك وأشجارك وأنهارك. وكل تقاسيمك الدقيقة، وكل الآمال المشتركة. سأذهب بضائقتك وشفاهك. وسأعلنك يا وطني كل يوم، وبصوت مرتفع. سأنثر على الرمال رقائقك الحمراء ليعرفوني. سأذهب، لكن معك. إنها من طرق البقاء.

- إنه لمؤسف سماع هذا من فم رئيس معهد المحامين. أؤكد لك بأن زميلك في بوخارست، رومانيا، هو بالتأكيد... أكثر موالاة... كي لا أقول أقلّ من ذلك.

- أنا لا أدري كيف تجري الأمور في الشرق، أما هنا فاعلم جيداً إن كنت تعتقد أنه بالإمكان إطلاق سراحها باعتماد القانون، فأنت مجنون.

بلع غونتر ريقه، وارتشف ما تبقى من الويسكي في كأسه دون أن يرفع نظره عن الرجل المتوتّر على طريقة ألفيس برسلي، الذي كان يطوي رجليه كأحد خبراء رياضة اليوغا.

- يا للمفارقة! تمتم غونتر، - كنت أظن بأنك ستعطيني بعض الأمل.

- هناك أمل طبعاً، لكن بالوسائل القانونية أبداً. لذلك ستكون الخطوة الأولى أن تدع مكالمتي عبر الهاتف.

- لست على استعداد لتعاطي السياسة مهما كلف الأمر، وخاصة أن أساوم مع هؤلاء الهنود.

- لن نتآمر مع أحد، الأمور تسوء كل يوم. على كل حال لا أدري إن كنت تستوفي الشروط للدخول إلى صفوف الحزب.

- وهل يأخذون على سوليداد أنها راديكالية؟

- لا أظن ذلك. لا يوجد بين أيدينا محاضر ولا ملفات. ربما ماركسية مستقلة.

- ماركسية؟ لكن هذه جريمة! أنت تؤكد ما جاءت به الجرائد!

لن يستطيع الموت اليومي إقناعي. لا تقترب من منزلي بعلاماتك المصنوعة من الرماد، ورائحة فمك كالخفافيش، ابتعد بفوهتك الصفراء. اعلم جيداً بأن مقوماتك المظلمة تتكاثر على النوافذ وفي الأقبية، وفي الأسواق يوم السبت، برائحتك التي لا تطاق في زواياها الرطبة. أراهن على الحياة. رغماً عن الجواسيس الذين يرشون الصامتين، والكلاب البوليسية المتعطشة إلى الدماء، والخيانة والتجريح والأوحال. على الرغم من تحول إلقاء التحية إلى تجارة يومية. أراهن على الحياة، وعلى كل جديد ومعقول، وابتسامة الأعناب الدورية، والشوق الصامت إلى غدير النهر، والشوق البحري الصامت عند النهر، والشوق الأرضي الصامت عند البحر. هذا حلمي من الطين! وبعض الخزّافين يتخيلون أسرار ظلّ النهار. لماذا قضي على السعادة أن تكون محظورة إلى الأبد؟

- لماذا ينبغي أن يكون الفرح محظوراً إلى الأبد؟ ولماذا التفكير في الجريمة؟ ولماذا توضع القيود للأفكار؟ في القانون يجب الحكم فقط على الوقائع. على الوقائع التي ثبت ارتكابها. عندنا تشريعات تكفل الحرية، ويسخرون منها كل حين.

- نعم، سمعت شيئاً عن هذا. على كل حال نحن التقنيين على شيء من العناد. كل ما أريده أن آخذ ابنة أختي معي، والعودة إلى عملي في أقرب وقت، وأن تعود أختي للاطمئنان.

- وكيف تظن بأننا، وأنا بالذات، قد أفيدك في هذا الأمر؟

- ربما إن تقدمتَ بطلب المثول أمام المحكمة.

- لقد فعلنا ذلك. فهذا إجراء عادي لدى المحامين.

- صحيح هذا؟ لم تذكر لي شقيقتي أمابولا هذا الأمر. وشكراً على كل حال. وهل تعتقد بأن النتيجة ستكون إيجابية؟

- كلا، لقد رفضته المحكمة بالفعل.

- ولا نستطيع المطالبة بإبعادها؟

اسمع أغنية الغوارانية على جهاز الراديو. أعجبني كيف استطاع هذا الرجل صاحب الاسم العطر تخليد هذا البلد الصغير المحمول، كيف يطويه بنعومة في منديل مليء بالذكريات ويضعه في قلبه ويخرج للسفر.

نظر المحامي إلى كأس غونتر، فوجدها فارغة. سكب له المزيد وتناول هو زجاجة أخرى من الكوكا كولا. وأطال الصمت قبل أن يعاود الكلام بصوت حاد.

- إن هذا البلد، وتنهد، هو بلد دراماتيكي، تافه يحكمه الحمقى وهو مضطرب وفاسد وسيىء الحظ مقطّع إلى عدة أقاليم، وهو متأخر يسوده العنف والخطر والفقر، وهو خائف ومنعزل ودون أصدقاء، يتجاهله الآخرون ويقسون عليه ويقاطعونه ويعاقبونه، وهو بلد الشهداء المظلم بأحلامه المجهضة ويديه المصلوبتين وقيثاراته المهترئة، وهو مكروه ولا يحتمل.

ساد الصمت لوقت طويل. كان الرجل يلهث متأثراً. وعندما عاد غونتر للكلام، بدا كأنه يخرج من نفق طويل بلا أصوات ولا مصابيح، بدا عجوزاً أكثر.

- ما العمل إذن؟ سأل، وهو يكاد لا يستطيع فتح شفتيه الثملتين.

- لماذا تحبه إذن بهذا القدْر؟ لماذا تحبه، قل لي؟ اللعنة. لماذا تحبه بهذا القدر؟

9

تملك إليزا هذه الأيام إحساس بالأسى العميق على صديقها القديم في أوكلاهوما، الذي كان ينازع دون رحمة مع جلسات العلاج الكيميائي بعيداً عن حفلات الشواء وأزهار حديقته في شاسكوموس. كل تلك السنوات المهدورة في روتين أكاديمي بائس، والتي زادت في مرارتها الكحول والسجائر، إلى جانب امرأة ذات طبع حاد وشعر أحمر ووركين عريضين مثل جون واين، وإلى جانب مراهقات امتنعن عن مشاركة أبيهن في كلمة واحدة بالاسبانية. لقد قضى كل تلك السنوات متأرجحاً بين الثلوج السيبيرية وشمس الصحراء الكبرى، حيث انتهت العواصف والغبار إلى تجويف روحه بأنيابها وملئها بالعجز والملل حتى استسلم للموت بالوداعة الجبانة نفسها التي تغرب فيها الشمس خلف المستنقعات الاصطناعية الموحلة بعد ظهيرة شاقة بصيد البط.

خطر في بال إليزا إذا ما قام أحدهم بسرد قصة حياتها في رواية، فعلى الراوي توخي الحذر بمقاربة هذا الواقع، إذ إن تكرار مشهد الأشخاص المرضى بالسرطان لن يكون سهل التصديق. مثلها مثل الكثيرين ممن عايشوا وفاة قريب لهم أو صديق حميم بعد معاناة مع

السرطان، تركت إليزا التدخين بعدما دخل والدها نزاعه الأخير. لقد أجبرتها محنة نزاعه المريرة التي دامت نحواً من سبعة أشهر على السفر إلى المدينة حيث قضت طفولتها كل نهاية الأسبوع. كانت بيتسبرغ تبعد حوالى خمس ساعات بالسيارة. كان ذلك في عهد الرئيس نيكسون. كانت متزوجة من غونتر منذ أكثر من عقد. كانت قد حصلت تواً على أقصى الدرجات في السلم التعليمي دون أن تغادر جامعة ماريلاند لأكثر من فصل إجازة واحد، عام 1969. كانت قد قبلت وظيفة أستاذة زائرة في بالو التو لأنها رغبت أن تعايش عن قرب الثورة التي تمخّضت في بركلي العام الفائت. وفي العام 1975 استبقت عام إجازتها السبتية الثانية لتنتقل مع غونتر إلى بوخارست.

كانت حياة غونتر كأمثاله من كبار الموظفين، بمحفظته السوداء وبذلته الأنيقة (وكيف لا يكون من كبار الموظفين وهو خبير الاقتصاد الدولي في وزارة الخارجية) وكان يوجد في شهر كانون الأول/ ديسمبر من العام 1976 على بعد تسعة أو عشرة كيلومترات من قاعدته في بوخارست، في منتصف الشتاء، داخل مبنى إقامة سفير الولايات المتحدة. هنالك كان الجميع يعاملونه بمنتهى الود، الخدم والموظفون، لكنه كان يشعر بأنه دخيل ووحيد. كانت تلك أوّل مهمة له في الخارج. لقد رافقته إليزا في عامه الأول، لكنها اضطّرت إلى العودة إلى التعليم.

كان غونتر قد حصل على عقد مع شركة فورد للعودة إلى واشنطن، لكن السفير تعرض لأزمة قلبية في منتصف ذلك العام ومن ثمّ لسكتة

توفي في إثرها في المستشفى. وبحكم كون غونتر الذي يلي السفير في السلم الوظيفي في السفارة، فقد تبلّغ الأمر بتصريف شؤون المنصب الشاغر لبضعة أشهر، ريثما يصل رئيس البعثة الجديد ويقدّم أوراق اعتماده. لم يكن غونتر يفقه الكثير خارج مجاله التقني، لكن طلاقة لسانه بالإنكليزية وإلمامه بالفرنسية كانا كافيين للتعامل مع رؤساء المكاتب المحليّين. لم يكن يجيد اللغة الرومانية، ولذلك لم يكن يقرأ الجرائد المحليّة ولا يشاهد التلفاز. كان يقضي أيامه على فراش السفير الوثير والحزين، ذلك السرير الذي لم يضاجع عليه زوجته إليزا، أو يقرأ روايات قديمة لأغاثا كريستي، وهو ينظر من النافذة إلى المباني التي أصيبت بالضرر جراء الهزة الأرضية وخلفها سماء الشتاء والحمامات الرمادية والأشجار العارية والحافلات الكهربائية الصدئة بلون البرتقال التي ما زالت تجوب الشوارع تحت الأسلاك الكهربائية.

كان الحنق يتملّكه لعدم قدرته على الانغماس في فترة بعد الظهر في قراءته مغامرات هيركوليس بوارو. كانت الإضاءة في مكتبه غير كافية، حالها حال كلّ مدينة بوخارست. كانت رومانيا تعاني نقصاً في الطاقة بسبب شحّ الأمطار وعدم ارتفاع منسوب مياه السدود. كان الظلام يزحف على المدينة ابتداء من الساعة الثالثة عصراً، وبعدها بساعة كان يلفّ الجدران القديمة المبنية من الحجارة المكبوسة في مجمّعات الأبنية الشعبية مثل كلّ البلدان الشيوعية. كانت العباءة الخفية تغطّي الأرصفة وتعزل عنها توهّج المصابيح الصفراء الخافتة.

كان غونتر يعتقد «بأني سوف لن أنتهي أعمى بسبب أولئك البلشفيين التعساء». وزاد من توتّره ما حدّثوه به عن منشق يهودي يودّ اللجوء إلى السفارة. كان ذلك الشاب قد أصدر رواية في الخفاء مطلع العام تناول فيها الحكومة بالتجريح والاستهزاء، وكان يشعر بأنه ضحيّة الملاحقة المقصودة: لقد طردوه من عمله كمصحح في إحدى المطابع الثانوية وحرموه من جواز السفر.

هذا هراء! عبّر غونتر باستهزاء. لقد اعتاد بنجامين فرانكلين القول بأن أستاذ مدرسة جيد أفضل بكثير من عشرين شاعراً.

وعلى الرغم من ذلك زادت الإشاعات، ربّما لأن السلطات غذّتها. لم يطل الأمر بغونتر حتى تلقّى مكالمات من مجهول يهدده فيها بعض المتعصبين، بعضها تلومه على رفضه إعطاءه اللجوء وأخرى تتهمه بحمايته. في الواقع، كان غونتر قد أعطى الأمر بإبقاء بوابة السفارة مفتوحة ليلاً ونهاراً.

زادت شراسة المجهولين، واثنان من المشاغبين باللباس المدني، يحتمل أنهما عنصران من الشرطة السرية بدآ بالتجوال حول السفارة طوال الساعات الأربع والعشرين. عندما خرج لحضور عشاء خاص ليلة الميلاد في منزل السفير الانكليزي، كان غونتر مسلحاً كعادته خلال الأسبوع الأخير واستبدل سائقه الروماني بأحد عناصر مشاة البحرية.

كانت أجراس الميلاد تقرع في الولايات المتحدة بتأخير عدة

ساعات عن أوروبا. اتصل غونتر بإليزا بواسطة الهاتف بينما كانت مسؤولة المنزل تكوي بذلته. لم يتكلّما مباشرة عن مرشح اللجوء السياسي الذي كان غونتر قد أخبر إليزا عنه في رسالته السابقة. ولكنه عندما سمع قول إليزا له بأن يأخذ الحذر جيداً وعى ما كانت تقصد، ولم يسعفه ما كان في انتظاره تلك الليلة من الويسكي الإسكتلندي الفاخر عند مضيفه الانكليزي بتلطيف طعم المرارة في فمه.

لقد عانى والد إليزا عدة أشهر وهو ينازع في المركز الطبي الضخم في جامعة بتسبرغ الواقعة في حي أوكلاند حيث قضى نصف قرن عاملاً إدارياً متواضعاً ولكن متفانياً، وحيث حصلت إليزا على علومها العليا، بواسطة المنحة تلو المنحة.

لقد عمل العجوز خلال السنوات الأخيرة في مكتب «العمل الايجابي»، وهو تابع للجامعة ويعنى بتوفير الفرص المتكافئة لأعضاء المجموعات المعوزة، كالنساء والأقليات العرقية، التي بدت وظيفة مثالية لايرلندي مثله، ذي طباع حادة، ديمقراطي وأسقفي.

كانت إليزا تعانق كلّ مرة في أروقة المستشفى شقيقي والدها الأصغرين، أحدهما ساعي بريد والآخر رجل شرطة، وكذلك بعض الأقارب الذين تعرفهم بالكاد والذين يقطنون في ولايات بعيدة. كانوا جميعهم من طينة والدها، كثيري الضجّة ورقيقي المشاعر، وإن لم يكونوا يوازونها وسامة ورشاقة هي ووالدتها، التي بدت في وسطهم

زنجية صامتة وبالكاد تُرى. كانت تقطن في ذلك العام 1982 مع شقيقتها في بتسبرغ، وهي طبيبة أسنان مطلّقة ودون أولاد، ولا ترغب في العودة إلى الزواج ثانية.

كانت إليزا قد أتمّت الخامسة والأربعين في ذلك الربيع المشؤوم، مع أنها بدت أصغر من ذلك بكثير. كان والدها يسعد لرؤيتها وهي تشعّ بجمالها، ويعجب بقوتها الروحية وقدرتها على إخفاء الشعور بالأسى، لتبتسم له دائماً وتحدّثه عن أجمل الأمور، وتعيد ترتيب الزهور بكلّ أناقة في غرفته. كان غونتر يمازح العجوز أحياناً، وكان يرتاح إليه كثيراً، ويقول له بأن ابنته الأخرى، طبيبة الأسنان، هي أكثر جمالاً. كانت تلك الأشهر السبعة من الألم صعبة التحمّل، ولكنها لم تكن أيام تعاسة وشقاء.

كانت إليزا قد أتمّت التعليم الثانوي في مدرسة الأسقفية في الحي في العام نفسه الذي وضعت فيه الحرب العالمية الثانية أوزارها. والتحقت بالجامعة في خريف ذلك العام نفسه. وقضت عامها الدراسي الثالث في مدريد، حيث حُفرت في ذاكرتها الأمسيات في أرغوييس بالشغف الصادق نفسه لجولة من جولات الطفولة. عند عودتها إلى بتسبرغ، تخرّجت بامتياز باللغة الاسبانية وبدأت دراسة الماجستير.

عندما تزوّجت شقيقتها، غادرت إليزا منزل العائلة إلى سكن الطالبات في الجادة الخامسة. كانت تسير يومياً مسافة أربعين دقيقة تحت ظلال أشجار السرو الكثيفة والصنوبر في حي شايديسايد لتعطيَ

دروساً بالإسبانية كأستاذة مساعدة، ولحضور الحلقات الدراسية أو للعمل في مكتبة أوكلاند.

لقد كانت حياتها في تلك السنتين اللتين دامت فيهما دراسة الماجستير هادئة وزاهدة نسبياً، مقارنة بعينيها الخضراوين الجذابتين وعمرها الذي لم يتجاوز الثلاثة والعشرين.

لقد تعرّفت في تلك الفترة إلى أدب الشاعر ماتشادو بمفردها، ودون توجيه من أي من أساتذتها. لقد اعتمدت أولاً الكتابة حول عمله «الخلوات» لإتمام أطروحة الماجستير وبعدها حول مجموع أعماله لنيل أطروحة الدكتوراه. حصلت على منحة دراسية من خلال برنامج جامعة كاليفورنيا للدراسة في مدريد. حاولت والدتها الوقوف بوجهها بسبب معاناتها الشديدة جرّاء زواج شقيقتها الصغرى في سنّ مبكّرة. لكن والدها وقف إلى جانبها كعادته واستطاعت أن تجد لها مستقراً في أرغوييس في خريف العام 1951.

لقد أسهم نضجها وإتقانها اللغة باندماجها في الحياة البوهيمية الحزينة التي كان يعيشها الطلّاب والشعراء الشباب في مدريد الفقيرة ومن دون حوافز ثقافية ووقعت في حب أحد أولئك الشعراء وذهبت للسكن معه، بعد رحيل رفاقها في الدراسة إلى أميركا، في عليّة في أحد الأبنية في حي سان برناردو، حيث كانت تفوح رائحة الثوم المقلي بزيت الزيتون.

كان الانكليزي سبوفّورد هرزوغ أرملاً ويعاني الملل الشديد، مثل غونتر. كان يشغل منصب السفير في لشبونة لعدّة سنوات، بالتأكيد لأنّي كاثوليكي، كما كان يردد. كان ينطق ببعض الكلمات الرومانية بحكم المدّة التي قضاها في بوخارست قبل وصول غونتر. كان يهوى الشراب، ولذلك كانا عادة ما يجتمعان بانتظام نسبي. لقد دعا الانكليزي تلك الليلة أيضاً سكرتير السفارة والملحقة الثقافية في السويد مع زوجيهما. كان الزوجان من الشباب، وقد سُعد بهما غونتر.

بعد الانتهاء من الطعام البريطاني التقليدي، حيث الحلويات تطغى على المأكولات نفسها، اختلى غونتر وهرزوغ في صالة المكتبة لاستكمال شراب الويسكي على انفراد، بحجّة التكلّم بأشياء مهمّة، ما افترض معه نيّتهما التطرّق إلى مسألة اليهودي، وبقي الآخرون قرب المدفأة لسماع أسطوانات قديمة لفرقة الخنافس.

كان غونتر قد جعل من هرزوغ مؤتمناً على أسراره، وقد بادله العجوز المتصابي البوح بأسرار جنسية عن مغامرة كان على وشك إتمامها مع سكرتيرته ذات الشعر الأحمر والبشرة المنمّشة من ايداهو. كان هرزوغ يعلم في قرارة نفسه بأن غونتر على وشك العودة إلى واشنطن، وكان يمنّي النفس بوراثة ذات الشعر الأحمر، أقلّه لكونها تتكلّم الإنكليزية.

كانت إليزا تحرص على إرضاء والدتها ذات الطبّاع المحافظة

والمتديّنة. لذلك طلبت من الفتى الذي يصغرها بعامين الزواج بها. جرت مراسم الزفاف بالقرب من العليّة في معبد واسع ومهجور في شارع بلاسكو دي غاراي، وقد بدا المكان لإليزا بارداً ومظلماً. جاءت أمّ الفتى من مليلا، وكانت أرملة عسكري، وجاء أهل إليزا من بنسلفانيا. ساد التوتّر الجميع، وفاقمت الطقوس الكاثوليكية وانعدام التفاهم بسبب اختلاف اللغة برودة المكان في ذلك اليوم المصيري.

انتسبت إليزا إلى الدورات العادية في الجامعة، وتابعت عملها مدرّسة للإنكليزية في أحد المعاهد العائدة إلى أتباع مذهب الأوبوس داي في بلدة فاييكاس.

بعد أقلّ من عامين، بدأ الشاعر يعزّي نفسه بعد أول الإحباطات الثقافية بالإكثار من الكحول. ترك دراسة الحقوق وخسر عمله في مكتب كاتب عدل منخرط في كتائب فرانكو في شارع ألبرتو أغيلييرا، ليس ببعيد عن مسكنهم.

كانت إليزا تفتقر إلى غرائز الأمومة، وبدأت تشعر بأنها عجوز في سن السادسة والعشرين. كافحت كثيراً لتحفيزه في عمله الإبداعي ولإبعاده عن أكثر رفاق المجموعة عقماً. وفي الوقت نفسه بدأت تشعر بالملل من قاعات التدريس والخلوات الروحية الالزامية. فقد أتعبها تصرّف مدير المدرسة، وهو يبدو كالثعبان السحريّ، الذي كان يتعاطف مع تنظيم كو كلوكس كلان، ويشير إليها كمثال في حضور طلّاب العائلات الزنجية، ويحث أتباع مذهب الأوبوس داي على اتّباع

تعاليم مرشدهم بمدّ\الأيدي للزنوج، لذلك كان من السهل جداً إقناع زوجها بالانتقال إلى بتسبرغ.

سكنا أحد أحياء اليونانيين والسود، في الجهة الجنوبية من أوكلاند، في العام 1954.

تمّ قبولها على الفور في جامعتها القديمة لاستكمال الدكتوراه. لقد سُعد والداها كثيراً لعودتها إلى جانبهما على الرغم من الصهر الغريب الذي تجافى عن تحيتهما بالإنكليزية، وكان يقضي معظم أوقاته في غرفته مع كتبه وأسطواناته وزجاجات شرابه. تحمّلته إليزا عامين آخرين، ولكنّها طلبت الطلاق عندما حاول الشاعر الانتحار للمرّة الثانية بجرعة زائدة من المورفين.

ذهب الفتى للعيش في ضاحية الفيلاج، مع مجموعة من الموسيقيين والرسامين اللاتين. لم يتعلم الانكليزية أيضاً في نيويورك، ولكن معجزة حدثت. بدأ بكتابة شعر ناريّ بأسلوب إباحي مبتكر عن علاقات بين أجناس متباينة، وقد ألهمته في الواقع خلاسية بتسبرغ، وذلك على الرغم من هجرانه النساء وإقلاعه عن شرب الكحول. لقد حاز الكتيّب جائزة في مدريد، حيث لم يطل غياب الشاعر عنها وحصل عند عودته على حيّز ثابت في ملحق الأحد الثقافي كشاعر سماوي.

عادت إليزا إلى منزل والديها لمدة عام ونصف العام. أتمّت أطروحتها عن أنطونيو ماتشادو ونالت الدكتوراه بدرجة الشرف عام 1957.

عرضت عليها جامعة ماريلاند وظيفة الأستاذة المساعدة، ليس لجودة أطروحتها التي لم يتحمّل عناء قراءتها مسؤولو شؤون الموظفين، إنما لإتقانها اللغة الانكليزية، التي كانت تنطقها بأكثر الشفاه إثارة على وجه الأرض.

وذلك الخريف، تعرّفت إليزا في منزل عميد الجامعة في واشنطن إلى ذلك الاقتصادي الطويل القامة، المتحذلق والأعزب، الذي بدا غير قادر على ترك أسوأ العادات بأكل عيدان الكرفس ممزوجة بجبنة رديئة.

في طريق العودة إلى مقرّ إقامته، طلب غونتر من السائق، أحد مشاة البحرية، بأن يكمل جولته حول مقرّ البعثة. كان يستمتع بالانتظام الحسابي الذي يبدّل به مخبرو الشرطة السرية أمكنتهم على الزوايا المحيطة بمقرّ البعثة بعفويّة كل نصف ساعة. كانت ساعة معصمه، الأوميغا الفاخرة، تشير إلى تمام الثانية بعد منتصف الليل. كان الوقت مناسباً لحضور «تبديل الحرس»، لكنّه لم يرَ أحداً. كان الظلام حالكاً. لقد استغلّ هؤلاء مناسبة الميلاد للذهاب إلى مكان قريب ما لتناول المشروب.

لدى عبورهما بوّابة السفارة الحديديّة الضخمة، ظنّ غونتر بأنه سمع ضجيجاً غريباً بين الشجيرات التي تغطّي الجزء الأمامي من الحديقة. أمر الضابط بإيقاف محرّك السيّارة من دون إطفاء الأنوار، والانتظار خلف المقود. ترجّل من السيّارة مرتجفاً، وإحدى يديه في

جيب معطفه تمسك بمقبض مسدّسه البارد، وتوجّه نحو الشجيرات. وجد هناك اثنين من رجال المخابرات يحاولان الإمساك برجل رث الثياب، وعلى عينيه نظّارات تثير السخرية كنظّارات وودي الن، وقد وضعا في فمه قطعة من القماش.

اقترب منهما وصرخ في وجههما بالإنكليزية:

- أطلقا هذا السيد. هذا حرم دبلوماسي.

ردّ عليه الرجلان بكلمات نابية بالرومانية، بينما انتفض الرجل بين أيديهما بقوة وعيناه تكادان تقفزان من جحريهما. تردد غونتر للحظة قبل أن يشهر مسدّسه ويصرخ بالغوارانية، حيث لا فرق بين اللغات ما داما لا يفقهان:

- ها قد غضبتُ الآن!

لم يستطع الجزم قط إن كان الرجلان قد ذهلا لسماع الغوارانية أو لرؤية المسدّس، أو لرؤية الضابط المرافق يقترب شاهراً رشّاشاً حربياً في وجههما وقد عبس على طريقة مشاة البحرية، والنتيجة أنهما تركا وودي ولاذا بالفرار.

تسلم غونتر إنذاراً بمغادرة البلد خلال مهلة الأسبوع، وقد اتّهم بالتدخّل في الشؤون الداخلية.

- سأذهب، ولكن برفقة اليهودي! أعلن غونتر دون مواربة.

حاولت السلطات الرومانية تجنّب أن يأخذ الموضوع أبعاداً أكبر على الصعيد المحليّ، لذلك استطاع الحصول على تصريح بالرحيل

خلال أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة، وحطّ الاثنان في مطار واشنطن قبل نهاية العام.

- أنت بطل، عزيزي! قالت إليزا في استقباله في المطار وهي تبتسم ساخرة. -أخبرني، ماذا كان شعورك؟

- لقد تملكتني الحازوقة من الخوف! قال غونتر، وعانقها داسّاً أنفه تحت أذنها. في الواقع بدا له عطر الشانيل على رقبتها أكثر أنوثة من رائحة الطهو التي كانت تعبق بثيابها في ايداهو.

في الشهر التالي، أدّى القسم رئيس جديد عرّف نفسه خلال حملته الانتخابية كفارس ناري في حماية الحقوق الانسانية. كان غونتر قد ظهر على غلاف مجلّة نيوزويك في الأسبوع الفائت، ولم تتردد الحكومة الجديدة في دعم ترشيحه لرئاسة البنك الدولي، / الذي سيتم انتخابه هذا العام.

10

تثقيف العقل يكون في التناقض، لا في اليقين، والثورة هي الحق في الشك.

افردي لي مكاناً إلى جانبك، موازياً للذكريات، عريضاً كالأفق الملتهب بالأشواق، دافئاً كمداعبة يديك السرّيتين، يكون لي وحدي كتغريدة تدفق شعرك على كتفيك. سوّي لي مكاناً إلى جانبك حيث أستطيع أن أمدد أحزاني، يكون ملجأ للألوان وحماية من القتال، حيث أستطيع أن أنسى الموتى: كلّ حكايتي الرفيعة وجراحاتي، واللسع بالكهرباء والجرب، ودوامة الرغبات وكلّ تلك التلال من الذكريات. سوّي لي مكاناً إلى جانبك لأكون إلى جانبك ومعك، وأنظر نظراتك نفسها، وننزف جنباً إلى جنب من الشريان نفسه ونصنع نموذجاً للوطن بأسلحة شعبية: الانتقام نفسه للأحلام نفسها. سوّي لي مكاناً في لحدك يتّسع لكربتين، دعي لي مكاناً في روحك حيث تحتفظين بقبلاتي، أريد أن أجعل منك طائراً أو أغنية، ولأقول لك أحياناً كم أحبّك.

عندما علم غونتر بأنّ الجنرال غونزالس (وهو أحد رؤساء النادي

الرياضي سرّو وكان زبوناً معتاداً في صالون سنابريا) يدعى أيضاً فرانسيسكو خافيير، أحس بإحدى نشواته الصبيانية بالتواطؤ والاكتفاء.

لقد اتّصلت إليزا بمركز قيادة الخيالة للحصول على موعد من الجنرال، وحددوه لها في اليوم التالي.

لقد اعتبرت ذلك بداية متفائلة إذا ما أخذنا في الاعتبار انغلاق العسكر.

كان غونتر متأكداً بأنه لم يتعامل شخصياً مع موظف رسمي غريب على الإدارة المدنية أقله منذ خدم في التجنيد الالزامي، منذ حوالى النصف قرن. كألماني أصيل، كان قد استمتع على طريقة المراهقين خلال فصول الصيف الثلاثة تلك بالانضباط الاسبارطي في الصحراء التي حرّرت حديثاً، والتي حاز خلالها تشريفات ملازم مساعد والتوصيات الحماسية من رؤسائه.

كان يفكر أحياناً أنه لو بقي في الباراغواي لكان ربما أكمل مسيرته العسكرية في سرية الهندسة. غالباً ما كانوا ينتقدونه في عمله المكتبي بأنه كان يدير البنك كثكنة عسكرية. كان ذلك يروقه في قرارة نفسه. في واشنطن كان يعرف عن أبناء الباراغواي افتقارهم إلى اللباقة لكنهم يعملون كالبغال.

لم يكن غونتر ليشذ عن ذلك، بل كان يتقبله بغرور ذكوري، وهذه فضيلة كاملة لأحسن الجنود. لقد هوت الفظاظة والغطرسة بمسيرته الدبلوماسية إلى الحضيض في رومانيا، ولكنها أيضاً ساهمت في تلميع صورته في الدوائر المقربة من الرئيس ريغن.

كان يتردد الكلام بأن سوليداد ستخرج إلى الحرية في أي وقت. بضعة أشخاص فقط كانوا يتذكرون مصرع لارّاين الذي ما زال سراً. لقد اصطبغ هذا الحادث بلون سياسي فاقع، وتحولت ابنة أخت غونتر الخجولة إلى واحدة من أكثر النساء شعبية في كورينتس.

أخذت إليزا أمابولا في سيارة الفولفو إلى دائرة الشرطة المركزية لتكونا قريبتين بانتظار الأخبار السارة.

بين حطام الثلاثاء والأعياد، مصلوبة فوق هذه الساعات الموجعة بتشابهها، بعيداً عنك، حبيبتي ذات العينين الكبيرتين الدامعتين، لن يستطيع الحزن هزمي.

ذهب غونتر بالتاكسي إلى مقر قيادة الخيالة، ووصل قبل الظهيرة، قبل خمس عشرة دقيقة من الموعد المحدد. لفت انتباهه بأن تكون سكرتيرة الجنرال غونزالس شابة مدنية اللباس. أخبروه بعدها أنها ابنة أخت الجنرال، وهي تدرس علم الاجتماع.

زأر الجنرال لدى دخوله بأنه ليس لديه الوقت ليضيّعه. كان مربوع القامة لكن ذا عضلات مفتولة وبدت بزته من صنع خياط محترف. لقد طغى على المكتب الواسع المضاء جيداً بنور الشمس جو من النظافة القاتمة والانتظام، كالذي أعجب به غونتر في منزل رئيس معهد المحامين فقط.

متى سنذهب، أبعد من الشواطئ والجبال، لتحية الولادة الجديدة للعمل، والمعرفة الجديدة، وهروب الطغاة والشياطين ونهاية الخرافة،

لنكون الأوائل لعبادة الولادة الجديدة فوق هذه الأرض (أرثور رامبو).
حتى الجغرافيا ستغيّر ألوانها، سيكون الشجر أكثر اخضراراً، والطير أكثر طيراناً، والأنهار أكثر سعادة، والتلال أكثر جمالاً، والمرأة أكثر روعة. والرجال سيكونون أطفالاً أكثر. لن يتذكر أحد كيف كان النسيان. ولن يكون هناك وقت ليبصق أحد الأحقاد.

ولن يكون هناك قمر آخر سوى قمر النهار ويداه متحدتان مع الحب، والعمل والحياة والشعر. ولن تكون هناك كتب عصيّة على الفتح، ولا أغاني مشوهة بانعكاس نور الهواء. ولن تكون هناك شفاه تمنع عنها القبل كما تهوى وتحلم، ولا آلهة إلا بعادات البشر الضعيفة. وهكذا نذهب معاً نحو أنفسنا، سكارى من العناق والعطور والموسيقى. تعمّنا السكينة، ونتوسع في شمس الآخرين مثل وطن حميم وراية كبيرة. ستكون الأرض جميعها كصباح هائل بدون الجمارك ولا الجندرمة ولا الحدود: مادة نهرية متجانسة ومرصعة. عنيدة كالحياة، معقل الأمل، هذا التلهف لبلوغ الفجر يقوّي عزيمتنا ويدعونا للتجمهر. ويحرر آثارنا من الغياب، فهي لا تقهر. وفي الذاكرة يحاك المستقبل رويداً رويداً.

ما إن جلس غونتر حتى أثار مسألة تشابه الأسماء.

- إنها لصدفة سعيدة أن نحمل الاسم نفسه، سيدي الجنرال!

قال بشيء من الثقة.

- جنرال فقط.

– ماذا تقول؟

– جنرال، فقط! أعاد غونزالس بصبر نافد. - لا داعي لأن تقول سيدي الجنرال، حيث أني لست جنرالك. يكفي جنرال.

– حسناً اعذرني، سيدي الجنرال، أقصد جنرال. في الواقع لقد تملكتني ذكريات أيام الجندية. كانت أياماً جميلة.

أصدر غونزالس قحة خفية وصرف نظره إلى اخضرار الشتاء الذي انعكس على الزجاج من خلال النافذة الضخمة المطلة على عنابر الدبابات. لم يستطع غونتر تخمين نظراته، ولكن ظلالاً بيضاء عبرت في صوته الأجش بسبب التبغ الأسود.

الانتظار طويل وحلمي معك لم ينته (أوجينيو مونتالي). يطيلون سُدىً هذا الغياب، لأنك ترافقينني، ووحدتي تمتلئ بك، لأنك تذكرينني. وصمتي يصبح دون أغلال، لأنك تحبينني. انتظريني على آخر زوايا الصباح، فهم لن يستطيعوا تغييبي من الحياة.

– حسناً، دكتور، بما أخدمك؟

– اعذرني جنرال، لا أرغب في سرقة وقتك الثمين، أردت فقط أن اعبّر لك عن خالص امتناننا وشكرنا لكل ما فعلته من أجل سوليداد. أستطيع أن أؤكد لك بأني سآخذ دائماً بالاعتبار تصرفك النبيل هذا عندما ألتحق بمهامي المالية في واشنطن.

– لا تهتم يا صديقي! أجاب غونزالس. لو أن أحد القرويين سمعها لعرف فيها اللحن نفسه الذي يتهكم فيه أهل المدن على أهل

القرى. – في الواقع لا أفعل هذا من أجلك، إنما من أجل سانابريا.

احتار غونتر في أمره، والتزم الصمت.

– إنّ ...! تمتم بعد برهة، –نعم، شقيقتي في غاية السعادة، وهي ممتنة لك كثيراً. لقد أخبرتني بأن صهري المتوفى كان حلاقك المفضل.

– كان صديقي، إنه رجل طيب.

– نعم، طبعاً، جنرال.

– كان متعصباً بعض الشيء، المسكين.

– حسناً، ولكن نادي السرّو كان دائماً هكذا! قال غونتر بنبرة خطابية وهو يحرك أصابعه الطويلة. – يشجع الرياضيين ويبث فيهم الحماسة، ويحشد حوله الجماهير. لقد صدق فيه القول «إعصار تشاكاريتا». أنت زعيم كبير.

– لا، لم أقصد بأنه كان من متحمسي نادي السِرّو، بل قصدت كونه فوضوياً. نعم كان متعصباً بعض الشيء.

– آه! بالطبع سيدي الجنرال، أقصد جنرال. لا أعلم لماذا يتدخل الناس في السياسة، عندما يستطيعون ممارسة العديد من النشاطات المثيرة للاهتمام. أنا لدي نفور غريزي من السياسة.

– إننا بحاجة إلى الثمار، وليس إلى الحماقات.

– في الواقع إن سانابريا المسكين كان قليل التحصيل العلمي، سيدي الجنرال، فهو لم يكمل دراسة الكاتب العدل.

- لا، لا دخل لهذا بذاك. أنا حصلت على ثلاث شهادات جامعية، إحداها بدرجة ماستر، ولكني لا أعتبر نفسي أفضل منه. لا شأن لهذا الأمر.

- لا تظن ذلك جنرال. أنا أعرف مسيرتك الرائعة. لا مجال للمقارنة. سيكون ذلك محاولة مقارنة لوحة الماجا للرسام غويا برسم مافالدا الكاريكاتوري.

تتبدد ذاكرة غروبي عندك، ولا أعرف من الذي ذهب ومن الذي لم يذهب بعد (أوجينيو مونتالي). لابد أن يفتح هذا المنزل أبوابه ذات يوم وسيحبهُ دون أقفال هواء إنساني عريض، وسترمي مفاتيحه أيادي الجماهير في كل مكان، ستغرق هذه النافذة فجأة بأنوار الفجر. وعندئذ سيكون من الممكن الدخول والخروج من عتبة الأمل المفسوحة للجميع كالساحات أيام الآحاد. أما الخارجون، فنخرج وشفاهنا متفتحة كالزهور وأما الداخلون، فندخل وأيادينا مفتوحة. ها أنت ترين، إنك ترافقينني في هذه اليقظة الطويلة، وأنا أستطيع الدخول والخروج برفقتك فقط. منزلي هو منزل الرجل حيث ترقد نظرة الطفل التي تؤذّن للصباح، والسر الحبيس لصمت بعيد وكل رذاذ المطر وجلد الحنين. إن منزلي هو أكثر من هذا القطر المستاء، إنه هذا الليل الهائل بمواقيته الصدئة. لكننا نحن الحرية، وعندما تحتلينها أنت يسطع فجرها.

- أولادي يعجبون كثيراً بشخصية مافالدا، بثيابها أو بدونها، كما قال سان مارتين. إن الدوقات لا يحسنون المعاشرة إلا مع اليسوعيين.

سأقول لك شيئاً: كان سنابريا يمتلك حكمة طبيعية. يبدو أنك لا تعرفه جيداً.

- في الواقع، لا أعرف عنه الكثير! اعترف غونتر، - لكنه كان يروقني. كان طيباً. من المؤسف أنه لم يحسن تربية الصغيرة، أليس كذلك؟

- ولم تقول ذلك؟

- ... لتورطها في أشياء غريبة، ابتداءً بالتظاهرات ضد هيغ، وبعدها بالوفاة الغريبة لذلك الرجل من أميركا الوسطى... ولو أني متأكد بأن لا علاقة للمسكينة بهذا! ... وأيضا تلك الأشياء الغريبة مع زميلتها، أليس كذلك. لكن زوجتي تعرف طبيبة نفسية ممتازة في واشنطن.

- حسناً، إن سنابريا كان معارضاً بالرضاعة، ولو أن أنصار حركة شباط/ فبراير استلموا الأمر لكان بدّل شهره. وأظن بأن ابنته من طينته نفسها. لا بد أنه نمط حياة. والكلب الذي ينبح لا يعض.

- المشكلة تلد عندما لا نرقب فكر الأولاد. عندما كنت في بوخارست...

- كم ولد لديك؟ قاطعه غونزالس.

- في الواقع لدينا فتاة واحدة، متبناة. إن سوليداد هي البيضاء الوحيدة من آل غونتر من الجيل الجديد، ولهذا ...

- أنا لا أعرفها؛ قد أكون رأيتها ذات مرة في صالون الحلاقة.

نعم، أتذكرها. ليست شقراء كوالدتها، لكنها جميلة جداً ومهذبة. هل تعرفها جيداً؟

- لا أعرف عنها الكثير.

- أخبرتني أمابولا أنها قضت معك أحد فصول الصيف في واشنطن، أو بالأحرى أحد فصول الشتاء.

- نعم، ولكننا لم نكن نكثر الكلام. والآن سآخذها لوضعها في الطريق القويم.

- أتمنى ذلك، ولكن لا تجهد نفسك كثيراً، إن التمرد تصرف طبيعي عند الشباب. لقد كنت مراهقاً شقياً، لذلك أرسلوني إلى المدرسة الحربية.

لقد وضعوا الأغلال في يديّ، وظنوا أنهم يهينوني. أي أغلال؟ وأنا أحتفل بغمازات وجهك. ليس عندي سعادة أخرى. تلك هي أغلالي.

- بالطبع، سيدي الجنرال. إن الثكنات تعلّم الانضباط. من المؤسف أن سوليداد لا يمكنها الالتحاق بالتجنيد الالزامي. هناك تصحح الغرائز.

- .... حسناً دكتور، أعتقد أن أشخاصاً بانتظاري! ونظر غونزالس إلى ساعة يده - هل أفيدك بأمر آخر؟

- كلا، سيدي الجنرال. شكراً جزيلاً لك على كل شيء. إن مريم العذراء ستجازيك على هذا. وأظن بأن الأمور ستكون على ما يرام. إن

زوجتي وأمابولا تنتظران في دائرة الشرطة. قد يفرج عنها اليوم، أليس كذلك؟

- أفترض هذا.

سآخذك معي لأنك روحي، وأنت خُطاي والبوصلة التي أقتدي بها، وأسلوب حياتي، وأنت الوعي بأني مازلت في هذا العالم، عيناك البعيدتان هما حبي الأوحد. سنجتاز الحياة معاً كخارطة النجوم، كالجبّار، حيث هنالك متسع لوضع الأصابع، لخارطة سرية ذهبية، في فلك الحنان اللامتناهي. يبزغ الفجر في عينيك فقط، ويداك تداعبانني فقط، وشفتاك تقبلانني وتناديانني فقط. سآخذك معي! بدونك لا أستطيع الرحيل ولا البقاء.

- اعلم بأننا ندين لك بكل هذا، جنرال.

- لا، على الاطلاق. إن الأوامر تصدر عن السلطات، وأنا أقوم بواجباتي المهنية بحذافيرها. أنا لا أتعاطى السياسة، وأنتم لستم بمدينين لي.

- أقدر تواضعك، جنرال. إن أمابولا تذكر دائماً بأن حلم المرحوم سنابريا الكبير كان بأن تصبح أنت... يعني، منصب رفيع... أنت تعرف قصدي. في أغلب الأحيان يكون العسكر رجالات دولة أكثر من السياسيين.

- أحياناً دكتور، يجب على المرء أن يعمل ما يعرف عمله. ونحن العسكر علينا البقاء في الثكنات، وأنا ليس عندي طموحات. زد على ذلك...

انتظر غونتر بضع لحظات ليكمل الجنرال ما كان يقول، ثم سأله بعدها بجدية:

- نعم؟

- حسناً، يبدو أني مريض بعض الشيء. إنه التبغ، المذنب الأبدي. هل تدخن؟

- أحياناً أشعل سيجاراً كوبياً. من النوع الخفيف جداً.

- لا تدخن يا صديقي، لا أنصحك بهذا.

ثم شد على يده بحرارة وفتح له باب المكتب بقوة. انتصب في الحال أحد الحراس بوجهه الزهري. أمره غونزالس بأن يرافق غونتر.

- نعم سيدي الجنرال. صاح الفتى بصوت ثابت كأنما تلقى أمراً إلهياً.

- حسناً، إلى اللقاء، سيد غونتر، سيقلّك هذا الفتى بطائرة الهيليكوبتر، أشر له إلى المكان الذي تريد! قال غونزالس وهو يمدّ يده له مرة أخرى، ودون أن يسحبها اقترب بفمه من أذن غونتر، والذي كان يعلوه بمقدار رأسه، وأضاف بصوت خافت: ... إن لم نعد للقاء، فأرجو أن تخبر الصغيرة بأني كنت أحب والدها كثيراً.

من أجلك أنت حبيبتي، أعطي كل شيء. أقسم لك، إلى الأبد. ما تطلبينه مني وما لا تطلبينه. كل شيء. أحبك وهذا يكفيني. والبقية هي أشعار.

11

جلست إليزا وأمابولا تنتظران بهدوء على المقعد الحديدي في إحدى الزوايا الساكنة منذ فتحت مكاتب المديرية المركزية لشرطة كورينتس أبوابها للعامة في ساعة الفجر تقريباً. كانتا تنظران إلى الوجوه التي تلتفت نحوهما، وهم أشخاص أتوا لتجديد رخصة القيادة أو لدفع غرامة أو لطلب ترخيص لحفلة غنائية أو لشراء قسائم دفع الضرائب أو لطلب ترخيص بإلصاق اليافطات.

كانت أمابولا تمرر بين أصابعها المرتجفة حبات سبحة مقدسة من كنيسة العذراء في بلدة كاآكوبي التي تضرعت اليها بكل أنواع الصلوات والنذور.

قرابة منتصف النهار، أحست إليزا بالجوع وسألت أمابولا إن كانت ترغب في الأكل. أومأت شقيقة زوجها بالنفي برأسها المغطى بمنديل الأرامل الأسود دون أن تتوقف عن صلاتها بصوت خافت. عندئذ نهضت إليزا ووضعت معطفها من فرو الفيزون الفاخر، وتدلت من كتفها محفظتها ماركة كارتييه التي اشترتها من ساحة فندوم، وتركت على المقعد إحدى روايات الكاتب بيللو التي كانت تقرأها وطلبت من أمابولا أن تحفظ لها مقعدها إلى جانبها.

كان الهواء قوياً في الشارع على الرغم من شمس الشتاء. رفعت إليزا غريزياً ياقة معطفها ووضعت قفازاتها. تحركت بخطى رشيقة ويداها في جيبيها في الشارع الذي ينتهي عند المسرح البلدي القديم، ثم اتجهت إلى مطعم لودو بار، وهو ذو طراز أميركي يقدم الوجبات السريعة ويبعد عن مركز الشرطة شارعين. بمواجهة ليدو بار كان ينتصب ضريح الآباء المؤسسين حيث يرقد في نوم أبدي أبطال كورينتس وبعض الشخصيات من البلدان المحاذية الذين ماتوا في المنفى. على درج الضريح وقفت حفنة من الصبيان العراة تنادي المارة لشراء الساعات اليابانية المهربة.

دخلت إليزا إلى لودو بار. طلبت بعض السندويشات والقهوة في سلة لتأخذها. أعطوها وصلاً وانتظرت لوقت طويل لأن المكان، وهو المفضل عند موظفي الحكومة في وسط المدينة التجاري، كان يغصّ بالزبائن. راح بعض أبناء الرعية يرمقونها بنظرات فيها الاستغراب والحشرية، ربما لأن معطفها من الفرو الفاخر كان غالي الثمن ولا يتناسب مع الزمان والمكان. شعرت بالإحراج. كان من الأجدر أن تأتي بغطاء خفيف بدل معطف الفرو لا سيما وأن الشتاء في القسم الجنوبي من القارة لا يتسم بالقساوة. أمسكت أخيراً بسلة الغذاء التي ناولتها إياها يد إحدى العاملات بلباس الطهاة من فوق الطاولة. سألت إليزا إن كان هناك جهاز هاتف. أشارت النادلة إلى الهاتف المعلق في عمق البار. وضعت إليزا بعض النقود وطلبت رقم المنزل. تنهدت

بارتياح عندما أجاب غونتر على الطرف الآخر. أخبرته إليزا بأنه لا جديد وسألته كيف كان لقاؤه مع الجنرال غونزالس. رائع قال غونتر. وضعت إليزا سماعة الهاتف وهي تبتسم. كان واضحاً من صوته أن زوجها كان مسروراً وأنه يأمل أن تسير الأمور كما يريد. عودوا مع الصغيرة في الحال، قال غونتر، ولا تتوقفوا للطعام، فالشمبانيا جاهزة.

خرجت إليزا من لودو بار تحمل سلتها، ومع علمها بأن قهوتها ستبرد، إلا أنها لم تستطع مقاومة الرغبة في عبور الشارع باتجاه الضريح. كان طراز البانتيون فرنسياً صممه مهندس إيطالي في القرن الماضي على نسق الضريح الذي ينتصب على تلة جينوفيفا المقدسة القديمة في باريس. طغى على طلائه الرديء اللون الرمادي، الذي تناوبت على مسحاته فراشي متطوعي البلدية ولكنه ما زال يشير إلى السماء بالصليب المذهب على قبته الرومنسية. صعدت إليزا الدرجات. كان الباب المرتفع المصنوع من الخشب السميك المعرّق والمزيّن بالنقوش الكنسية مفتوحاً على مصراعيه. كان يحرسه اثنان من العسكر الشباب بلباس الشرف وشعلة ملتهبة. في الداخل عبقت الظلمة برائحة الشموع الخفيفة. عند المدخل، كان زوجان من السياح بالثياب الملونة يثرثران بالبرتغالية عن التفسير التاريخي المحتمل للتماثيل ووشاح العذراء الأزرق على المذبح الرئيس. وفي وسط المعبد، وتحت القبة تماماً، كانت هناك حفرة بيضوية.

هنا يرقد «آباء الوطن»، قالت إليزا في سرها. كلهم رجال البلد

(الكونفدرالية، الباراغواي والضفة الشرقية) الذي أعادت إحياءه أمهاتهم. أين هي عظام أولئك المواطنات؟

كما ترين أيتها الرفيقة، الوطن تضطرم فيه النيران. أعيرينا نظرتك وجرتك الجافة، ومحرابك المتعب وعرق جبينك. أنت المقيمة من نار، الامراة ذات الأيادي البيضاء. لقد بقي أطفالك خلف الجبهة وفي عينيك أقمار ودموع حبيسة. نودّ لو يكون جسمك الخشبي القالب المتوهج لجيل جديد. أنت المقيمة المتوجعة، المقيمة الصامتة. تابعي مسيرتك الطويلة الغامضة المتداعية. لا تنسي بأننا نغني كي لا تنسي أن تأخذي الراية من الأبطال الذين سقطوا. اذكرينا أيتها الصديقة جميعنا الذين انتصرنا بالدم على الذي ربح الحرب. واسمعي لنا أيتها الأخت، واخصبي البذرة لأننا ننتظر تحت الأرض.

وضعت إليزا سلة الطعام والقفازات على حافة الحفرة، لكنها لم تخلع معطفها لأن البرد في الداخل كان أقسى منه في الخارج، حيث ساعدت الشمس والجفاف على التخفيف منه. أسندت مرفقيها إلى الحاجز المبني حول الحفرة ونظرت إلى التوابيت التي تكدست في الأسفل. على كل تابوت وضعت لوحة من البرونز عليها اسم البطل الذي يحويه، لكن عيني إليزا الخضراوين الكبيرتين كانتا مصابتين بقصر النظر. كانت نعلم أنه من بين الأبطال الذين يرقدون هنا اثنان من أبطال الباراغواي. أحدهما كان الدكتور اوسيبيو ايالا وهو الرئيس الليبرالي الذي قاد الوطن خلال حرب التشاكو والذي استعاد لشعبه

أرضاً بمساحة كاليفورنيا والذي توفي بالرغم من هذا في المنفى وما زال يموت هنا. بحثت إليزا عن نظاراتها في محفظتها ووضعتها على عينيها وحاولت قراءة لوحات البرونز. تمكنت أخيراً من تمييز اللوحة الخاصة بالباراغواني الثاني، وهو المارشال فرانسيسكو سولانو لوبز، الذي دفنت جثته، كما فعل بجثة كولون، في ضريحين بدلاً من ضريح واحد.

كانت بلدية اسنسيون تطالب غاضبة بأن تكون الجثة المدفونة في ضريحها الوطني هي الشرعية. لقد قضى لوبز في ساحة المعركة عام 1870 في أقصى شمال الباراغواي وتم دفنه في ساعتها في الموقع نفسه بيد زوجته المدام إليزا لينش كي لا تدنّسه جحافل البرازيليين. لقد استخرجت بقايا الجثة المفترضة بعد مرور ستين عاماً ودفنت رسمياً في بانتيون اسنسيون.

وعلى الرغم من ذلك، في العقد السادس من هذا القرن، قامت مجموعة علماء من اليسوعيين الأوروبيين وعلى رأسهم عالم آثار من كاتالونيا بمعاينة دقيقة للعظام المدفونة في اسنسيون (التي تعود حسب رأيهم إلى إحدى الخادمات الهنديات)، كما قاموا بمسح دقيق لمنطقة السرّو كورا في الشمال حيث دارت المعركة الأخيرة. بعد ثلاث سنوات من البحث الشاق، وجدوا بعض العظام وتوصّلوا بعد إخضاعها لفحوصات الانتروبولوجيا الأكثر تقدماً إلى التأكيد بشرعية عودتها إلى المارشال. لقد اعتبرت سلطات الباراغواي هذا الاكتشاف

إهانة وطنية وطردت اليسوعيين وأتبعتهم بمجاهيرهم وعظامهم في صندوق. قام عندئذ المونسنيور سيمون كاسيريس، الذي كان ضمن أعضاء فريق اليسوعيين بإيواء بقايا لوبز موقتاً في ضريح أبرشيته.

كانت إليزا تعلم بأنه في تاريخ الأول من آذار/ مارس عام 1870 تحول المارشال الرئيس إلى أول زعيم دولة في الأميركيتين قبل روزفلت والآندي يموت في موقعه محارباً العدو. لقد قضى لوبز في مقدمة جيشه المشتت، وغالبيتهم من الأطفال والنساء المقنعات بزيّ النمور، بعد خمس سنوات من المقاومة المعادية لفيكتوريا بوجه أكبر امبراطورية على وجه الأرض. «أموت مع وطني»، صاح قبل تلقي الطلقة القاتلة، وصدى صرخته ما زال يتردد بين هذه الجدران الحجرية الباردة والصامتة. ليسمع صوت بوليفار وهو يقول: إن الوطن هو أميركا. ليأت تمساح مارتي يبحر في الأنهار الوطنية. وليأت الهندي هوارز على ظهر بغلته الرشيقة. ولينزل سوكري من الجبل متسلحاً بالنجوم والأناشيد. ولتقصف الخوذات المستديرة حصان ميرندا الأحمر. وليستدع أوغينس البرق إلى جبين البطل الغاضب.

إنها قطعة البلد المنقسم، سان مارتين في ليلة في المنفى. ويسوعيون معاصرون عظماء يؤدّون التحية للشمس التي لا تغرب، ووطن لنكولن الذي نسي قافلة الدماء القديمة. وحنجرة أرتيغاس الأبدية يصدح صداها اليوم كالمدفعية: الوطن أو الموت، صرخة شرقية من اميركتي الفتاة: وفي جبال سانديتو بنادق وانبلاج فجر

وموسيقى وصلبان. يقترب فارس صاخب وسط عالم من الغبار، ها هو ساباتا أخ الفقراء، والقائد الكريم لهذا الشعب، هؤلاء هم الذين يأتون الآن لإخفاء أصواتهم النبوية، أصواتهم ذات النغمات الحرة، أصواتهم العنيدة وشهادتهم الشرسة. هم يحمون ظهر فرانسيسكو الشعب سولانا الشعب بينما يشعل لوبز قضية وطن الجميع التي هي قضيتك وهي قضيتي.

سرّو كورا! فلتمشِ عارياً في الطريق السحيق للتاريخ، في ساعة الزوال حاراً وماضياً، وعقرباً يتحول إلى عاصفة. في الأول من آذار / مارس سقط الذين ذهبوا لإعطائك الحياة. وتلك الحياة وجدوها يوم قضى الوطن محارباً. وطني الكبير! غداً ستصبح أميركا حرة ومتحدة. إنه الزمن المخيف الذي جاد فيه السيف بحده المصرفي الفاسد. إنّه الزمن المخيف حيث ذهبت الشمس إلى الجحيم مع الموت، مع الموت والموت أيضاً.

لم تقدر إليزا أن تصدق بأن جنرالات نظام الأرجنتين قادرين على الموت في جزر المالويناس أو في أية ساحة معركة أخرى. لقد عاش ايالا وصديقه الليبرالي المارشال خوسيه فيليكس استيغاريبيا وماتا أيضاً من أجل الوطن، ونالا شرف الانتصار لربحهما المعركة بمواجهة الامبراطورية الجديدة. لكن إليزا كانت تشعر بتعاطف رومنسي غامض مع المارشال الأقدم، وليس لأنه تمكن من تطعيم صالونات باريس بسيدة ايرلندية لها اسمها نفسه وعيناها الخضراوان نفسهما (وهي

اكتشفت ذلك مصادفة، لأن غونتر لم يروِ لها قط عن التاريخ) فحسب ولكن لأن ذلك النمر الملتحي، ذا النار الحزينة في عينيه التي لم تستطع كاميرات المصورين أن تحدّ من لهيبها وتصبغها بالأصفر، كان قد ترك خلفه أسطورة رائعة عن الملائكة والشياطين، عن الهادئ والعنيف، عن الكاثوليكي والثائر، عن العالمي والمتوحش، عن النموذجي والفرانكوفوني، وعن كارهي النساء والفحول، وعن المستهتر والمتوازن. لقد كان ذلك الصنف من الأبطال ومعاكسيهم في أميركا اللاتينية حيث لم يستطع مؤرخو الشمال تصنيفهم دون أن يخطئوا لأنه يكسر معاييرهم الخاصة بالمكتبات وخرافاتهم في أسفل الصفحات في معرض تمييزهم الخبيث من الطيِّب والمتحضرين من البرابرة.

إن ذلك الرماد الذي يُحفظ هنا كالكنز، وبصرف النظر إن كان أو لم يكن رماده، فبالتأكيد لم تخمد جمراته بعد.

من هنانزوي لكم باسم الوطن، باسم الرفاق الشجعان المظفرين. من هنا بالكلمة وبالموسيقى وحتى النهاية. كلمتك لحن الأبواق، هي الآن أرملة. نحن الصرخة ذاتها، أكان دبّوراً أم نشيداً أم حارساً. هي شمس واحدة شهدت ولادتنا، هنا، بجانب هذه الصفحة، في يوميات تالافيرا والشعراء المقاتلين. نحن من أصل الدماء المستعرة، ووطننا هو شعر لم يختم بعد، لذلك لا ننسى أبيات موتك، ولا موت الشاعر يومياً. في قبضتك نصف نظرتك ومثَلك صخرة عنيدة.

ها قد وصلت العبّارات في الليل، حان وقت الركوب. إلى

الأمام إذن أيها الأبطال من سلالة الملاحين. الرصاصات من خلفك! وخاصرتك تنزف! ايغناسيو خينيز! هنا المقاتلون الأبطال، سنكون ألصق بك من جلدك في قتالك، ويدك القابضة حين معاناتك، وجرّة شرايينك الحارة، سنكون خينيز وجيفارا ولينش للثكالى. ليس لوجهك المألوف عين واحدة، لأنه يرى. أنت العملاق الليلي ذو العين الواحدة، تنظر إلينا بدون ازدواجية، كالأرض. لقد جاؤوا منتصرين كالشعب، ثالوثٌ كالآلهة، وذهبوا ليبقوا هناك، كملاك من حديد.

اليوم هو انتصار كوروبايتي، ونحن جميعاً هنا، معك يا سيد خوسيه في هذا اليوم. فيك تتجسد الآمال واللمسات الأخيرة وبزوغ النهار والقيثارة. وسنكون معك، رفاقك إلى الأبد كما نحن الآن، في كوروبايتي المرقطة كالنمر التي تبعث اليوم: ارتيغاس ودياز وفلوريس. ثلاثية خوسيه، النافذة المفتوحة نحو الشمس المشرقة. وخلفنا الجيل الجديد، والسعادة والقرار الصائب وارتفاع العمران وحدود الماء والصيف. وهكذا سيكون، باسم فرانسيسكو وسولانا ولوبز.

فاجأتها أجراس المعبد! نظرت إليزا إلى ساعتها الذهبية الصغيرة، والمكملة لمحفظتها الفاخرة ماركة كارتيه، وخرجت من المعبد مسرعة ويداها في جيوب معطفها. عند عبورها بين رجال حرس الشرف، لفتت انتباهها بزّاتهم الرسمية التي يرتديها سلاح الفرسان في المناسبات الوطنية. لم تستطع تجنب التفكير في الجنرال غونزالس النبيل، الذي أبى إلا أن يكون وفياً لصداقته لحلاق فوضوي على الرغم من منصبه

على رأس الفيلق الأقوى في المقاطعة، ربما لسبب سيظل مجهولاً.

عندما نزلت مسرعة بمحاذاة المسرح القديم، ولسانها خارج فمها بين نظرات المشاة المدهوشة الذين أفسحوا الطريق للسمراء الجميلة ذات العينين الخضراوين التي تزهو في معطفها الفاخر من فرو الفيزون، كانت إليزا ما زالت تفكّر بأن ذلك السرّ الغامض لا بد أن يكون مفتاحه بين توابيت المعبد حيث نسيت سلة طعامها.

رأت أمابولا من بعيد وعلى رقبتها غطاء سوليداد وهي تقف عند باب مديرية الشرطة المركزية.

كلما اقتربت منها أكثر وهي تلهث، كانت تسمع صرخاتها الثكلى، ويتضح لها تجهم وجهها الباكي، ورأت أصابعها تداعب بمنتهى العذوبة حوافي الصندوق الخشبي الخشن المحكم الاغلاق الذي يبلغ طوله الست أقدام.

12

- هذا الشعر القصير مثلاً يدعى «كاسبار هاوسر». رأت الثلوج تتساقط على الأغصان العارية، وفي عتمة المدخل بدا ظل القاتل. (جورج تراكل). رأيته يدخل والشر في عينيه، وسمعت صلصلة الأغلال في جيبه. لقد أسكرتني رطوبة هذا الجلاد المتعفن وكانت الطيور ما زالت تغرد على النافذة. انظري، كانت سوليداد تحب أن تدوِّن في هذا الدفتر كل أبياتها المفضلة. وكان بعضهم شعراء ألمانيين وفرنسيين وايطاليين، وكنت أسألها لماذا لا تضع الترجمة. كانت تجيبني أن لا داعي للترجمة لأن النص هو إعادة الصياغة للعنوان. إنها المشكلة نفسها لكوننا نتكلم لغتين.

بقيت إليزا لشرب القهوة في البيت حيث كانت تسكن فيرونيكا وجدّتها بعد الانتهاء من مراسم دفن سوليداد. كانت الجدران المطلية بالكلس قد فقدت بياضها، وكانت تنقصه التدفئة، ولكن كان بالإمكان التنفس بحرية. وضعت فيرونيكا أسطوانة فيها تسجيل لسوليداد بصوت قيثارتها وأغنية لميتو تُدعى «المسافة».

شعرك شلالات من معدن بلون الزمن.

عندما يصل الندى بجناحك الحنين.
وجلدك الآن نسيان لرجوع سحري.
ماتت نجوم السماء بصمت، هي الآن مركب من رماد.
والنظرات نغمات تسكن روحك،
وعينا الخريف تواجهان الريح باكية.
دعيني اتذكرك كما كنت.

جعلت تلك الأغنية فيرونيكا تذكر شقيقها ألبرتو وجدّها، وذلك النمر السماوي الذي أرعب والديها بسيف ذي حدين يخرج من فمه (تماماً مثل قول الرسول يوحنا في سفر الرؤيا الأبوكاليبس).

- الأمر مثير فعلاً، إليزا. في الأيام الأخيرة كانت سوليداد تظن أنهم بصدد نفيها. كانت أشعارها التي أرسلتها لي في ثيابها في الأسبوع الماضي تتكلم عن النفي وعن السفر، وحتى عن العودة بعد نفي طويل. انظري، هذه هي، إنها مجعّدة قليلاً، لكنه خط يدها. إقرأيها بنفسك. قد يمضي وقت طويل قبل أن أستطيع قراءتها أنا مرة أخرى.

إنه الآن وقت الأمسية، فلندع تأثيرات القوة والحنان الحقيقي تتدفق نحونا. وعند إشراقة الصباح سندخل المدن الرائعة متسلحين بالصبر المتوهج (أرثر رامبو). سيكون عليك تحمّل حزن طويل، ووحدة مظلمة، وتحاصرك الحمى. سيكون عليك اعتياد الصمت الرطب والنافذة التي لا تفتح والسرير الشاغر. سيكون من الأجدى لك

ترك الشارع يرحل، وسيارات التاكسي وضجيجها، والمشاة الهاربين. عليك بالتخلي عن قلة صبرك. ستمكثين مكانك ويعتريك الصدأ مثل مسمار منسي. لكن ذلك لن يكون للأبد، ربما لحياة واحدة. حياة واحدة، حياتك أنت، وهي في الواقع ليست حياة. لن يبزغ عندك الفجر في كهفك دون أصداء. لكن تنفسك لن يتوقف، ودواتك المهجورة لا تكتب. سيعم الظلام. وعيناك بدون نظرات لن تريا شيئاً، لكنها ستتذكر. وستكون يداك الضائعتان بدون مداعبة، ولا أيد. لكن ذلك لن يكون للأبد، فالغد لم يأتِ بعد. لا يزال من الممكن بأن يعفو عنك ريح أو شمس أو شفتان. ستسترجعين اسمك وصديقتك وأشعارك ودمك ومقتنياتك. تعالي معي. لن تستطيعي النجاة من هذا الغياب دون الحب. معاً سنفتح النهار على مصراعيه.

- في هذا الوقت الذي يسود الكذب والتزوير والنميمة، قالت فيرونيكا وهي تناول إليزا وعاء السكّر. - تكون مواقف مثل مواقف سوليداد مثالية، واختفاء أبطالها لن يؤدي إلا إلى مزيد من إبراز البعد الثقافي والانساني للذين يتبنّونها. لقد كانت من سكان هذا العالم المعاصرين، وقد تميزت بالألم والقتال على كل الجبهات من أجل حرية الانسان، ناهيك عن اندماجها بقوة كفنانة. لذلك لا نريد لضريحها منزلاً من الرخام، بل مدرسة، أو مطبعة، بالحبر والورق. كل رفاق تظاهرات حزيران/ يونيو، الذين ضُربوا وعُذّبوا، كلنا نريد محو سجل الوفيات من «الصحافة الكبيرة»، والذين سعوا للاستفادة من اسمها.

إننا نحب من هو مثلنا، ونفهم ما تكتب الريح على الرمال (هرمان هيسّي). لم نر قط هذا الوجه. لكننا نتذكر عادته بالابتسام صامتاً. ولم نأخذ قط تينك اليدين، لكن ملمسهما الناعم هو صديقنا القديم. ولم نعرف هذه الشفاه، لكنها تقبّل ذاكرتنا منذ أنهار سحيقة. لم تطأ قدماه اللامباليتان عتبتنا، ولم يعكّر غروبهُ وحدة أدراجنا الخاصة. ولم يبدد ترمله الدخيل الآتي من المستنقعات طقوسنا اليومية الهزيلة. لكنه وصل الآن، ومع أننا لا نشاركه في ناي لغته المحمول، ولا نهتم بصدى تحيته التي يلقيها علينا من أنفه، ولا نكترث لحشرجة الربو التي ترافق إنذاره الأخير! نمد له ذراعنا! فهو لم يكن قط هنا! لكنه عاد الآن! ويطوف خياله في منزلنا دون أن يفاجئنا، ويجول في زوايا لم تخطر لنا على بال، ويكلمنا في الليل كعادته دائماً بمقاطع صوته التائه. ونتحادث وإياه كالأطفال الذين يكشف عنهم الشتاء ويرصدون خطواته اللامتناهية تحت صمت النجوم السرّي.

- كانت سوليداد تعارض دائماً ما كانت تدعوه المركز الثقافي، أو العالم المصغّر «لحياة الفنانين»، حيث يسود الثناء على الفسق والنزاعات والمديح المدفوع ثمنه بمديح مثله إلى جانب الابداعات التافهة والتشكيلات الفكرية البائسة التي تكون أكثر الاحباطات إثارة للشفقة! تابعت فيرونيكا. - لو تسنى لها الوقت لواصلت كتفاً إلى كتف مع الآخرين، الكفاح من أجل حرية الانسان، سواء بالكلمة أو بالبندقية. في بلدنا، لو أراد الانسان الحبّ لوجب عليه أن يكون ثورياً،

لأن هذا ليس ممكناً بكل بساطة دون أن نغيّر كل شيء. قالت لي يوماً. في كثير من المرات، وعندما كنا نتشارك في المبادئ والمعركة في مهامنا اليومية، كانت تتهمنا بالسقوط من حيث لا ندري في الأشياء ذاتها التي كنا نهاجمها.

كانت إليزا تودّ أن تعترف لها بأنها هي من قتل لارّاين، ليلة المسرحية، مقنّعةً برداء ممثلة يونانية كجلد النمر. لم تستطع الوصول لإنقاذ ألبرتو. ولم تمتلك الشجاعة لإنقاذ سوليداد.

بالخمر أو بالشعر أو بالفضيلة، كما يحلو لك. لكنها الثمالة. (شارل بودلير). لقد نسي ليلة ويداً وحائطاً. نسي أمسية سعيدة من طفولته. لقد نسي مصباحاً والكتاب والطاولة. ونسي وجه الجنوب البعيد المنغمس في عادات جديدة كالمتشردين، وطائر الحسون والعطش ومجموعة الأكواخ يعرضون عليه صداقة معمّدة بالدماء. يختلسون المكان الهارب من الذكريات. والموسيقى، والناس، والعمل الدؤوب والصور والغياب الذي لا شفاء منه، وإشارات السير ورائحة القهوة والمال والتبغ؛ كلهم هنا، المسافة لباسهم. وعلى الرغم من كل هذا، عند الفجر، وبينما يشرب المتّي، يبدو له بأن كل شيء على حاله لم يتغير. يتعرّف إلى تألق قديم هذا الصباح، ويشعر بأنه لم يقل قط كلمة الوداع. لقد أتعبه تآكل المنفى البطيء، وصمت الشارع الرهيب، يحنّ كالمجنون إلى العودة والصراخ والثمالة في الحياة

بين حيوات أخرى. عندئذ ينشغل بحنين مهدّئ ويهيىء بعناية حقيبته الهادئة، كل شيء جاهز للسفر! وبينما يحفظ أغراضه، ترتسم في عينيه ابتسامة غريبة.

كانت المرة الأولى التي ترى فيها إليزا دموعاً في عيني فيرونيكا، تنحدر على وجهها الرائع والقاسي مثل نهديها الكبيرين الدائريين تحت سترتها الحمراء الضيقة.

- في آخر ليلة رأيتها، آخر مرة وجدنا معاً، الليلة السابقة لهذه المهزلة، هذه الغباوة التي قمنا بها في مسرح المدرسة، غصّت فيرونيكا بالبكاء، ـ قالت لي سوليداد ما لن أنساه أبداً: أشعر بأن ما أقوم به هو حقيقي بكل عمق، وأنه سيأتي يوم دون أن أدري ربما، ويأتي شخص لا أعرفه ولم أعرفه ليقرأ أشعاري وتنتابه مشاعر كالتي تنتابني الآن.

وشهقت فيرونيكا بالبكاء. كانت تهتز بعنف مما سبب التوتر لإليزا، على الرغم من تناولها العديد من الحبّات المسكّنة. جلست على الكنبة إلى جانب فيرونيكا وأخذت يديها بين يديها. نظرت إلى أظفارها وعليها آثار العضّ حتى أن بعضها ظهر غائراً في اللحم ومشوّهاً. بعد برهة، هدأت الشابة قليلاً وابتسمت بحزن لإليزا من خلال الدموع الكثيفة التي انحدرت على وجنتيها. كان وجهها ورقبتها يصطبغان بالاحمرار كما يحدث بعد مجهود رياضي شاق. ابتسمت بحياء ولكنها أتمّت بصوت مبحوح لا يكاد يسمع:

- من يدري يا إليزا، ربما كانت شهية قلب الانسان العاصفة والعصيّة على الفهم أكبر من الأمل. ربما الحبّ أطول من الزمن.

العودة جديرة بالاهتمام، حتى لو تغيرنا (سيزار بافيسي). جميلة هي العودة بعد طول الغياب، ومعانقة أحبائنا بفرح ولهفة، ونجد كل شيء قد تغيّر، ونكتشف عندئذ فجأة بأننا لم نرحل قط.

لقد رفض كلاهما العيش خاتمة حياتهما كالمطرودين. عاد طوطو أزواغا في الوقت المحدد لبدء فصل الصيف الدراسي في أوكلاهوما. وتابع خوان فرانسيسكو غونزاليس إمرة فرقة الفرسان في كورينتس بيد من حديد. لم يمارس طوطو الرياضة يوماً وكان يسرف في تناول الكحول والدهون والتبغ. أما الجنرال، باستثناء التبغ، لم تعرف له مساوئ أخرى. لم يكن يتعاطى الكحول، وكان يقضي ساعة يومياً بتمارين الرياضة والسونا، وكان يمارس الفروسية ويقود الطائرة بمهارة، وكان يحافظ على رشاقة جسمه. وفي الحالات النادرة التي فرضتها عليه العزوبية كان يستعمل دائماً الواقي الذكري. كان جسد طوطو يتآكل ببطء، يقوِّض روحه ويلتهمها. في تلك الأثناء، أقرّ الجراحون في تولسا بتر ساقيه.

أما غونزاليس، فلا. لقد أطلق الرصاص على نفسه في تلك الأمسية التي زرعت فيها النشرة المسائية الوحيدة في كورينتس عنوان صفحتها الأولى المقزز في المدينة والصور المأسوية للشابة الشاعرة سوليداد مونتويا سنابريا غونتر، التي أعيدت إلى ذويها جثة هامدة نتيجة إصابتها «بنزف داخلي غير معروف السبب»، على الرغم من الاهتمام والعناية في سجنها والمجهود الكبير الذي بُذل في وحدة

العناية المركزة في عيادات الشرطة. لم يسمح قط بفتح التابوت ولا بالقيام بتشريح الجثة. عزت الإفادة الرسمية انتحار الجنرال إلى الأمر المعروف للجميع وهو معاناة غونزاليس المرض العضال. لكن قريبة الجنرال أخبرت الجميع في كلية علم الاجتماع بأنه لم يستطع تحمل الاتهام بالغدر والعار لموت سوليداد بعد أن وعد عائلتها بأنها ستخرج سالمة معافاة.

كان غونتر يود أن يرى بزّة الشرف الرسمية التي يوارى فيها ذاك الذي له اسمه نفسه، لكن التابوت أحكم غلقه وجرى نقله إلى صالون الثلاثين من شباط/ فبراير في القصر الحكومي لعاصمة المقاطعة وجرى لفّه بعلم الارجنتين. لقد تمّت ترقيته بعد وفاته بمرسوم أصدره في صباح ذلك اليوم بيغنون، وأمر بأن يجري تأبينه بمراسم قائد فرقة.

لقد أخبرت أمابولا شقيقها بأن أحد المسؤولين في نقابة الحلاقين اتصل بها. لقد تلقّوا دعوة في أمانة سر النقابة من قيادة لواء المشاة لكي يلقي أحدهم كلمة بالمناسبة باسم أصدقاء الجنرال. لقد اعترف لها الحلاق بأن الشخص الأنسب لإلقاء الكلمة كان سنابريا، ولعله من المناسب أن يغتنم غونتر فرصة وجوده في كورينتس للحلول مكان صهره.

– إنهم مجانين! صاح غونتر مندهشاً ـ أنا لا أجيد الكلام في الجموع، ولست من مشجعي نادي السرّو.

لقد تأخر الوقت، ومراسم الدفن عند الساعة الرابعة، والمرافقة

الرسمية ستخرج من القصر الحكومي أقله قبل ساعة. لقد استقرّ رأي غونتر وشقيقته والنقابي على الذهاب إلى المدافن مباشرة. لم يستقلّوا سيارة الفولفو، إنما ذهبوا في سيارة الفولسفاكن البرازيلية المتداعية مع صديق سنابريا. لم يتوقف الحلاق خلال الطريق عن الالحاح على غونتر بإلقاء الكلمة رغم الضجيج والغبار الذي أثارته سيارته. كان يصرخ ويصرخ كما لو أن هذا اليوم هو أهم أيام حياته. أما أمابولا، فلم تحاول إقناعه سوى بنظرات عذبة من عينيها الزرقاوين.

أوقفوا السيارة إلى جانب المقبرة، ومشوا نحو باب الكنيسة. لقد تجمهر الكثير من الناس على جانبي الطريق. في وسط جادة المحرر سان مارتين، وقفت مفرزة من المشاة وفرقة الفرسان الموسيقية على أهبة الاستعداد في كامل حلتهم الرسمية ينتظرون بفارغ الصبر الإذن ببدء عزف الموسيقى الجنائزية لبتهوفن وتقديم السلاح، (كان هذا المشهد هو المفضّل لدى الجنرال، حسب مذيع الراديو في سيارة الفولكسفاغن)، على غير ما جرت عليه العادة بعزف موسيقى شوبّان. لقد أمسك مجنّدو الفرقة، وهم صغار السن، بنادقهم مع الحراب بصلابة إكراماً لقائدهم المتوفى، وعلى وجنات بعضهم انحدرت دموع الوجل والاحترام.

- يا للمبالغة! وكأن الإله نفسه قد مات! علّق غونتر واقفاً بين شقيقته والحلاق في الصف الثاني بين المجتمعين.

اقتربت المرافقة الرسمية أخيراً على الأقدام خلف النعش المغطّى

بأكاليل الزهور. كانت تجرُّ العربة التي تحمل جثمان فرانسيسكو خافيير غونزاليس ثمانية من الأحصنة السوداء ومثلها من الأفراس البيضاء على وقع عزف الموسيقيين، وهي تتهادى برقصات ريفية ورعوية لبلوخ، بينما تولّت الحراسة فرقة من جوقة الشرف. وسار خلفهم حاكم المقاطعة برفقة بقية المسؤولين العسكريين ومفوضي الكنيسة. وعلى الأقدام أيضاً، ضباط أركان الأفواج، والصحف ورؤساء الأقسام المحلية، ومكوّنات الأرستقراطية الأساسية، بالاضافة إلى عدد كبير من رجال الدين والكنيسة. كان غونتر يود التقرّب بإكليل من الزهور، لكن المشاركة في حفلتي تأبين في نهار واحد بدت له نوعاً من التبذير. لقد شدّ انتباهه انطلاق الجوقة الأخرى، حيث صدح مزمار هندي بعزف رقصة باريوس.

كانت العربة تسير بحراسة ثلاثة من الصفوف التي لا تنتهي لجنود المشاة، وطالبات من إحدى مدارس الراهبات حيث تدرس بنات غونزاليس، وطلاب أحد المعاهد حيث يدرس أولاده الذكور. كان الطلاب يمشون بأقصى انتظام في أبهى ثيابهم المدرسية وهم يحاولون تحاشي التشويش على مهنية الجنود العسكرية، مما أثار تذمر غونتر وأعطى الصواب لسارمينتو عندما قال في تأبين دومنغيتو بأن أهل الباراغواي ورعاة البقر في السهول لا يجيدون إلا القتال والحرب.

لقد رُفعت في جادة مارتي أربعة أقواس جنائزية. تحت أحدها، الذي يرمز إلى الخلود، وضع تابوت غونزاليس وزُيّن بسعف النخيل

وأغصان الغار. وازدانت الساحة والمباني المحيطة باللافتات والشعارات. وغصّت الشرفات والنوافذ المحاذية بنساء من المتميزات ورجال من الطبقة الوسطى ودون ذلك، من الانتهازيين وعديمي النفع يتباهون بمعاطفهم القطنية. مع حلول الظلام أُنيرت الشوارع والمباني العامة ومنازل الجيران الرئيسية، وفي قبة السماء لمعت انفجارات الألعاب النارية، وتشكلت حدائق من المجرّات والأفلاك المضيئة.

بكت أمابولا والحلاق من التأثر، بينما أحسّ غونتر برغبة حمقاء في الضحك. استطاع تمييز الحاكم البدين بين المعزّين في الصفوف الأولى، ووزرائه الذين امتنع عن استقبالهم الكولونيل ساريّا-كيروغا، ومعهم عديد يثير الدهشة من الجنرالات ومجموعة من الأميركيين باللباس المدني، من الدبلوماسيين والقناصل دون شك، ولم يجد بينهم ممثل واشنطن. وأدهشه أن يرى بين هؤلاء، عجوزاً من كبار الكهنة، قد يتجاوزه طولاً، وعليه ملامح الصلابة والغموض كغروب في تلال غوييرا الحمراء تعجّ فيه الجنادب الليلية واليراعات البراقة.

عندئذ قرّر قبول دعوة الحلاق للكلام.

لقد أعطوه الكلمة قبل الأخيرة. أحاطت الشرطة ضريح العائلة غونزاليس بطوق من رجالها. وعلى الرغم من ذلك تدافعت هناك الحشود، وتصببت الجموع عرقاً في ظل غيوم سوداء بينما بدأ الرذاذ الخفيف بالسقوط.

ليس لغونتر أية بلاغة تأبينية على الاطلاق. لكزه الحلاق بمرفق

يده وأشار إليه بالوقوف إلى جانب التابوت والشروع بخطابه. فتح غونتر فمه، وبهرته عاكسات نشرة الأخبار الوطنية، سعل، وظن أنه بحاجة إلى كأس شراب، وبدأ الكلام:

- أنا أدعى فرانسيسكو خافيير غونتر، وسأتكلم باسم أصدقاء الجنرال غونزاليس الذي رأيته مرة واحدة في حياتي، لكنه كان يحمل اسمي نفسه.

نظر عن جانبيه، وكان مقتنعاً بأن كل خطاب يجب أن يبتدئ بدعابة. لكن الوجوه المتجهمة أنذرته بأنه كان يغرد خارج السرب. عندئذ أبدل وجهه بوجه رجل الاقتصاد.

- لا أرغب في الخوض في المسائل الشخصية، لكنني أودّ التنويه بأن الجنرال غونزاليس قد شرّفنا بصداقته لعائلتي. ولعله لذلك طلب مني أصدقاؤه بأن أسدد له العرفان بالاخلاص والعاطفة. هذه الشهادة أبغي بها أيضاً صادق المواساة وعميق التعزية، وأتوجه بها إلى أولاده الذين تحولوا إلى يتامى للمرة الثانية، وإلى أقاربه ورفاقه وجميع مشجعي نادي السرّو الذي كان الجنرال أكثر قادته تحمّساً، وإلى جميع الذين أحاطوه عن قرب في حياته.

في هذا اليوم الذي لفّ عائلتي بالحداد إلى الأبد، أودّ التعبير عن إعجابي بإنسانية الجنرال غونزاليس. أنا متأكد أنه فعل كل ما في وسعه لمساعدتنا. لقد أُعجبت بشخصه كثيراً عندما تعرفت إليه في كامبو غواسو، وأعتقد بأن كل من يذكر ابنة شقيقتي لن ينساه أبداً.

أظنهم دفعوا ثمناً غالياً لكي يتعلم الكثير من الموجودين هنا بعض الأشياء. أتكلم بصفتي الشخصية وليس بالنيابة عن نقابة الحلاقين ولا أي إدارة أخرى، وخصوصاً تلك التي تعرفون بأني أرأسها، والتي تقدّمت بالاستقالة منها هذا الصباح لأستقرّ في الباراغواي وأرى إن كان بمقدوري أن أكون مُفيداً هناك. لم أهتم يوماً بالسياسة ولم يكن بمقدوري فهم السياسيين، الذين يضحّون بعمرهم كله في سبيل الوصول إلى كرسي الرئاسة ولنعزف لهم الأناشيد أينما ذهبوا خلال بضع سنين. أظن أن بإمكان المرء أن يشعر بالاكتفاء لكونه مواطناً فرداً بين أربعمائة مليون من المواطنين في أميركا اللاتينية، وذلك أكثر منه رئيساً لإحدى جمهورياتها الصغيرة الهشة. لكني أعود في النهاية إلى الباراغواي لأنه وطني، والأفضل أن أختم كلامي قبل أن يهطل المطر.

في الواقع، فتح الناس مظلاتهم الواقية، ورفعوا ياقات معاطفهم وأخذوا يبحثون لهم عن مأوى تحت أفاريز الضرائح المجاورة. كان على ممثل رابطة كرة القدم في كورينتس التكلم بعد. وواصل الرجل التسعيني الكلام دون توقف. لكن الساحة تحولت إلى باحة مصارعة الثيران. وأقنعة الرجال المزخرفة على ظهور الأحصنة تماوجت على أنغام الجوقات برقصات واختيالات شبيهة بمسابقات الفلاحين. خمسون حصاناً مزينة بأغطية الفتوحات وهنود على ظهور الخيل بأبهى حللها وأغناها راحت تتنافس حول النار المستعرة وكلٌّ يبتغي الحلقة. وحينما يتلقفها الفائز برأس حربته الفضية، يحملها ويمضي

بها نحو العرائس ويرميها إليهن بعد سيل من التحيات، فيأخذنها من الشريط المعقود بها ويسقطنها في ثقب العنق.

توجه الحاكم بازدراء متعجرف إلى الكاهن قائلاً: إن الخلود فكرة طبيعية تماماً، ألا تظن ذلك، سيادتك؟ وافق الكاهن بانحناءة رأس وابتسامة غريبة: نعم، سيدي الحاكم، الأمر كذلك، ليس هناك أغرب من انبعاث الجسد إلا زرع الحب مرتين في الجسد نفسه. مالت ابنة وزير رائعة الجمال (تقريباً عذراء) نحو الحاكم دون أن ترفع نظرها عن الاحتفال الجنائزي: «ماذا قال غبطته؟ إن كان من الممكن أن أعرف؟ تنهد الرجل البدين من شدة الحر: لا شيء، يا ابنتي، لا شيء يمكن أن يثير اهتمامك الآن في حضور هذا المأتم الرائع الذي يشدّ الحواس. تأملي هذا الفارس البهلوان الهندي الذي يتجه نحونا بأسرع ما أمكن لفرسه. كان الفارس المغطى بالريش والأوشمة على طريقة هنود الكايغوا يقترب نحو منصة الحاكم. اقترب الحصان كالسهم يجر ذنبه خلفه كالمذنّب من السرعة. كان رشيقاً وضخماً في آن، منتصباً على ظهر الحصان، مستوياً كالجذع وعضلاته منتفخة ولا يغطي فرجه شيء، وفي ذراعه الممدودة غصنٌ طويلٌ من أغصان شجر جوز الهند وقد أدخله في الحلقة الحمراء التي تتماوج في الهواء. تتباطأ سرعة اقتراب الدابة التي اختفت شفاهها، تقترب الآن على إيقاع الرقص. خوذهم لا تضرب على وقع بتهوفن الآن، بل على وقع باريوس. خياشيمها تصفر بنفس أرجواني ينبعث بضغط هائل، يلف قائمتيها

بدخانه اللولبي ويلتف حول ذيل المذنّب خلف الحيوان الرائع مهدداً.

وثب الحاكم من مكانه وقد اصطبغ وجهه بالأخضر من الغضب، ودعا الحراس صارخاً وشهر سيفه في الهواء. بحق بعلزبوب! من هو هذا الكافر الوقح الذي يجرؤ على مثل هذه الوقاحة؟ هلم إلي أيّها الحراس! هل خانتكم أرجلكم؟ هلم إلي ببنادقكم الطويلة! تحرّكوا!

الوحش الأسطوري برأسين، رأس الحصان ورأس النمر، يتوقف فجأة أمام المنصّة. يرفع قوائمه عالياً، يخدش بها الهواء بحوافر كأنها أظفار. انحنى القسم الإنساني من الأعلى ووضع الأفعى مقابل أنف الحاكم. أطلقوا النار! أيّها الجلاّدون! أيها العمالقة! أمرهم بصوت يقطّعه الغضب والرعب. أطلقوا النار! أيها الرماة الأوغاد! صرخ صوت الحاكم خارجاً عن طوره. دوّت الطلقات أخيراً، وسمع أزيز الرصاص. ها هي أسنان المتوحش بين البارود والدخان، ووشومه تبرق تحت رذاذ المطر وفي الظلمة التي بدأت بالهبوط. وبشوكة جوز الهند نفسها يشقّ الجلد النحاسي من الحنجرة إلى البطن وينزع عنه قناع الشمع ويرمي بكومة من الريش والحراشف، مثل مسيح-حواء متوحش، أمهق شديد البياض، أبيض السحنة أبيض العيون! إنها مالينا الناصرية، صاحبة المسيح-النمر. إنها سوليداد مونتويا سنابريا غونتر، التي دفنت هذا الصباح، إنها هنا! هي زعيمة قبيلة الكايغوا غوالاتشي وساحرتهم ونبيتهم! لا تدع المشعوذة تعش! صاح الحاكم كالديك المبحوح. لم يتمكن من السيطرة عليها الفاتحون ولا المماليك!

وفرس الأمير كونيا كارائي بدورها أيضاً تتحول إلى نمر سماوي، فكّاه أحمران رطبان وأنيابه من عاج خالص، والبقع على جلده تلمع كالمعادن تحت ضوء القمر. جثا رئيس أساقفة كورينتس على ركبتيه تبجيلاً لظهور سوليداد الباهر وأشار بصليب قلادته نحو جسدها الجريح المتألق، الذي اختفى من بطنها موضع سرّتها. تابع الحاكم صراخه وعواءه مثل صياح الفئران بين زأرات النمر. زخّة أخرى من الرصاص على الجسد العاري، والشاعرة تطقطق أصابعها. يرتفع النمر بوثبة فوق المنصة المرتعدة رعباً. يتحول الآن إلى نيزك، إلى مذنّب. يعبر فوق النهر ويختفي في السماء نحو الجبال جهة المشرق.

13

بعد سنوات طويلة، عندما بدأت إليزا تشعر بأنها لم تعد شابة، وتتسلّى بسماع أسطوانات قديمة لشارلي باركر وقت الأمسيات، وتعتني بزهور الجيرانيوم التي تركها السيد اليهاندرينو، وتعلّم الإنكليزية لأولاد فيرونيكا، كانت على اقتناع بأن جميع خيوط هذه القصة كانت محكومة بأن تتلاقى في مدريد.

في نهاية ذلك الشتاء، عام 1983، عاد آل غونتر إلى واشنطن لبضعة أيام، وأوكلوا دارتهم إلى وكالة عقارية، وحجزوا تذاكر السفر هذه المرة للذهاب فقط. اقترحت إليزا على بانشو بأن تكون محطتهم لمرة أخيرة في أوروبا، ولكن ليس في باريس. كانت تدرك بأن أشجار الألاموس المحيطة بالمنزل الريفي لم تكن لتبلغ كامل رونقها في منتصف شهر آب/ أغسطس، ولكن بدا لها كنوع من الكبرياء الشخصي، أو حماقة مؤثرة قد يستسيغها ماتشادو، المرور في نفق مدريد للوصول إلى الربيع المشبع والمنعش في الجنوب، وبأيدٍ خالية من الأحقاد وبعيون نظيفة من الذكريات.

لم تكن ترغب أن ترى نفسها تعيش أيّة حالة بعينها، لأن جميع

الحالات بدت لها أدبية وسخيفة. لم ترغب أن تعيش حياتها كما في الروايات، وكانت تشعر بالرضى نوعاً ما لأنها حصلت على مبتغاها حتى الآن. في إحدى المرات، ومنذ زمن، كان غونتر قد سألها لماذا لا تحاول إنهاء روايتها حول مدام لينش وكتابة أخرى، حيث أنها تعجب بالأدب، وأجابته هي بأن شغفها باللغة الاسبانية كلغة، قد ولد عندها قبل اهتمامها بالأدب، الذي اكتسبته بتجرّد، ربما لأنه كان فناً شديد الوحدة، وأنها الآن لا تشعر بأنها تمتلك العفوية الكافية في أية من اللغتين لإعادة المحاولة. وقالت له أيضاً بأنها كانت تخشى بأن تكون شديدة الحرص على الكمال للدرجة التي تطمح معها إلى كتابة قصة تبدو إلى جانبها بقية الروايات أدباً.

لم يفهم غونتر كعادته، لكن إليزا ولحسن الحظ لم تنفعل. لقد رفضت أن تكون محطتها هذه فصلاً روائياً. على العكس، كانت تساورها الشكوك بداخلها بأن مدريد يمكن أن تختم هذا الشتاء بدون مفاجآت مذهلة. لم تكن ترغب في رؤية أحد، ولا حتى أصدقائها القدامى، أمثال ميغيلو وجوستي وأنطونيو، ناهيك عن رؤية زوجها السابق. ولم يكن وارداً لديها حضور أي حدث ثقافي. كانت تريد فقط أن تتنفس هواء الأطفال في المنزل الريفي وتتناول قطعة من البوظة عند المستنقع، وربما صعود قطار حديقة الملاهي. لم تفكّر بأن تطأ قدماها مكتبة ولا في شراء أسطوانات. كانت ترغب فقط في المشي في جادة أرغوييس، والمرور قبالة شقتها القديمة، الأولى، حيث كانت تسكن

عازبة، والتي كانت تبدو على ما كانت عليه آنذاك، والواقعة على شارع فرنانديز دلوس ريوس، وأن تمسك بيد غونتر وتشدّ عليها، دون أن يعي كعادته، ابن العاهرة، الحب الكبير الذي ما زالت تكنه له.

عندما حلّقت بهما الطائرة فوق منطقة براخاس، شعرت إليزا بأن مدريد هي المكان المثالي، ليس للتذكّر، وإنما لترك التذكّر. كانت الشوارع في قطاع بلازا مايور، وحتى بين المباني المخروطية في شامارتين، تعبق برائحة كل ما هو قديم بشكل سرّي، أقلّه في أنفها كأميركية، وقد ولدّ لديها الانطباع بأن الذكريات تقلع من ذاكرتها وتلتصق إلى الأبد بهذه الجدران المتشقّقة، الطيّبة والرابطة الجأش كالأجداد، والتي تشكّل موزاييكاً متعدد الألوان من ملصقات طفولية غير مرئية كنا ندعوها يوماً ما فونيس.

إن شيخوخة مدريد تشعرها بالشباب، وكانت إليزا ترغب في إيداعها أسرارها مثل صديق قديم، لأنها كانت تشعر برغبة جامحة في الحياة. وبينما كانت تشدّ حزام المقعد استعداداً للهبوط، بدا لها بأنها ترى مرة أخرى، كما في صورة ضبابية، يدي رئيس الأساقفة العالمتين القاسيتين، وشفتي طوطو الثملتين المرتجفتين ترتشفان من تلك الكأس في أوكلاهوما كما لو أنها آخر كأس مرغريتا، وعيني أمابولا الذابلتين الحزينتين، وكيساً فيه الهامبرغر منسياً على حافة الضريح في كورينتس.

انتشلها صوت زوجها من غرقها في أفكارها.

- لنرى إن كنا سنذهب نحن إلى الجحيم أيضاً بعد كل الحوادث التي جرت في هذا المطار! قال غونتر.

لكن الطائرة لم تهتز أكثر من المعتاد وحطّت على أرض المطار بسلاسة مقبولة. لقد تأكدت إليزا بما لا يقبل الشك بأنه لن يحدث معهما ما يحدث في الروايات، مع أن الاحتمال غير الأدبي للموت لم يكن ليغريها بأدنى القليل.

كما كان مقرراً، استقرّا في غرفة في فندق ميليا برنسيسا، على مسافة متوازية من ذكريات أرغوييس وأقداح المارتيني في غران فيا، وهكذا يستطيع كل منهما تذوق ما أتيا لوداعه. قضيا نهاية أسبوع طويلة، من الخميس إلى الأحد. وفي صباح يوم الإثنين الباكر، كانت إليزا تحزم أمتعتها، فهما سيستقلّان الطائرة إلى اسنسيون هذه الليلة. نزل غونتر لإحضار الفطور وبعض الجرائد. عندما دخل إلى الغرفة، ترك الصينية وعليها القهوة السوداء والكرواسان على السرير، وفتح جريدة الباييس ليوم الأحد، وعرض لإليزا الصفحة الثقافية.

- انظري! وأشار إلى مربّع صغير فيه صورة. - ها هو مثلك الأعلى في مدريد.

قرأت إليزا بأن الفنان البرازيلي الذي يعيش في فرنسا سيقدّم أحدث تسجيلاته في معهد التعاون الايبرو-أميركي هذه الظهيرة.

- يا لحسن الحظ! قالت إليزا. - نستطيع الذهاب، أليس كذلك؟ المكان ليس ببعيد. يمكننا إلقاء التحية عليه. لا نعلم متى يمكننا رؤيته من جديد.

- حسناً! قال غونتر. - قد يكون من الأفضل أن نخلي الغرفة أولاً، فهم سيحتفظون بأمتعتنا في الاستقبال، وهكذا نمرّ لأخذها في طريقنا إلى المطار، إن تأخرنا قليلاً بالعودة.

لم تكن الصالة في الطابق الرابع من المعهد كبيرة، لكنها كانت مكتظة بالآباط بدون مزيل الرائحة وبالأفواه التي تختنق بشطائر لحم الخنزير المدخّن. تذكّر غونتر مكتبة العراة في باريس وظنّ بأن عليه أن يدفع الحضور بمرفقيه كلّما رأى ليفيو ابرامو. لم تكن إليزا من قصيرات القامة، ولكنها لم تمتلك مرقباً بطول مترين، لذلك طلبت من غونتر أن يحاول استكشاف المكان الذي انزوى فيه الفنان بين هذا الجمع الكبير.

- هو هناك! صاح غونتر، وأشار كأنه رودريغو دي تريانا نحو النافذة الكبيرة المطلّة على جادة الملوك الكاثوليك. - إلى جانب هذا الملتحي.

أخذ زوجته من وسطها ورفعها عن الأرض نصف متر. رأت إليزا الفنان البرازيلي يتحدث بهدوء مع وزير الثقافة. زاحم آل غونتر ودافعا الحضور بمرافقهما وداسا بعض الصنادل النتنة ووصلا أخيراً إلى النافذة، التي تدلت عليها سجّادة امبراطورية من عهد فرانكو كما تتدلى الخصيتان في كيسيهما.

دارت عينا السيد ليفيو والوزير تلقائياً نحو العملاق الألماني والزنجية الحسناء.

- مرحباً، يا للمفاجأة! قال الرسّام ضاحكاً ومتعجباً. - ماذا تفعلان هنا؟

قبّل إليزا وشدّ على يد غونتر، وقدّمهما إلى الوزير الذي لم يفهم ماذا يدور حوله. اقترب منهم أحد الخدم يحمل صينية، فاغتنم غونتر الفرصة وتناول قدحاً من المشروب المثلج.

- حسناً، يبدو أننا نلتقي دائماً في الأوقات الأكثر حرجاً! قالت إليزا منفعلة. - إننا في طريقنا، نغادر إلى اسنسيون هذه الليلة.

- هكذا إذن! قال السيد ليفيو. - في المرة الماضية في باريس ظننتكما لن تغادرا الليلة نفسها.

التزمت إليزا الصمت. هل تراه علم السيد ليفيو بكل ما جرى؟ تراهم أخبروه بموت سوليداد، وانتحار الجنرال غونزالس واستقالة غونتر؟ كانت تودّ أن يقدّر الرسّام ما قام به بانشو، شجاعته واستقلاليته، وإعادة ولادته الدونكيشوتية غير المتوقعة! كانت إليزا تظن بأن هذا الأميركي اللاتيني الصغير والناعم، ولكنه شديد القسوة على الآخرين وعلى نفسه بمسائل العاطفة الأخلاقية، يحمل فوق كتفيه المتعبتين، وهو الرجل المنفي، تلك الجذور ومجموع الوعي الذي تضيفه الشعوب، كقبضة من تراب، لفنّانيها العظام. أحسّت بغصّة لا تحتمل في حنجرتها، واستطاعت فقط أن تنظر وقتاً طويلاً بعينيها الكبيرتين الحزينتين، والمبللتين والوحشيتين مثل زمردة ما زالت في الصخر.

سعل الوزير قلقاً ومدّ يده إلى جيبه يبحث عن غليونه.

- حسناً يا صديقي! قال غونتر أخيراً، واضعاً حداً لهذه المعاناة بالثقة نفسها التي يمضغ بها أعواد الكرافس النيء. - في المرة الماضية دعوتك للعشاء ولم تقبل. ما رأيك لو اجتمعنا على طبق باييلا في غران فيا؟

- لكن بانشو! تمتمت إليزا، - لعل للسيد ليفيو التزاماً مع السيد الوزير؟

- أنا ارافقكم حيث شئتم! قال الملتحي.

كتم السيد ليفيو ضحكته، التي دلّت على العذوبة بدل السخرية.

- طبعاً غونتر، وأنا أيضاً أذهب حيث تقولون.

لم يره فرانسيسكو خافيير غونتر مرة أخرى. توفي غونتر، الذي تبرأ صغيراً من اللوثرية، في العام 1987 بعد معاناة مع سرطان البروستات خلال فترة الميلاد الخصبة والأكثر تجسيداً للعادات المسيحية في الجنوب، حيث تبلل زهور جوز الهند بالمياه المباركة. لقد عاش غونتر في وطنه سعيداً، وإن كانت حياته قاسية. زرعت إليزا على قبره شجرة لاباشو فيروزية وبقيت تنتظر حتى يزهر له جناحان.

النهاية.

هي الرواية الأكثر أهمية في الباراغواي في العقود الأربعة الأخيرة، "شتاء غونتر" للمفكر خوان مانويل ماركوس، والمترجمة إلى أكثر من عشرين لغة، وهي تشكيلٌ نابضٌ من تقنيات السرد غير المنشورة قبلاً في وقتها، والتي بشّرت بالطفرة الأدبية في أمريكا اللاتينية؛ وهي شهادة تقشعرّ لها الأبدان. تتناول المثالية وكفاح الشباب والمثقفين بمواجهة الديكتاتوريات في سنوات الثمانينات.

هذا العمل المؤثّر، بما يحتويه من جماليات النثر الشعري، وإيقاعاته المزلزلة ودعابته المحببة، هو دعوة للقارئ للغوص في تركيبة هذا النص الفريدة، وهو في آن معاً رواية بوليسية، وقصة حب عاصف، وتفكّر في الجذور الأسطورية لثقافة الغوارانية، وهو احتفالية بالكلمة وعيدٌ لها.

خوان مانويل ماركوس (اسنسيون 1950) هو من أكثر الكتاب أهمية في الباراغواي. مسيرته الأدبية كانت معنية بالشباب، والحب، والتضامن مع المحرومين، ومكافحة الظلم. واجه ماركوس السجن والتعذيب والنفي وعانى الإقصاء القسري مدة اثني عشر عاماً، حصّل خلالها أرقى الشهادات ومراتب الشرف الأكاديمية الأكثر احتراماً وتقديراً في اسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

عند انتهاء الديكتاتورية في العام 1989، انسحب ماركوس من إدارة التعليم العالي في جامعة كاليفورنيا وعاد إلى الباراغواي حيث تابع مسيرته الأدبية وأسّس جامعة الشمال، وهي اليوم أكبر الجامعات المرموقة في البلد، ورحّب فيها بالمثقفين والمقاومين الملاحقين من الديكتاتورية، وحقق من خلالها أكبر مساهمة للقطاع الخاص في مجالات البحث العلمي والأدب والتاريخ الوطني، كما انتُخب نائباً في البرلمان وفي مجلس الشيوخ، وترأس البرلمان الثقافي لدول السوق المشتركة للجنوب.

رائعاته الأدبية ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة، نُشرت في أمريكا اللاتينية وأوروبا وآسيا. "شتاء غونتر" تعتبر اليوم الرواية الأكثر أهمية في العقود الأربعة الأخيرة في الباراغواي والمساهمة الأكثر فعالية في تجدّد الشعر المعاصر في الباراغواي.

ISBN 978-614-432-074-7
9 786144 320747